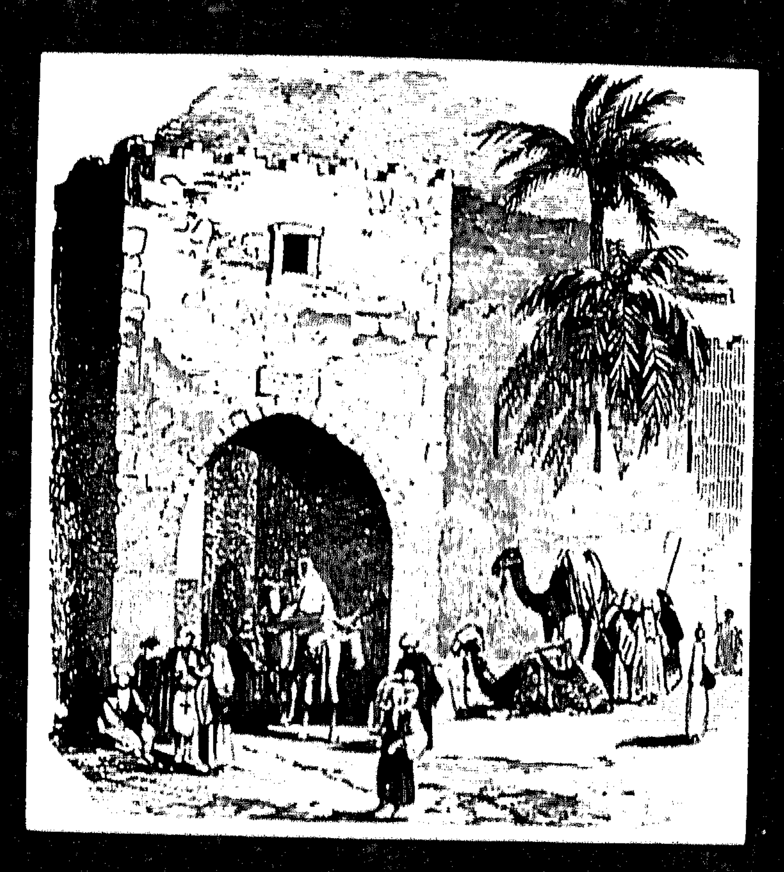
سليمان موسى

رحلات في الأردن وفلسطين



منشورات دائرة الثقافة والفنون - عمان

الطبعة الأولى

١٥ أيلول ١٩٨٧

رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
١٩٨٦/٤/١٥٦

مقدمـــــة

هذا كتاب رحلات وأسفار لعدد من الرحّالين الأجانب، الذين زاروا بلادنا في فترات متعاقبة، في أثناء القرن التاسع عشر. بعضهم أقام فيها مدة طويلة وكتب من معين تجربة وخبرة، وبعضهم مرّ بها معجلاً فسجّل ملاحظاته وانطباعاته. والكتب على العموم ضخمة كثيرة الصفحات، ومن الصعب - بل من غير الضروري - ترجمتها كاملة. وكنت طالعتها فخطر لي أن أنقل ما يهمّ القارىء العربي منها. وهذه الكتب تنطوي على معلومات تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية وتجارية، كما تتضمن وصفاً للتقاليد والعادات والأحوال والظروف المعيشية وطراز الأزياء الشعبية التي كانت سائدة يومذاك. ربما يعجبنا بعض ما ورد فيها وربما لا يعجبنا، ولكن لا بدّ لنا من الاطلاع على ما كتبه الغربيون عن بلادنا، وخاصة لأنه لا يوجد لدينا الا القليل من كتابات أبناء بلادنا المماثلة.

نرى من صفحات هذه الكتب أن بلادنا كانت عامرةً بأهلها في القرن التاسع عشر (والقرون التي سبقته). وعلى الرغم مما ألمّ بها وبأهلها من مظالم الحكّام، ومن اعتداء الانسان على أخيه الانسان، ومن الجهل والفوضى وسوء تصرّف الحكومات وعجزها وإهمالها وجهلها - فقد كان الأهلون يزرعون الأرض ويربّون الماشية، ويعيشون من انتاجهم الزراعي، بل يصدّرون مقادير من ذلك الانتاج إلى أقطار أخرى. وعمران البلاد بأهلها العرب ووفرة خيراتها، يقدم أكبر دليل على بطلان ادعاءات الصهيونية حينما تزعم ان فلسطين والأردن كانتا خراباً يباباً قبل بدء الغزوة الاسرائيلية.

نُشرت فصول هذا الكتاب في حلقات على صفحات جريدة (الرأي) خلال فترة ١٩ / ١٠ / ١٩٨٥ ـ ٢٠ / ١ / ١٩٨٦ . وقد أسعدني حقاً ما لقيت من اهتمام القراء، بل انني شعرت بالاغتباط عندما قال لي أحد الأساتذة المرموقين ذات يوم إنه حرص على الاحتفاظ بقصاصات تلك الحلقات . وفي واقع الأمر فإن بعض الباحثين استعانوا في بعض تآليفهم وبحوثهم، بما ورد في تلك الحلقات، وبكتابيّ السابقين في الموضوع نفسه (في ربوع الأردن، من منشورات دائرة الثقافة والفنون سنة ١٩٧٤ ، وكتاب : رحلات في الأردن وفلسطين، من منشورات دار ابن رشد، بعمان، سنة ١٩٨٤) .

يتضمن الكتاب طرائف كثيرة، ولكنني أحب أن أشير بصورة خاصة إلى رأي الدكتور تومسون (الذي عاش في سوريا الطبيعية أكثر من ثلاثين سنة)، عندما وصف أهل هذه البلاد بقوله «كل عربي سياسي» . ولا حاجة بي للتأكيد على أن هذا القول ما يزال صحيحاً بالنسبة لأبناء بلادنا حتى يومنا هذا .

وأخيراً ـ وليس آخراً ـ فلا بدّ من التنويه بفضل دائرة الثقافة والفنون في مجال نشر الكتب، ومن جملتها كتابي هذا . ومن هنا فإنني أقدّم أجزل الشكر للصديق الشاعر المبدع حيدر محمود، مدير الدائرة، ولمساعده الصديق أسامة مقدادي، جزاهما الله خير الجزاء .

عمان ٤ أيلول ١٩٨٧ سليمان موسى

أسفار في فلسطين

تأليف : ج.س. بكنجهام

أسفار في فلسطين

تأليف : ج.س. بكنجهام

هذا رحالة بريطاني، أحبَّ الأسفار منذ نعومة أظفاره، فساح في عدد من أقطار العالم. جاء إلى مصر وهناك التقى بالرحالة السويسري بركهارت، وسافر إلى بلاد النوبة، ودرس اللغة العربية، وارتدى لباس الفلاحين المصريين. ومن القاهرة سافر إلى الحجاز مع المحمل المصري في عهد محمد علي باشا، وكانت قافلة المحمل تضم خمسة آلاف جمل وخمسين ألف حاج. ومن الحجاز مضى إلى الهند ثم عاد إلى مصر عن طريق اليمن، وزار سوريا والعراق ثم بلاد فارس (ايران) ثم مسقط ورأس الخيمة.

يتضمن هذا الكتاب تفاصيل رحلته في فلسطين وشرقي الأردن، تلك الرحلة التي قام بها في شهري كانون الثاني وشباط عام ١٨١٦ . وهو يقول أن أحداً من الرحّالين لم يسبقه لزيارة الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن فيما عدا الألماني سيتزن والسويسري بركهارت، وكان كلاهما قد قضى نحبه عند طبع كتابه هذا. وقد ساعدته معرفته باللغة العربية على تسجيل أسماء القرى والمواقع. ورافقه في أجزاء من رحلته بريطاني آخر (المستر بانكس) عضو مجلس العموم البريطاني.

اني فيما يلي أقدّم عرضاً لما ورد في هذا الكتاب من مشاهدات

عن كتاب

J.S. Buckingham: Travels in Palestine, through the countries of Bashan and Gilead East of the River Jordan; London, Longman, Hurst, Rees, Orme & Brown; 1821.

ومعلومات تهم القارىء العربي المعاصر. والكتاب ضخم يقع في ٥٥٣ صفحة. ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أن المؤلف كان متأثراً بما ورد في كتاب (العهد القديم) وفي كتب اليهود القديمة عن فلسطين والأردن، وهذا التأثر كان يدفعه دائماً إلى عرض ما ورد في تلك الكتب من أخبار تتعلق بكل موقع كان يحل فيه. ليس ذلك فحسب، بل انه كان يعود إلى ما أوردته صفحات التاريخ عن تلك المواقع في العصور المعروفة المختلفة. من هنا أود أن أكرّر القول أن ما أقدمه هنا يستهدف اعطاء القارىء المعاصر صورةً عن أحوال بلادنا في أيام زيارة هذا الرحالة لها (كانون الثاني وشباط ١٨١٦) ورأيت من الأفضل أن أقدّم النص على لسان الرحّالة نفسه، خدمة للحقيقة وأدب السياق.

صــور وعـكا

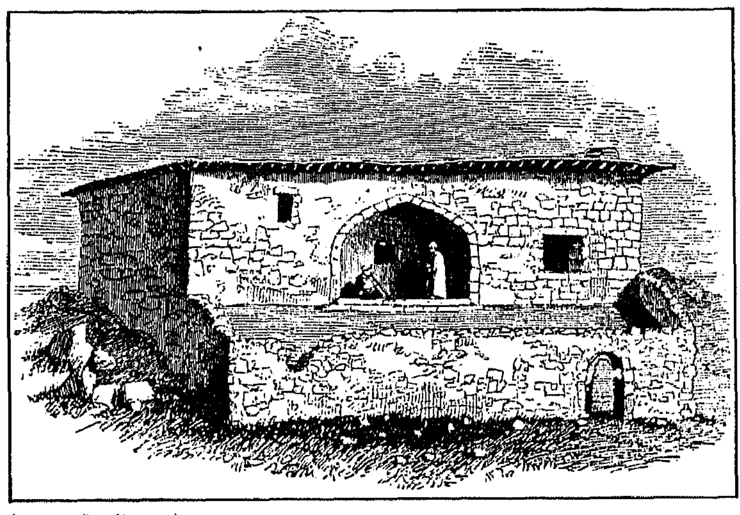
أبحرتُ من الأسكندرية إلى الساحل السوري في سفينة شراعية صغيرة من النوع الذي يطلق عليه اسم (شختور)، وهي سفينة كانت تحمل القمح إلى سوريا. وكان ربان السفينة والملاحون، وعدد الجميع عشرة رجال، عرباً سوريين (من مذهب الارثوذكس). وكانت السفينة تحمل عدداً من المسافرين السوريين والمغاربة. وبعد بضعة أيام قضيناها في عرض البحر وصلنا إلى ميناء صور (٦ كانون الثاني ١٨١٦).

ان بلدة صور الحالية محاطة بسور، ويتراوح عدد سكانها من خمسة إلى ثمانية آلاف شخص، ثلاثة أرباعهم مسيحيون كاثوليك، وفيها جامع وثلاث كنائس وحمّام وثلاثة أسواق.

بعد أن قضيت يومين في صور، اتجهت إلى مدينة عكا ومعي خادمي. كان صديقي الشيخ ابراهيم (بركهارت) قد نصحني أن أحصل على فرمان من باشا عكا أو باشا دمشق، حتى يُتاح لي التنقل بأمان في المنطقة التي يحكمها كل واحد منهما. ولما كان باشا دمشق قد توفي قبل بضعة أيام، فإن سليمان باشا (الوالي في عكا) أعلن انه تلقى الأوامر من السلطان بأن تكون

ولاية دمشق خاضعة له، وأرسل جميع ما لديه من قوات عسكرية لتنفيذ تلك الأوامر.

غادرنا صور صبيحة يوم ٨ كانون الثاني، وركبنا أنا وخادمي بغلينا. وكان على ظهر كل بغل خُرْج من الشعر المغزول يحتوي على متاعنا القليل، ورافقنا مكاري على ظهر حمار له. وكل واحد منا يحمل سلاحاً مؤلفاً من بندقية (من الطراز القديم) ومسدس وسيف. ومضينا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى رأس الناقورة، ثم مررنا بالقرب من بلدة الزيب. وأخيراً وصلنا إلى حقولٍ وأراضٍ مزروعة جيداً، وطرق ممهدة وعبّارات فوق جداول الماء. وشاهدنا عكا تحت مدى أبصارنا، ولكن الشمس كانت توشك أن تغيب، ولم يكن هناك أي أمل بأن ندخل اليها بعد أن تسود الظلمة، ولذلك انتحينا إلى قرية مفشور (؟) ونزلنا عند عائلة مزارعين لنقضي الليلة هناك. ولم تكن القرية تتألف الا من عدد قليل من البيوت، ولكنها كانت بيوتاً واسعة مبنية من الحجارة، وهي بيوت ذات قناطر. وكان البيت الذي نزلنا فيه يؤوي أربعة ثيران وبعض النعاج إلى جانب بغلينا والحمار. وقد فرش المضيف لنا حصراً نظيفة بين أكداس القطن، بينما كان أصحاب البيت في



بيت عربي (عن كتاب تومسون)

الجانب الداخلي حيث الموقدة والنار. وبعد قليل جاءني أصحاب البيت بأفضل فرشة لديهم ولحاف ووسادتين. ثم أعدّت ربة المنزل عشاء لنا من الأرز والبيض وحب الزيتون. وفي الصباح دهشت لحسن معاملة هؤلاء الفلاحين الفقراء، لأنهم لم يطلبوا سوى ثلاثة قروش ونصف فقط، أي أكثر بقليل من نصف دولار، مقابل الطعام الذي قدموه لنا والعلف الذي قدموه لدوابنا.

في الساعة التاسعة صباحاً أقبلنا على عكا سائرين في أرض مزروعة جيداً، وبين البساتين. وبدا لنا أن أسوار المدينة قوية. وبعد أن دخلنا من بوابة المدينة، مررنا بشوارع مرصوفة، إلى أن وصلنا إلى دار القنصل الانكليزي. وأعلمت القنصل بسبب زيارتي الا وهي رغبتي في الحصول على فرمان من الوالي سليمان باشا لكي نتجول في البلاد بحرية واطمئنان. ولكن القنصل قال أن الباشا كان قد انطلق في اليوم السابق على رأس قوة كبيرة من الجنود لكي يفرض سيطرته على مناطق الجليل ونابلس والقدس، بينما كان أحد ضباطه الموثوقين قد انطلق قبل ذلك نحو دمشق. وذهبت إلى نائب الوالي أعرض أمري عليه فقال انه يستطيع أن يؤمّن سلامتنا في عكا نفسها فقط، لأن حاكم كل بلدة يتمتع بصلاحية كبيرة ولن يوافق على اطاعة الأوامر التي تصدر اليه من رؤسائه. أما القنصل الفرنسي فقد حذّرنا من التجوال في أي منطقة من سوريا دون أن يكون معنا فرمان من الباشا، لأن اضطراب الأحوال يتيح المجال لأية قوة من الجنود ترابط في أية بلدة، كي تلحق الأذى بنا، هذا بالإضافة إلى لصوص الجبال وفلاحي القرى. وأعطى القنصل مثالاً على ذلك بأن رحالة فرنسياً لقي حتفه قبل مدة قريبة. وأرسلنا ترجمان القنصلية إلى نائب الوالي مرة ثانية، فعاد وهو يحمل رسالة توصية باللغة العربية يرجو فيها ضباط المناطق أن لا يعترضوا طريقنا من عكا إلى القدس ـ حيث كنا نأمل أن نلحق بالباشا هناك ونحصل منه على الفرمان المطلوب.

استأجرت بغلين بنفس القيمة التي دفعناها من صور إلى عكا، أي ستون قرشاً للرحلة كلها. ثم حزمنا أمتعتنا وحشونا أسلحتنا بالذخيرة،

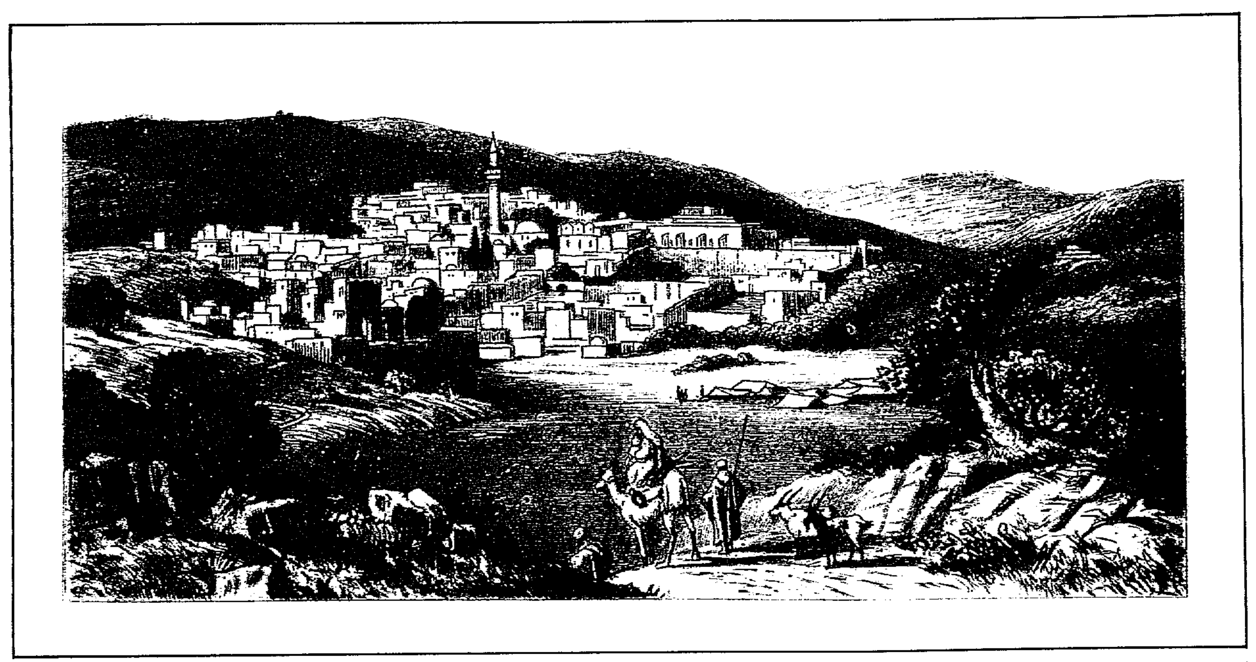
وتزودنا بأرغفة خبز وقهوة ودخان. ولكن عندما أصبح الصباح أخذت الأمطار تهطل بغزارة، فرفض المكاري أن يغادر المدينة في طقس كهذا، ولذلك اضطررنا للبقاء في المنزل، وقضيت الوقت في تسجيل ملاحظاتي.

يُعتبر قصر سليمان باشا من الأبنية البارزة في عكا، وقبالته جامع ذو قبة ومأذنة. وفي المدينة سوقان طويلان تغطيهما العقود، ولهما فتحات من فوق لدخول الضوء. ولكل سوق بوابة من الطرفين يتم اغلاقها من أجل المحافظة على البضائع. وهناك خان قديم من أفضل ما شاهدت، وهو يتألف من ساحة مربعة واسعة، ونافورة ماء في الوسط، وأروقة تحيط بالساحة، وفوق الأروقة أبهاء ذات غرف تستعمل لاقامة الغرباء. ان زخارف هذا الخان وطراز بنائه تعطي الدليل على أنه أفضل وأجمل صرح بقي من منشآت المسلمين هنا. أما الأماكن الدينية فتتألف من سبعة مساجد ودير للكاثوليك وكنيسة للروم. ونصف سكان عكا من المسلمين بين عرب وأتراك، بينما يتألف النصف الثاني من مسيحيين ويهود. وزعيم اليهود، واسمه المعلم حاييم، صاحب نفوذ كبير في عكا ويُعتبر بمثابة وزير مالية لسليمان باشا، وهو يستمد نفوذه من ثروته الكبيرة. وفي الأسواق بضائع كثيرة. أما أهم الأعمال التجارية فهي تصدير القطن الذي يزرعه الأهلون هنا، واستيراد البضائع التي يحتاج اليها أهل البلاد.

أما حاكم عكا الشهير أحمد باشا الجزار فقد توفي عن ٧٥ عاماً في ٧ أيار ١٨٠٤ نتيجة مرض أصابه واستمر يعاني منه تسعة أشهر. وقد اشتهر الجزار بقوته البدنية وشجاعته الوحشية وقسوته وطمعه، كما أنه نجح في السيطرة على باشويات صيدا ودمشق وطرابلس. وبعد أن أصابه المرض وعرف بدنو أجله عمد إلى اقتراف مزيد من أعمال القتل والتعذيب.

الناصرة وحيفا

في صباح يوم ١١ كانون الثاني غادرنا عكا باتجاه الشرق فبلغنا بلدة شفا عمرو، وهي تتألف من ٦٠ إلى ٨٠ منزلاً. ومضينا في سيرنا إلى أن



الناصرة (عن كتاب تومسون)

بلغنا قرية صفورية. وعند المساء وصلنا إلى الناصرة التي يدل مظهرها على أنها بلدة كبيرة تضم نحو مائتي منزل وفيها جامع صغير. ومررنا في شوارع ضيقة حتى وصلنا إلى دير الفرنسيسكان.

كنا نأمل أن نعبر من الناصرة إلى جبال نابلس لكي نصل من هناك إلى القدس، ولكننا علمنا في الناصرة أنه يستحيل علينا السفر وحدنا، وأنه لا بدّ لنا من السفر ضمن قافلة كبيرة أو في حماية قوة عسكرية. وعلى سبيل المثال قيل لنا أن ما يقارب خمسين بغلاً نُهبت قبل فترة بعد أن لقي أربعة من أصحابها حتفهم.

يُقدّر عدد سكان الناصرة بألفي شخص معظمهم من المسيحيين. وهم جميعاً عرب يعيشون حياة تسامح وصفاء على الرغم من اختلاف مذاهبهم.

وأخيراً تدبّر الرهبان لنا دليلاً مسلحاً كي يسير معنا إلى القدس. وعند الظهر وصلنا إلى قرية دبورية. ولكننا فوجئنا بعد أن ابتعدنا مسافة عنها، بخمسة أو ستة رجال مسلحين، يقفون في طريقنا ويهددون بقتلنا إذا عمدنا إلى المقاومة، وقالوا أنهم لا يريدون الا تشليحنا. لم نخضع لذلك التهديد وبادرنا إلى اطلاق نيران أسلحتنا على اللصوص فأسرعوا للاختباء وراء الصخور. وبعد تبادل اطلاق النار أصيب أحد المهاجمين برصاصة من بندقيتي وأخذ يصرخ، وعندما أسرع رفاقه إلى نجدته اغتنمنا الفرصة لمتابعة طريقنا. ولكن دليلنا النصراوي اعتذر عن مواصلة السير وأصرّ على أن نعود إلى الناصرة، حتى نبحث عن وسائل أفضل تكفل سلامتنا في سفرتنا.

وهكذا اضطررت أن أسلك طريقاً أخرى للوصول إلى القدس، فغادرت الناصرة باتجاه الغرب، ومررت بعدة قرى حتى عبرنا نهر المقطّع (قيشون) وبلغنا قرية بلد الشيخ ومنها إلى حيفا، حيث قضينا ليلة في ضيافة راهب كرملي. وفي اليوم التالي تجولت في بلدة حيفا التي يحيط بها سور له بوابتان واحدة من الشمال والثانية من الجنوب. وتحصينات البلدة ضعيفة وفيها ستة مدافع فقط، ولا يوجد فيها حرس لأن جميع الجنود غادروها إلى

دمشق. ويُقدّر عدد سكان حيفا بألف نسمة معظمهم مسلمون، والباقون من المسيحيين والدروز. وفي البلدة جامعان، كان أحدهما فيما مضى كنيسة. وهناك كنيسة صغيرة.

غادرنا حيفا عبر السهل الواقع بين جبل الكرمل والخليج، والذي تكثر فيه أشجار الزيتون. ثم زرنا الدير على قمة جبل الكرمل، فلم نجد أحداً يقيم فيه، بل أن الراهب المسؤول عنه يقطن في بلدة حيفا. ومضينا في سيرنا فمررنا بالقرب من قرية عتليت، ومنها إلى قرية الطنطورة التي تتألف من ٤٠ إلى ٥٠ منزلاً، وفيها خان لنزول المسافرين يطلق عليه الأهلون اسم (قلعة العتيق). ولا يزيد عدد سكان القرية على ٥٠٠ نسمة، وقد استقبلنا الشيخ وأخذنا إلى الخان. وهذا الخان يتألف من أربع مقاصير. ووجدنا حصيرة نظيفة ومأوى لنا ولبهائمنا، وجاء القيّم بحطب لنا فأشعلنا ناراً، وكان عشاؤنا مما كنا نحمل معنا من خبز وأرز. ثم انضم الينا اثنان من الجنود الأتراك، وجاء شيوخ القرية يزوروننا ويسألون من أين جئنا وإلى أين نريد الذهاب وما هي الغاية من رحلتنا. وسألونا باهتمام عن بونابرت لأنهم كانوا يعرفونه، كما تساءلوا متى سيهطل المطر، لأن فلاحتهم للأرض تأخرت بسبب انحباس الغيث (١٤ كانون الثاني).

في الصباح الباكر غادرنا قرية الطنطورة، ومررنا بخرائب قيسارية (التي كانت ذات يوم ميناء عظيمة لفلسطين وتُعرف باسم قيصرية)، والتي كان استيلاء العرب عليها في القرن السابع للميلاد خاتمة فتوحاتهم في سوريا. ويحدثنا المؤرخ جيبون عن تلك الأحداث فيقول:

كان قسطنطين، الإبن الأكبر لهرقل، يتمركز على رأس أربعين ألف رجل في قيصرية، التي كانت الحاضرة المدنية لمقاطعات فلسطين الثلاث. ولكن مصلحته الخاصة [هرقل] دعته للعودة إلى بلاط بيزنطة. وبعد فرار أبيه شعر قسطنطين أنه غير كفؤ لمواجهة القوة المتحدة للخليفة. لقد قام ثلاثمائة عربي وألف عبد أسود بهجوم جريء، على طليعة جيشه، إذ تسلق هؤلاء في عزّ فصل الشتاء جبال لبنان المكسوة بالثلوج، ولم تلبث كتائب

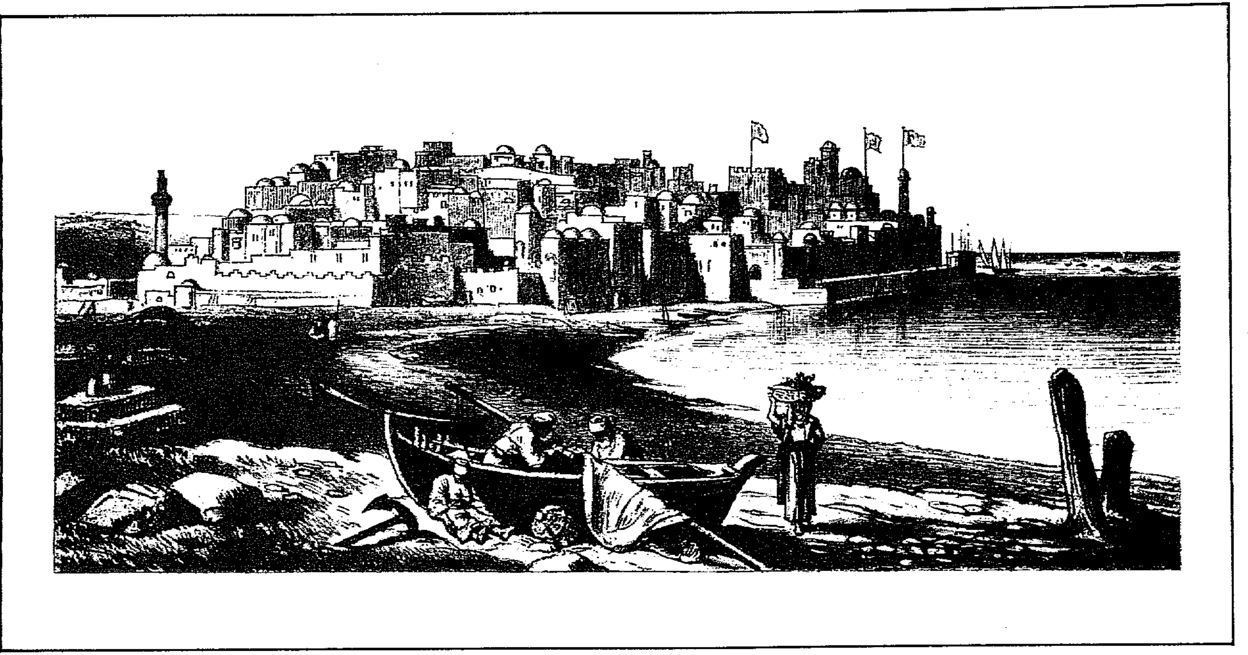
خالد المنتصرة حتى لحقت بهؤلاء. وزحفت قوات انطاكية والقدس من الشمال والجنوب في محاذاة ساحل البحر، حتى التقت راياتهم تحت أسوار المدينة الفينيقية. وسقطت طرابلس وصور، ودخل اسطول يضم خمسين سفينة إلى الميناءين اللتين كانتا قد سقطتا ـ والبحارة لا يعرفون بسقوطهما، فغنم العرب ما كان فيهما من مؤن وأسلحة. وأُختتمت الجهود باستسلام قيصرية بصورة غير متوقعة. لقد رحل الأمير البيزنطي في الليل، والتمس أهل المدينة الصلح مقدمين مائتي ألف قطعة ذهبية. أما المدن الأخرى فلم تجد بعد ذلك مجالاً للوقوف في وجه الفاتحين، فاستسلمت الرملة وعكا ونابلس وغزة وعسقلان وبيروت وصيدا واللاذقية. وخضعت سوريا امام صولجان الخلفاء، بعد ٧٠٠ سنة من استيلاء بومبي على المملكة التي أنشأها الاسكندر المقدوني.

واتجهنا بعد ذلك نحو الشرق حتى وصلنا إلى قرية أم خالد لكي نحصل على ماء وبعض أرغفة الخبز. وجيء لنا بماء ولكن الحصول على الخبز كان يحتاج الى الانتظار بعض الوقت. وكانت القرية فقيرة لا تزيد مساكنها عن عشرة أو خمسة عشر بيتاً.

من يافا إلى الرملة

وأقبلنا على يافا التي يبدو كأن منازلها يقف الواحد منها فوق الآخر. ثم استدرنا إلى البوابة الكبيرة في الناحية الشرقية من السور. ولكن مظهر البلدة عموماً لا يبعث على الابتهاج، بل تبدو وكأنها قرية فقيرة. وتقع البلدة على تل مرتفع وهي محاطة بسور من جميع الجهات باستثناء الجانب المواجه للبحر، ولكن السور ضعيف ويبدو أنه أُنشيء على مراحل. ولم نشاهد على الأسوار أكثر من اثني عشر مدفعاً. ويرتدي الأهلون هنا ألبسة هي مزيج من لباس السوريين والمصريين. ثم ذهبنا إلى منزل السنيور دمياني، القنصل البريطاني في البلدة.

يبلغ عدد سكان يافا نحو ألف نسمة، وفيها ثلاثة جوامع ودير للاتين



يافا (عن كتاب تومسون)

وكنيسة للروم. وهذا يعطي فكرةً عن نسبة أتباع الديانتين فيها. وهناك قلعة صغيرة من ناحية الغرب وأخرى إلى الشمال وثالثة قرب البوابة الشرقية، وفيها من ٥٠ إلى ٦٠ مدفعاً. وقد أكّد لنا القنصل دمياني أن بونابرت قام بقتل الأسرى الذين وقعوا في يديه، في يافا.

غادرنا يافا في طريقنا إلى القدس، ومررنا بين بيارات تحفل بأشجار البرتقال التي كانت أغصانها تنوء بما تحمل من ثمار. وبعد أن أمضينا أربع ساعات مررنا خلالها بعدد من القرى الصغيرة، وصلنا إلى الرملة ذات الأشجار الكثيرة. وقضينا ليلة في الدير، وفي اليوم التالي قمنا بجولة في البلدة. ويقول أحد المؤلفين العرب أن سليمان بن عبدالملك هو الذي أنشأها. ووصفها الجغرافيون العرب بأنها قصبة فلسطين. وبالفعل تدل آثارها على أنها كانت مدينة كبيرة. ولا بد أنها كانت ذات أهمية بالنسبة لموقعها بين القدس ويافا وبالنظر لخصوبة الأرض حولها، وباعتبارها مركزاً للتجارة.

أما الآن فالرملة تماثل يافا في مساحتها. وقد شاهدنا مسجدها ومئذنته المربعة ذات النوافذ. ويُقدّر عدد سكان الرملة بأكثر من خمسة آلاف نسمة، ثلثهم مسيحيون والثلثان مسلمون، ولا يوجد في البلدة أي يهود. ويعمل الناس هنا بصورة رئيسية في الزراعة، ويتألف الانتاج من القمح والزيتون والزيت والقطن، كما أنهم يصنعون الصابون، وبعض الأقمشة الخشنة.

وغادرنا الرملة، وبعد أن سرنا في السهل بعض المسافة أخذنا نصعّد في التلال حتى بلغنا الجبال الوعرة، ثم وصلنا إلى مبنى صغير حيث طُلب منا أن ندفع ضريبة مقدارها ست عشرة بارة. وعندما بلغنا قمة التلال تلفتنا إلى الغرب فشاهدنا السهول الواسعة تنبسط تحتنا. وعلى الرغم من وعورة الأرض فاننا شاهدنا أماكن مزروعة هنا وهناك، وكان واضحاً أن الأهلين يبذلون كل ما في الوسع للافادة من أية قطعة أرض صغيرة تصلح للزراعة.

في الساعة الواحدة بعد الظهر وصلنا إلى قرية أبو غوش، التي غلب عليها اسم الزعيم العربي الذي يقيم فيها ويتمتع بسطوة كبيرة. هنا وجدنا

نحو عشرين رجلاً طلبوا أن ندفع لهم ضريبة أخرى. كانوا يرابطون في الطريق ومعهم أسلحتهم. ودفعنا ما طلبوا. وبعد قليل جاء الزعيم نفسه وكان رجلاً ذا لحية حمراء في الأربعين من العمر وتبدو عليه ملامح القسوة. وطلب أن يرى أوراقنا فعرضناها عليه، وقال أنه سيحتفظ بها لأنه المسؤول عن سلامتنا في أثناء عبورنا من منطقته التي تقع بين منطقتي باشا عكا وباشا دمشق. وقد شاهدنا في هذه القرية بقايا كنيسة كبيرة تُستعمل الآن اسطبلاً للبقر. ويقارب عدد سكان القرية الفي نسمة. ومع أن المنطقة وعرة وصخرية فإن الأهلين يزرعون قطع الأرض التي تصلح للزراعة بكل عناية.

ومضينا في سيرنا حتى وصلنا إلى قرية عين كارم، وإلى قرية صغيرة أخرى. وقد شاهدنا أشجار الزيتون تملأ الأودية بينما كانت التلال مزروعة بكل عناية. وقابلنا فلاحون يسألوننا: ترى، متى سينزل المطر؟ وكان جوابنا: الله أعلم.

في القدس وبيت لحم

وبينما كانت الشمس تميل إلى الغروب أخذنا نلكز دوابنا المتعبة حتى أشرفنا على القدس. وحثثنا الخطى حتى بلغنا بوابة المدينة التي لم تلبث أن أغلقت بعد دخولنا مباشرة. وسرنا في شوارع ضيقة مرصوفة حتى وصلنا إلى دير تيراسانتا (الأرض المقدسة) وهناك قوبلنا ببرودة، إذ لا بدّ أن الرهبان حسبوا أنني فقير الحال بسبب رثاثة مظهري. ولكن عندما أخرجت رسالة التوصية التي كنت أحملها من رئيس الدير في الناصرة، تبدل الوضع، ولقيت ترحاباً حاراً.

قضينا يوم ١٩ كانون الثاني في شغل شاغل ونحن نعدّ الترتيبات لرحلتنا المقبلة، ومن جملة ذلك ابتياع الثياب من النوع الذي يرتديه أهل البلاد. ابتعنا هذه من السوق ولكننا وجدنا بعض الصعوبة لأن البلدة لم تكن مركزاً تجارياً مهماً، والسكان فقراء والبضائع قليلة، وكان من نتيجة ذلك أن

مستلزمات المعيشة هنا مرتفعة الثمن.

وتجولنا في البلدة وحولها إلى أن وصلنا إلى وادي سلوان، وهناك وجدنا بئراً عميقة، وحولها عدد من العرب ينتشلون الماء بدلاء من الجلد بواسطة الحبال. ورأينا هناك عشرين أو ثلاثين بهيماً محملة بالقِرَب المليئة بالماء، تمهيداً لنقلها إلى المنازل في البلدة. أما قرية سلوان فتتألف من خمسين إلى ستين منزلاً. ويرى البعض أن التلة التي تقوم القرية عليها كانت فيما مضى مكان اقامة لحريم الملك سليمان، ذلك الحريم الذي كان يتألف من ٧٠٠ زوجة و ٣٠٠ محظية.

وتجولنا في جبل الزيتون ووقفنا عند الجامع، وشاهدنا البحر الميت من على قمة الجبل، وجبال بلاد العرب المرتفعة تشرف عليه من جهة الشرق. ثم وصلنا الى العيزرية (بيت عنيا) التي تتألف من ٣٠ إلى ٤٠ منزلاً فقط.

٢٢ كانون الثاني: خلعنا أنا وخادمي الملابس الأوروبية وارتدينا الملابس التركية. وكنت قد التقيت بالمستر بانكس، عضو مجلس البرلمان، الذي كان يرغب في المضي معنا إلى الشرق من الأردن. ومضينا لزيارة بيت لحم التي تقوم على مرتفع من الأرض، فلاحظنا أنها نظيفة يسود فيها شيء من الهدوء مما لا يراه المرء كثيراً في قرى الشرق. وقد أدهشتني رؤية أهل البلدة المسيحيين يرتدون الملابس البيضاء والعمائم الزاهية الألوان، دون خشية، بينما لا يجرؤ في القدس أي مسيحي من الجنسية العثمانية أن يرتدي الا الملابس ذات اللون الأزرق.

[ملاحظة من المترجم: لقد تغير هذا الوضع في سوريا الطبيعية بعد استيلاء محمد علي باشا وابنه ابراهيم عليها سنة ١٨٣١].

وزرنا المغارة التي وُلد فيها السيد المسيح، وهي موضع يثير الخصومة والعداء بين الطوائف المسيحية، مثلها في ذلك مثل كنيسة القيامة. وفي عيد ميلاد السنة الماضية نشبت معركة هناك جُرح فيها كثيرون. وقبل ذلك حدث اشتباك بالسيوف عند باب المغارة، من أجل الحصول على الأولوية في

اقامة الصلاة. وقد شاهدنا الأودية شرقي بيت لحم أكثر خصوبة من التلال المحيطة بالقدس، ولمسنا في البلدة حركة ونشاطاً. أما السكان فيتراوح عددهم من ألف إلى ١٥٠٠ نسمة، أغلبيتهم من المسيحيين. وبدا لي رجال البلدة ذوي أجساد متينة، أما النساء فمن أجمل وأكثر ملاحة ممن رأيت من نساء فلسطين.

مضينا من بيت لحم إلى برك سليمان، وشاهدنا بالقرب منها قلعة اسلامية قديمة، وهي بناء مربع بالغ الضخامة، وفي أسوارها فتحات لاطلاق النار وكتابات عربية فوق بابها. وبدا لي أن حجارة هذا الصرح تماثل حجارة البرك نفسها، ومن هنا يغلب الظن عندي أن هذه كلها من منشآت المسلمين الذين افتتحوا هذه البلاد. ذلك أن الملك سليمان ما كان ليختار موقعاً غير مناسب مثل هذا الوادي الصخري القاحل لانشاء برك وبساتين وقصر فخيم. وشاهدنا في داخل أسوار القلعة قرية صغيرة تتألف من بضع عائلات عربية، يبدو أن أفرادها من رعاة الأغنام.

ثم مررنا بقرية بيت جالا وأهلها من المسيحيين، وشاهدنا أن الأرض هنا تلقى عناية أكثر بكثير مما تلقى الأرض القريبة من القدس. فبالإضافة إلى أشجار الزيتون الكثيرة، شاهدنا أشجار الكرمة تغطي مساحات واسعة. وبعد ذلك مررنا من قرية بيت صفافا وأهلها مزيج من المسلمين والمسيحيين.

وأخذت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربي فحثثنا الخطى حتى نصل إلى القدس، ولكننا وجدنا البوابة مغلقة، مع اننا وصلنا بعد غروب الشمس بخمس دقائق فقط. وهكذا أصبح من الضروري الحصول على أمر من الحاكم نفسه لكي ندخل إلى المدينة. ومضى حرس البوابة للحصول على الإذن المطلوب، ووقفنا في البرد القارس نحو نصف ساعة، حتى عاد واحد من رجال الحرس وفتح البوابة لنا قائلاً إن الحاكم أعطى الإذن بذلك حالما عرف أن الذي يريد الدخول هو رحّالة انكليزي. وهذا يدل على الاحترام الذي تتمتع به امتنا في بلاد الشرق.

وأخذنا نستعد للرحلة المقبلة. وكان مستر بانكس يفضّل أن نستأجر خيولاً، ولكن في الأحوال المضطربة السائدة لم نجد أحداً يوافق على تأجير دوابه الا للاستخدام في المحيط القريب من المدينة. وعرض العربي، الذي كان المستر بانكس قد توسط في اطلاق سراحه من السجن، أن يرافقنا إلى طبريا، حيث يمكننا أن نبتاع الخيول، فوافقنا على هذه الخطة، وذهب هو لاستئجار دواب تحملنا إلى طبريا، بينما مضيت أنا للتفرج على بعض الأماكن في داخل المدينة. وهنا لا بدّ من القول أن اقامتي في الدير كانت مريحة، وكان الرهبان يقدمون الخبز والخضار والنبيذ، من أصناف جيدة، ولكن اللحم قليل وثمنه مرتفع، وليس بالمستطاع الحصول على السمك. وكذلك لحم الدواجن لا يُستعمل الا على فترات. ويُعتبر الأرز والزيت من مواد الطعام المهمة هنا، أما حطب الوقود فيقال أنه من بين الحاجيات الأغلى ثمناً هنا[1].

وزرت الحي اليهودي، وقد علمت أنه كانت هناك تعليمات بأن لا يزيد عدد اليهود في القدس على الفي نسمة، وكان ذلك قبل غزو نابليون لسوريا.

نتيجة لتحرياتي عرفت أن سكان القدس لا يزيدون على ثمانية آلاف نسمة، أكثر من نصفهم مسلمون. ولكن العدد يرتفع أحياناً إلى عشرة آلاف أو إلى خمسة عشر ألفاً، نتيجة لحركة الغرباء الدائبة في القدوم إلى المدينة والرحيل عنها.

يحكم القدس متسلّم يعيّنه والي دمشق. ولا تتمتع المدينة بأية امتيازات. وفيها حامية عسكرية تتألف من نحو ألف جندي بين مشاة وفرسان، وهم من الترك والعرب والألبان. وبسبب قلة الأمطار وجدب الأراضي المحيطة بالقدس، فإن أثمان مواد الطعام هنا أكثر ارتفاعاً من أي مكان آخر في سوريا. ومن هنا فإن أجور العمال مرتفعة في المدينة نسبياً، اذ

---

١ ـ لهذا السبب كان البعض من أهل شرقي الأردن ينقلون الحطب إلى القدس لبيعه فيها.

بينما يحصل العامل في القدس على نحو ثلث دولار أسباني في اليوم، فإن العامل في المدن الساحلية يحصل على سدس دولار، وفي مصر لا يمكن أن تزيد أجرة العامل على ثُمْن دولار.

وأخيراً أتممنا استعداداتنا لرحلتنا المقبلة إلى الشرق من الأردن، وإلى جرش وأم قيس بالذات. وكان مستر بانكس ينوي أن يذهب من هناك إلى الناصرة، بينما كنت أنوي الذهاب إلى دمشق وحلب. وحيث اننا لم نستطع اقناع أحد بتأجيرنا دواباً لهذه الرحلة، بسبب أن طريقنا تخرج عن الطرق المعتادة التي تسير عليها القوافل، فإننا اضطررنا لابتياع خيول كي نستخدمها لهذه لغاية. وبالفعل قمنا بابتياع الخيول اللازمة دون صعوبة تُذكر وبأسعار معقولة، ذلك أن ثمن الحصان القوي مع سرجه وعدته لا يزيد عن ٤٠٠ قرش أي أقل من عشرين جنيهاً.

تألفت جماعتنا من مستر بانكس وترجمانه الألباني محمد، بالإضافة لي شخصياً ودليلين من بدو الزعالين. أما خادمانا فقد تركناهما في القدس. ارتدينا ملابس أهل البلاد، فكان مستر بانكس في زي جندي عثماني، ومحمد في لباس الأرناؤوط التقليدي، أما أنا فكنت أرتدي ملابس السوريين العرب. كل واحد منا كان معه حصانه وعليه أمتعته القليلة. أما سلاحنا فكان هزيلاً لأن دليلنا نصحانا أن لا نحمل أسلحة ثمينة تثير طمع الآخرين. ولم يكن الدليلان يحملان سوى رمح طويلة لكل منهما، كعادة أهل البلاد. وأخذنا معنا بعض أرغفة الخبز وبعض التمر والدخان والقهوة، وكمية من الشعير لخيولنا، ومطرة ماء، ولا شيء غير ذلك.

أريحـــا

بعد أن قمنا بتسديد حساباتنا للدير، على أساس دولار اسباني يومياً، غادرنا القدس من بوابة بيت لحم (باب الخليل). وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى مضارب البدو الذين جاء دليلنا من بينهم. وهنا توقفنا وتناولنا من خبزهم وملحهم في بيوت الشعر التي يقيمون فيها، وكان هذا نوعاً من

التدليل على اننا أصبحنا في حمايتهم وأنهم قطعوا لنا عهداً بالحماية. وقد تم اعداد وجبة طعام تتألف من اللبن الحامض والخبز الساخن، بالإضافة إلى القهوة، بينما كنا نجلس حول نار الحطب التي أشعلوها لهذه المناسبة. ويختلف هؤلاء البدو عن أهل المدن، إذ تبدو عليهم ملامح الاستقلالية مع شيء من الخشونة، وتعطيهم نظراتهم النفاذة مظهر الشجاعة والرجولة.

واستأنفنا سيرنا باتجاه الشرق إلى أن مررنا بآثار قلعة قديمة، كانت تحمي الممر ولكنها الآن مهجورة، وشاهدنا بالقرب من القلعة بناء كبيراً مربعاً [ربما يكون الخان الأحمر]. ان الطريق من القدس إلى نهر الأردن تُعتبر من أكثر الطرق خطراً في فلسطين كلها. ومن منطلق المخاوف التي تبعثها الأماكن الموحشة القفراء، بعث دليلانا رسولاً إلى مضارب أقرباء لهم من أجل أن يرسلوا أشخاصاً من طرفهم لملاقاتنا. وبالفعل لاقانا نحو عشرين من هؤلاء مسلحين بالبنادق ذات الفتيل. وكان منظر هؤلاء الناس يبعث على الرهبة حقاً، وزاد من ذلك صرخات أخذوا يطلقونها فتتردّد أصداؤها بين الأودية والتلال.

ووصلنا أخيراً إلى قرية أريحا فوجدنا أنها تتألف من نحو خمسين منزلاً كلها منازل متواضعة، تحيط بها أسيجة من النباتات الشائكة، بينما يحيط بالقرية كلها سياج كبير من تلك النباتات. وبالقرب من القرية جدول ماء يصب في نهر الأردن، ومن ماء هذا الجدول يسقي الأهلون أراضيهم المحيطة بالقرية والتي يزرعونها بالذرة والقمح والأرز والبصل. ومضينا إلى منزل شيخ القرية، وحللنا فيه ضيوفاً، مع أنه نفسه كان غائباً آنذاك. وقد اجتمع حولنا رجال القرية وصبيتها وأخذوا يمطروننا بالأسئلة عن رحلتنا، والغاية منها. وقلنا لهم اننا في طريقنا إلى دمشق، فصدقوا حكايتنا. ومع ذلك ظلت الخشية تراودنا، خاصة بعد أن عرفنا أن جماعة تضم ٥٠٠ خيال مروا بأريحا قبل أيام في طريقهم باتجاه الشمال بقصد الغزو والنهب. ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الناس عاملونا بكل أسباب الضيافة التي اشتهر بها العرب. وقد استمتعنا بالطعام الذي قُدّم لنا على الرغم من خشونته، ثم

مددنا أجسامنا على حصر القش إلى جانب الأغنام التي كانت هناك، واستغرقنا في نوم عميق.

٢٩ كانون الثاني: نهضنا مع الفجر وبعد أن قدم لنا مضيفونا القهوة والدخان، امتطينا خيولنا وسرنا باتجاه الشمال إلى أن وصلنا إلى وادي فارة، ثم عبرنا السهل باتجاه النهر، ولم نلبث أن وصلنا إلى مضارب جماعة صغيرة من البدو فقصدنا إلى خيامهم. وسرعان ما تبين أن هؤلاء من بدو الزعالين فاستقبلونا بحرارة وأعدّوا لنا وجبة من الخبز الساخن وحليب الماعز، وسعدنا لاننا استطعنا عندهم أن نستظل من حرارة الشمس اللاذعة. ولعلمنا بان الطريق أمامنا خطرة أكثر من المعتاد فقد أصطحبنا معنا خيالاً ثالثاً منهم، على أمل أن نفيد من معرفته بالبدو القاطنين إلى الشرق.

إلى الشرق من الأردن

وأخيراً عبرنا نهر الأردن الذي بدا لنا أن عرضه لا يزيد على ٢٥ ياردة. وكان الماء ضحلاً فعبرته خيولنا دون صعوبة. وقد شاهدنا ضفتي النهر تظللها نباتات الأسل الطويلة (القصب) وأشجار الدفلى وبعض شجر الصفصاف. وشربنا من الماء كما شربت خيولنا، وكان الماء صافياً حلو المذاق.

ومضينا باتجاه الشرق وأخذنا نصعّد في الجانب الشرقي من الأردن، فصادفنا قطيع كبير من الحيران [جمع حوار وهو الجمل الصغير السن] وأكثرها بيضاء اللون لم يتم تطبيعها بعد كما أكّد لنا أدلاؤنا. ولم يكن يقل عدد الحيران في ذلك القطيع عن ألف حوار. وقد شاهدنا رعاة القطيع من فتيان وفتيات يسوقون الحيران نحو النهر لكي تستقي من مائه. واستغربنا لمشاهدة بعض هذه الحيران ووسط أجسامها ملفوفة بنسيج من الشعر الذي يستعمل في صنع الخيام، وفي الوقت نفسه شاهدنا قطعاً من ذلك النسيج ملفوفة حول أثداء النياق الكبيرة، وهي مربوطة بخيطان عُقدت حول ظهورها، بل أن أرجل الجمال الكبيرة كانت مربوطة أيضاً بنوع من

الوثاق[1].

ومضينا نسير مصعدين فوق تلال بلاد العرب البيضاء القاحلة. وبعد ساعة بلغنا قمة سلسلة التلال. وواصلنا السير حتى بلغنا وادياً صغيراً تخيم فيه جماعة صغيرة من البدو فنزلنا عن خيولنا لكي نقضي الليلة في ضيافتهم.

كان مما أثار دهشتنا وعجبنا اننا صادفنا عند هؤلاء الأعراب رجلاً يحسن عدة مهن، ويتنقل من هذا المخيم إلى ذاك ليحصل على أسباب العيش بعرق جبينه. أما المهن الرئيسية التي يحسنها فهي البيطرة والحدادة وصنع السروج، وهي أمور يحتاج اليها البدوي ولا يستطيع أن يمارسها بيده. كان الرجل في ترحاله يحمل معه سنداناً ومنفاخاً وجميع الأدوات الصغيرة التي يستعملها. وعند وصولنا كان قد أنهى لتوّه عمله اليومي في بيت الشعر الذي خُصّص لاستضافتنا. ونهض الرجل لاستقبالنا كأنما هو من أصحاب البيت، وسهرنا وأياه مستمتعين بحكاياته ونكاته.

في اليوم التالي استأنفنا سيرنا باتجاه الشرق إلى أن وصلنا إلى سلسلة تلال أخرى. وهنا ظهر لنا أن طبيعة الأرض تختلف عما شاهدناه في هذه البلاد ابتداء من وصولنا إلى صور وحتى هذه اللحظة. ألفينا أنفسنا في بلاد ذات خصوبة تزيد عن المعتاد، وتغطيها الغابات، وتحتوي على سهول واسعة ذات تربة حمراء رائعة. لقد أدهشنا جمال هذه المنطقة حتى أخذنا نسأل بعضنا البعض عن مشاعرنا، كأنما نحاول ان نستيقن أن ما نراه حقيقي. كانت مناظر الطبيعة جميلة رائعة أشبه ما تكون بالحدائق الغشيمة التي تعطي انطباعاً رومانسياً.

عند الظهر وصلنا إلى مضارب جماعة صغيرة من البدو، وشاهدنا قطعان الماشية ترعى أعشاب الربيع. عرفنا هنا اننا نسير في وادي الزرقاء، وهو واد جميل تكثر في جنباته أشجار الزيتون البري والبلوط والصنوبر.

---

١ ـ يعمد البدو إلى هذا حتى لا ترضع الحيران حليب أمهاتها، وحتى لا تعدو الجمال بعيداً عن القطيع.

وبعد أن شربنا القهوة وأشعلنا غلايين الدخان، استأنفنا سيرنا حتى صادفنا جماعة أخرى من البدو، وكان المنظر مدهشاً إذ كان الفتيان يسيرون مع قطيع الماعز والأغنام بينما كانت الأباعر تحمل على ظهورها أمتعة القوم وأطفالهم ومؤنهم وأواني الطعام. ولم نلبث حتى مررنا بخرائب علّان وشيحان، وبدا لنا أنها كانت خانات كبيرة أو بقايا قرى صغيرة هجرها أهلها قبل زمن قريب. ومضينا نصعّد حتى بلغنا السهول العليا ذات التربة الحمراء التي لاحظنا أنها ذات خصوبة عالية. ثم هبطنا إلى واد ضيق وعر كان يجري فيه ماء نهر صغير باتجاه الغرب. كانت ضفتا النهير أشبه بالغابة الكثيفة أشجارها من الدفلى والزيتون البري والدلب واللوز البري الذي أزهر نواره، ونباتات أخرى لا نعرف اسماءها، ذات أغصان ترتفع خمسة عشر قدماً على الأقل. وتوقفنا نستمتع بهذا المنظر الرائع وبصوت خرير الماء في السكون السائد. وعندما عبرنا النهر لاحظنا أن عرضه يقارب عشر ياردات، ولكنه كان أعمق من نهر الأردن وأشد سرعة منه، ولذلك واجهنا بعض الصعوبة في عبوره. انه نهر الزرقاء، أي (يبوق) الذي تذكره الكتب القديمة، والذي كان الحد الفاصل للعموريين من ناحية الشمال. ومضينا نصعّد في الجانب المقابل من الوادي حتى بلغنا السهل الجميل في أعلاه ذي التربة الغنية، وبذلك أصبحنا في أراضي عوج ملك باشان، أي جلعاد. هذه هي بلاد الديكابوليس (المدن العشر) التي ذكرها العهد الجديد أكثر من مرة.

ومضينا نسير والدهشة والاعجاب تملأ نفوسنا، فيا لها من بلاد جميلة، تغطي التربة الخصبة سهولها وتكسو الأشجار اليانعة تلالها، وتمثل مناظر طبيعية خلابة تفوق روعتها حدود الوصف. هنا يكثر شجر البلوط. وبعد قليل خرجنا من أجمة كثيفة فشاهدنا في الأرض المفتوحة جماعة من المزارعين يسيرون على أقدامهم وهم جميعاً مسلحون بالبنادق (القديمة الطراز). انهم عرب ولكنهم على العموم أكثر طولاً وأقوى بنية وأجمل قامةً وأصفى لوناً ممن التقينا بهم قبلاً. وقد لاحظنا أن لباسهم يختلف عن لباس البدو والفلاحين السوريين، فهم يرتدون ثياباً طويلة بيضاء، يربطونها بزنانير حول الحقوين، وهم لا يغطون رؤوسهم بالعمائم، وقد أطلقوا لحاهم وأرخوا

شعر رؤوسهم حتى أخذ ينسدل حول أعناقهم. وبذلك كله بدوا لنا على مثال تلك الرسومات التي نشاهدها في صفحات الكتب الدينية القديمة. كان هؤلاء الرجال عائدين من حراثة أراضيهم. وهنا تكثر الأرض الصالحة للزراعة بحيث يستطيع المرء أن يزرع أية قطعة أرض دون أن يحمل سند ملكية لها. وهؤلاء الناس يحملون أسلحتهم دائماً، لردّ غارات البدو من جهة، ولأن العادة جرت ان يحمل المرء سلاحه دائماً من جهة أخرى. والرجل الذي لا يحمل سلاحاً يتهمه الآخرون بأنه فقير مدقع أو جبان. وتقدم هؤلاء نحونا بكل حذر وأصابعهم على زناد بنادقهم. ولكن بعد أن اطمأنوا لنا عرضوا أن يرشدونا إلى شيخ قريتهم فوافقنا وتبعناهم إلى هناك. ولم نلبث أن وصلنا إلى أرض مزروعة بالقمح، فقد شاهدنا الوريقات الأولى لحبوب القمح تطل من خلال التربة بعد زخات المطر التي هطلت هنا، بينما كانت جميع البلاد إلى الغرب من الأردن عطشى أضرّ بها الجفاف. وسرنا في مناطق سحرتنا بجمال مناظرها الرائعة، من جبال شاهقة إلى أودية وتلال يكسوها الشجر وجداول ماء ومروج خضراء. وفي الوقت نفسه كانت قطعان الماشية والبقر تعطي المشهد حيوية وحركة حتى أن قلم الفنان ليعجز عن تصويرها.

في جرش وسوف

في الساعة الرابعة مساء وصلنا إلى قرية (برزة)، وكنا نرغب في قضاء الليلة هناك، ولكن أدلاءنا أثاروا اعتراضات عديدة، فألفينا أنفسنا مرغمين على الأخذ برأيهم. وتابعنا طريق سيرنا حتى التقينا بجماعة من البدو بالقرب من خيامهم فدعونا لقضاء الليلة عندهم فقبلنا دعوتهم شاكرين. ومررنا بالقرب من ياجوز ثم وصلنا إلى مضارب البدو فاستقبلونا بكرم ضيافتهم المعهود، بل بلغ الأمر بهؤلاء أنهم أخذوا يتنافسون حول من سيقدم الشعير للخيول. وسرعان ما ذبحوا خروفاً لنا واجتمع الرجال في بيت الشعر الخاص بالشيخ ليشتركوا في الوليمة وليؤكدوا لنا ترحيبهم بنا.

في اليوم التالي غادرنا مضارب أولئك البدو وتابعنا سيرنا في أراض



في مضارب البدو (عن كتاب روبنسون ليس)

جميلة وغنية، ثم مررنا في واد عميق يسير فيه جدول ماء يدعونه نهر (الزبين)، وظللنا نتابع سيرنا حتى أقبلنا على آثار جرش. هنا انتحينا في موضع لا يرانا فيه الناس، وأخذ مستر بانكس يرسم بقلمه صورة للمدينة القديمة التي تواجهنا، بينما أخذت أنا أدوّن ملاحظاتي بسرعة فيما يتعلق بالأماكن التي مررنا بها منذ مغادرتنا القدس، وسبب ذلك يعود إلى انني لم أجد منذ ذلك الحين برهة انفرد فيها بنفسي وأكتب ملاحظاتي بعيداً عن العيون، حتى لا أثير الاشتباه عندما يرى الآخرون أدوات غريبة كالقلم والورق.

وبعد هنيهات ساد الاعتقاد في نفوس أدلائنا اننا في خطر، فغادرنا جرش والأسف يملأ نفوسنا. ومضينا إلى قرية سوف بعد أن مررنا بمنطقة تكسوها أشجار الغابات. هنا استقبلنا الشيخ في مضافته. ولكن سرعان ما لاحظنا الفرق بين ضيافة البدو وضيافة المزارعين.وقمنا بجولة في القرية فتبين لنا أنها كانت بلدة مهمة في الزمن القديم. تضم القرية في الوقت الحاضر ما بين ٤٠ إلى ٥٠ منزلاً، ويقرب عدد سكانها من ٥٠٠ نسمة. ويخضع الشيخ لباشا دمشق ويدفع له الضرائب. وهنا يزرع الأهلون أراضيهم بحبوب القمح، كما تكثر أشجار الزيتون والكرمة، بحيث يتوافر لهم الزيت والعنب والزبيب. أما الخمرة فغير معروفة هنا. ولاحظت بعض النسوة اننا كنا ندوّن ملاحظات فأثرن الشكوك بنا. ولكن الحظ ساعدنا بأن نقنعهم بإننا أتراك، وأخذنا نردّد عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم». وأكدنا لهم اننا كنا نكتب صلاة ترحيب بظهور هلال القمر، على عادة المؤمنين. وعدنا إلى المضافة فاجتمع حولنا عدد من الرجال وأخذوا يسألوننا ويكثرون من الأسئلة، وازاء هذا لم نجد وسيلة أفضل من التزام الصمت والتحفظ.

وطلع صباح اليوم الأول من شباط والمطر يهطل بغزارة. ورفض أدلاؤنا البدو أن يغادروا البلدة، فاغتنمنا الفرصة كي ننسلّ خلسة عائدين إلى جرش، وكانت الحجة التي تسلحنا بها انني كنت نسيت في اليوم السابق خنجري إلى جانب احدى الصخور. واستغرقتنا الطريق الوعرة نحو ساعتين حتى وصلنا إلى منطقة الآثار، تحت وابل كثيف من المطر.

واصطحبنا في رحلتنا هذه واحداً من أدلائنا بعد أن وعدناه بزوج من الأحذية، كما رافقنا واحد من رجال القرية معه بندقية، بعد أن تعهدنا بأن ندفع له نصف دولار عند العودة. وقد لاحظنا أن المزارعين خرجوا للعمل في الحقول على الرغم من شدة المطر، فبعضهم أخذ يحرث الأرض والبعض الآخر أخذ يبذر الحبوب. وسبب ذلك أنهم كانوا تأخروا كثيراً في زرع أراضيهم بانتظار هطول المطر. ومضينا نتجول بين معالم الآثار ابتداء من البوابة الشمالية باتجاه البوابة الجنوبية، ونحن نحاول أن نستوعب ما في هذه المدينة القديمة من منشآت وهياكل ومسارح وأعمدة، ونحاول أن نرسم مخططات لها.

ها هي المدينة ذات الكبرياء الدارسة وحيدة منعزلة، يخيم البدو غير بعيد عنها للاستقاء من مياه الينبوع الذي يجري في وسطها.

بعد الظهيرة عدنا أدراجنا باتجاه سوف، بينما كان المطر يهطل بغزارة. كانت رحلتنا تلك أكثر ارهاقاً من أية رحلة أخرى قمت بها مشياً على قدمي. وكم شعرت بالارتياح عندما وصلت إلى مضافة الشيخ وخلعت كل ما كان علي من ملابس، وألقيت بنفسي على حصيرة قش، بينما ألقى أحد الأدلاء حصيرة أخرى فوقي لتكون غطاء لي. وكان التعب قد نال مني ومن رفيقي، فسرعان ما استغرقنا في نوم عميق، على الرغم من كثافة الدخان المتصاعد من الحطب الطري، وصياح القرويين وهم يتجادلون حول موقدة النار.

في منطقة عجلــون

وأصبح الصباح وقد تجدّد نشاطنا فغادرنا قرية سوف باتجاه الشمال الغربي، ومررنا عبر درب ملتوية من خلال غابة من شجر البلوط والصنوبر. ثم جئنا إلى بقعة يلتف فيها الشجر بصورة كثيفة، فألفينا جماعة من البدو كانوا قد حطّوا رحالهم هنا اتقاء من المطر، وانضممنا اليهم بعد أن ألقينا عليهم التحية، وسرعان ما أشعلوا ناراً كبيرة وصنعوا خبزاً ساخناً، وأعدّوا القهوة، وملأوا غلايينا بالتبغ. وهكذا لمسنا الكرم والأريحية في

أسمى صورهما، إذ بذل هؤلاء البدو كل ما في وسعهم لاكرامنا وتوفير الراحة لنا دون أن ينتظروا مكافأة أو شكراً.

بعد نصف ساعة استأنفنا سيرنا والأشجار تحيط بنا من جميع الجوانب. وكان رفيقي بانكس قد ساح في انجلترا كلها وفي ايطاليا وفرنسا واسبانيا والبرتغال، ولكنه ـ كما قال ـ لم يشاهد قط في جميع أسفاره مناطق تضاهي هذه المنطقة بروعة مناظرها الطبيعية، اللهم الا في بعض جهات البرتغال. وبين الفينة والأخرى كنا نهتف: ما أروع! ما أجمل! كانت متعة النظر وحدها ترجح على كل المتاعب التي عانينا منها في رحلتنا هذه.

ومررنا بعد ذلك بقرية سمّوع، ثم أشرفنا على السهل الذي تقع قرية الحصن على طرفه الغربي. وبدا واضحاً مدى عناية الأهلين بزراعة هذا السهل الخصيب. بعد ذلك شاهدنا على مبعدة قريتي سال والرمثا، ثم وصلنا إلى قرية ايدون وهي تتألف من ٣٠ إلى ٤٠ منزلاً. ودخلنا إلى المضافة فوجدنا أكثر من عشرين شخصاً يجلسون على الأرض حول موقدة النار. وحال دخولنا أفسح القوم مكاناً لجلوسنا، وبأمر الشيخ قُدمت لنا وجبة طعام مؤلفة من الخبز الساخن وزيت الزيتون والعسل، وكذلك القهوة والدخان. وقد استمتعنا هنا بدفء النار ولم نلبث ان جفت ملابسنا من البلل. وألفينا هؤلاء الناس أقل فضولاً وأكثر لطفاً من أهل قرية سوف.

وغادرنا ايدون، وبعد نحو ساعة من الزمن مررنا بقرية اربد، وهي تقع على مرتفع من الأرض يشرف على المناطق المحيطة به. وقد شاهدنا هنا برجاً مثمّن الأضلاع بديع الهندسة، ربما يعود إلى العصر الاسلامي، وبالقرب من البرج بركة ماء كبيرة يحيط بها سور من الحجارة المنحوتة، وهي تشبه برك سليمان التي شاهدناها قرب القدس.

وقبيل مغيب الشمس بلغنا قرية البارحة حيث كنا ننوي قضاء ليلتنا. ومضينا إلى الخان. وتضم هذه القرية نحو ٥٠ منزلاً، ويحكمها شيخ يتبع لباشا دمشق. وقد اتخذنا من احدى غرف الخان مكان اقامة لنا، وابتعنا طعاماً لنا ولخيولنا.

في صباح يوم ٣ شباط غادرنا البارحة فمررنا غير بعيد من قرية بيت راس، ثم مررنا بقريتي تقبل وكفرسوم وبعدهما وصلنا إلى قرية أم قيس التي تقوم على آثار جمالا القديمة. [ولكن علماء الآثار أثبتوا أن ام قيس تقوم على آثار جدارا وليس جمالا]. هنا وقفنا على طرف الجبل فشاهدنا البحيرة وطبريا وسمخ. وفي ام قيس قدم الشيخ لنا وجبة طعام مؤلفة من الخبز والزيت. واحتشد حولنا أناس يسألوننا عن الكنز الذي استخرجناه من الأرض! ولكن على الرغم من ذلك فقد عاملنا أهل القرية بلطف عظيم، وقدموا لنا الطعام دون أن يطلبوا ثمناً. ولا يزيد عدد سكان القرية على ٢٠٠ نسمة.

عند العصر غادرنا أم قيس وانحدرنا باتجاه الوادي. وفي تلك الاثناء تعثّر جوادي فسقطت على الأرض وشعرت بألم عظيم في ساقي اليسرى وقدمي. وأعانني رفاقي حتى ركبت الجواد ثم قطعنا نهر اليرموك بصعوبة، ووصلنا إلى مياه الحمة ذات الحرارة العالية. قضينا الليلة هناك وورمت رجلي وازداد الألم. وفي هذا الوضع أصرّ رفاقي على انني لا أستطيع الذهاب إلى دمشق، وأن من الأفضل أن أذهب معهم إلى الناصرة للتداوي والمعالجة.

في اليوم التالي قطعنا نهر الأردن الذي يدعوه الناس (الشريعة) وأخذنا نصعّد في الجبال المقابلة، إلى أن وصلنا إلى قرية صغيرة يسميها أهلها (اكسال). وبعد ذلك وصلنا إلى الناصرة حيث قضيت اسبوعاً في الدير، بسبب الورم في ساقي. ولكنني اغتنمت الفرصة فأخذت أدوّن ملاحظاتي وذكرياتي عن الرحلة من جرش إلى هنا. ثم مضى رفيقي بانكس إلى عكا فبقيت وحدي حتى أخذت ساقي تتماثل للشفاء.

طبريــــا

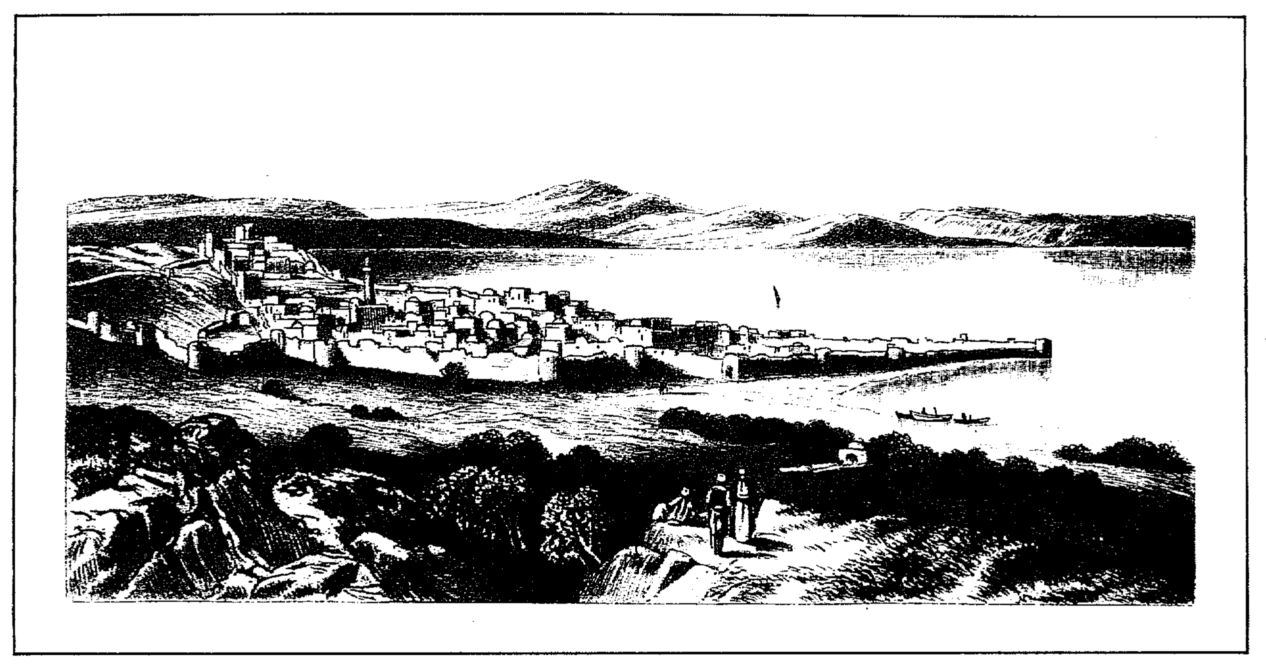
١٢ شباط : اصطحبت دليلاً من الناصرة ومضيت في رفقته شرقاً، فمررنا أولاً بالقرب من عين ماهل، ثم وصلنا إلى سوق الخان قبيل الظهر. وهذا المكان يزدحم بالناس كل يوم اثنين، حيث يستطيع المرء أن يجد

أصناف البضائع والحاجيات المتنوعة معروضة للبيع. انها السوق التي يقصدها الناس من جميع الأنحاء. وقد شاهدنا بقايا قلعة اسلامية في حالة جيدة، كما شاهدنا خاناً يعود أيضاً للعصر الاسلامي. وهذا الخان واسع ويضم في داخله أروقة ذات أعمدة ودكاكين صغيرة ومقاصير خاصة، وفي وسط ساحته السماوية بئر ماء.

شاهدنا في خارج هذين البناءين جمعاً من الناس يتراوح عدد أفراده بين أربعة وخمسة آلاف شخص. وكانت تغطي الأرض قطعان عديدة من الماشية. كان هناك خيالة وبدو وفلاحون من المناطق المجاورة، ونساء وأطفال أيضاً. واستدرنا إلى الخان لكي نسقي خيولنا، وتوقفنا نصف ساعة في الظل لأن الحر كان شديداً والبلاد كلها تعاني من انحباس المطر والجفاف. وبعد أن غادرنا الخان سرنا في سهل واسع، وصادفتنا جماعة من اليهود يركبون الحمير وكانوا قادمين من طبريا إلى السوق العام الكبير. وإذ حسب هؤلاء من هيئة لباسي انني مسلم نزلوا عن البهائم ومروا من جانبنا سيراً على أقدامهم. هنا يُسمح للنصارى أن يمروا بالمسلمين وهم يركبون الحمير أو البغال، ولكن يحظر عليهم ركوب الخيل الا إذا أذن الباشا لأشخاص من بينهم بذلك.

ومررنا بقرية كفر سبت، ثم وصلنا إلى ينبوع ماء صغير ورأينا هناك امرأة وضعت جرتها تحت الينبوع لكي تمتلىء، وبانتظار ذلك أخذت تغزل صوفاً بمغزلها. وتلطفت المرأة فأروت ظمأنا من الماء القليل الذي نزل في الجرة. وبعد ذلك وصلنا إلى مكان تستقي منه المواشي ولكن كانت هناك قطعان عديدة تنتظر دورها للاستقاء، فواصلنا سيرنا عندما أدركنا صعوبة الحصول على ماء نروي به ظمأ خيلنا.

ووصلنا بعد قليل إلى سفوح التلال فشاهدنا غزلان عديدة. وبعد مسيرة ساعتين وصلنا إلى بلدة طبريا بينما كان المؤذن يؤذن لصلاة العصر من مئذنة الجامع. وكان دخولنا من بوابة السور الغربي. ومن هناك مضينا إلى منزل خوري الكاثوليك، فوجدناه في ساحة المنزل يعمل في فتح اجراس



طبريا (عن كتاب تومسون)

القطن، بينما كان نحو عشرين ولداً يرددّون درسهم بأصوات مرتفعة في غرفة معتمة. وجلست على الحصيرة إلى جانب الخوري، ولكنه لم ينهض لاستقبالي ولم يرحب بي. وعندما عرّفته بنفسي أشعرني أنه يعتبر جميع الانكليز الذين لا يتبعون البابا بمثابة هراطقة. وكنت أحب أن يكون طعام عشائي من سمك البحيرة، وأرسلت شخصاً لكي يصطاد السمك من ماء البحيرة، ولكنه عاد بعد ساعتين وهو فارغ اليدين.

عند غروب الشمس ولجنا إلى غرفة داخلية تقيم فيها الأسرة المؤلفة من الكاهن وزوجته وابنه الأكبر يوسف وابنته مرثا والطفل ابراهيم، وولدين آخرين. وكان في الغرفة جانب مخصص لبقرتين. وجيء بطعام العشاء فكان يتألف من طبيخ القمح والذرة وعليه زيت. أما نحن فقد كانت وجبتنا مؤلفة من الخبز والبيض. ودار الحديث بعد ذلك حول فرص السفر إلى دمشق، فكان من رأي مضيفنا ان الطرق خطرة بسبب اضطراب الأحوال والخلاف الناشب بين والي عكا ووالي دمشق.

دفعنا ثمن علف خيلنا وثمن البيض وابتعنا بعض الخبز. وغادرنا منزل الخوري لنقوم بجولة حول البحيرة. ووصلنا أولاً إلى قرية المجدل وبعدها إلى خان المنية، وهو خان اسلامي كبير بقيت منه بقايا. ثم وصلنا إلى الطابغة حيث تقيم اسرة عربية واحدة عند طاحونة. بعد ذلك سرنا حتى بلغنا تل حوم وهي محطة للبدو. ويبدو أنها كانت فيما مضى بلدة كبيرة. وتوقفنا هنا كي نأخذ قسطاً من الراحة. وبينما كان أدلاؤنا يتناولون طعامهم مع البدو، وصل عدد من الأشخاص، ولم نلبث حتى عرفنا أنهم من أهل طبريا وكانوا قد غادروا بلدتهم قبل يومين متجهين نحو دمشق ومعهم مبلغ من المال ليبتاعوا حاجيات وبضائع. وعندما وصلوا إلى منتصف الطريق هاجمتهم جماعة من الرجال وسلبوا نقودهم وسلاحهم، فاضطروا للعودة. ثم أخذوا يستحلفوننا بأن لا نغامر بالسفر، لأننا إذا فعلنا سنكون عرضة لفقدان كل ما نملك، بل قد نفقد حياتنا ذاتها. وازاء هذه الأقوال رفض الأدلاّء أن يستمروا في مرافقتنا، فلم تبق لنا مندوحة عن العودة من حيث أتينا.

عدنا إلى طبريا ولم أكن ميالاً للعودة إلى منزل الخوري، فأخذني الدليل الذي جاء معنا من الناصرة إلى منزل أخيه الذي كان يعمل خبازاً. وقد رحب هذا بنا ترحيباً حاراً، وقدم العلف لخيلنا وأعدّ لنا عشاء ممتازاً، وقدمت زوجته لنا القهوة، كما أنه ملأ غلايينا بالتبغ. ثم جاء بعض أصدقاء المضيف فقضينا سهرة ممتعة. وبعد أن انتهت السهرة أعدّ لي المضيف فرشة ولحافاً ووسائد، بينما نام الآخرون في ساحة البيت. [كان بكنجهام مستاء لأن الخوري تقاضى منه ثمن البيض. وفي رأيي أنه لم يكن محقّاً في استيائه].

كان لا بدّ لنا من العودة إلى الناصرة، فنهضت باكراً لكي أقوم بجولة في البلدة. وقد بدا لي أن منازلها لا تزيد على ٥٠٠ منزل، وهي متواضعة وصغيرة. وشاهدنا جامعاً له قبة ومئذنة، كما شاهدنا جامعاً آخر ولكنه متهدم، وكذلك كنيسين لليهود وكنيسة صغيرة للمسيحيين. وقد مررت بالكنيسة في وقت الصلاة، فكان عدد المصلين أحد عشر شخصاً فقط. وكان الفقر واضحاً. وشاهدنا منزل الآغا، والسوق. ولا يزيد عدد سكان طبريا على الفي لسمة، نصفهم من اليهود. ويؤلف المسلمون النصف الآخر. اما المسيحيون فلا يتجاوزون عشرين عائلة.

وأخيراً غادرنا طبريا (١٤ شباط) فمررنا بقرية لوبيه التي تقع على قمة رابية مرتفعة، وبعدها مررنا بكفر كنا والرينة، ولم نصل إلى الناصرة الا في الساعة العاشرة ليلاً.

في اليوم التالي علمت أن قافلة كبيرة سوف تغادر نابلس للذهاب إلى دمشق تحت حراسة قوية. ونصحني بعض الأصدقاء بأن أسرع للسفر إلى نابلس كي أنضمّ للقافلة، فأكون آمنا على نفسي. واستطعت في أثناء الليل أن أجد شخصاً من أهل نابلس وافق أن يرافقنا إلى بلدته مقابل خمسة عشر قرشاً. كما أن رئيس الدير أعطاني رسالة توصية إلى صديقه الحاج أحمد الجرار، زعيم صانور.

غادرنا الناصرة باتجاه الجنوب. وسرعان ما انحدرنا إلى السهل (مرج ابن عامر)، ولكن الأرض كانت جافة بسبب انحباس المطر. وعند الظهر

وصلنا إلى قرية المزرعة التي يحيط بها سور، ولكن لا يوجد فيها سكان في الوقت الحاضر، بل تُستعمل مكاناً تأوي اليه قطعان الغنم والبقر في أثناء الليل. بعد ذلك مررنا بقرية الفولة، وبدت لنا هنا بقايا بناء كبير يظهر من طرازه أنه بناء اسلامي. وإلى الغرب شاهدنا قرية العفولة التي تضم بضعة منازل فقط. وهناك قرى أخرى سكانها جميعاً من المسلمين. ومضينا في سيرنا إلى أن وصلنا إلى قرية زرعين، وهي قرية كبيرة نسبياً وفي وسطها مبنى عال حديث مثل مبنى شفا عمرو وحول المبنى نحو خمسين منزلاً. بعد ذلك وصلنا إلى قرية مقيبلة فوجدناها خالية من السكان، ولكن رأينا فيها ضريحاً أبيض اللون لأحد الأولياء وجامعاً متهدماً في الوسط.

الشيخ أحمد الجرّار

في الخامسة مساء وصلنا إلى بلدة جنين حيث شاهدنا قبة الجامع ومئذنته ترتفعان فوق مستوى المنازل، وسمعنا المؤذن يدعو إلى الصلاة. يبدو أن عدد المنازل لا يزيد على مائة منزل، ولكن البلدة تضم سوقاً ومقاهي عدة، وإلى جانب الجامع شاهدنا عدداً من أشجار النخيل التي يندر وجودها في هذه الجهات.

يتولى شيخ البلدة ادارة شؤونها، وهو يخضع لوالي عكا ووالي دمشق في آن واحد، لأن بلدة جنين تُعتبر المكان الذي تلتقي عنده حدود الولايتين. ولكن لا يوجد هنا أية قوات عسكرية، والسكان جميعهم مسلمون.

لم نتوقف في جنين بل مضينا نسير حتى وصلنا إلى بلدة صانور التي تقوم فوق تلة عالية ويحيط بها سور. عند وصولنا إلى البوابة، أفصحنا عن هويتنا وقلت انني أحمل رسالة من رئيس الدير في الناصرة إلى الحاج أحمد الجرار. وبعد دقائق فُتحت البوابة، وأرشدنا البعض إلى بيت الزعيم فوجدناه جالساً في ساحة المنزل وحوله عدد من جماعته. ونهض الجميع وقوفاً عند دخولنا، وفرد أحدهم سجادة ووسائد لي إلى يمين الزعيم، وسرعان ما قُدم العلف لخيولنا وجيء بطعام العشاء لنا، وأظهر المضيف لنا كل اكرام.

لم أقدم رسالة التوصية الا بعد طعام العشاء، حينما قدم الشيخ لي نرجيلة، لكي أدخن منها. ونودي فتى متعلم فجاء وقرأ الرسالة بصوت عال، وأصغى الجميع وأبدوا سرورهم لأن الرسالة كانت حافلة بعبارات المديح الفائق. أما أنا فداخلني السرور لأن الشيخ المضياف قدم لنا كل ما أمكن تقديمه من اللطف والإكرام، قبل أن يتسلم رسالة المديح والثناء.

ودار الحديث حول الأوضاع في أوروبا، والبلاد التي زرتها. وكان الزعيم نفسه قد حج إلى مكة مرتين، عن طريق دمشق، فتبادلت الحديث معه عن الأماكن التي زارها كلانا، وبالأخص موانىء الحجاز. ثم تم اعداد فراش وثير لي في غرفة منفصلة، وكانت الأغطية نظيفة والوسائد مغطاة بقماش الحرير، وعمل أصحاب المنزل كل ما في الوسع لتوفير أسباب الراحة لي.

وسهرنا حتى منتصف الليل ونحن نتبادل الأحاديث، وقد استقر في نفسي انطباع بان هذا الحاج الزعيم رجل كريم حليم طيب القلب أكثر من أي شخص آخر عرفته حتى الآن بين العرب والأتراك الذين التقيت بهم. ولكي يزيد من اكرامه لنا وفضله علينا، فانه أصر على أن يرسل معنا واحداً من رجاله إلى نابلس لكي يضمن سلامتنا من الأخطار التي قد نصادفها[1].

نهضنا مع الفجر، وعلى الرغم من أن الوقت كان مبكراً جداً فإن مضيفينا أبوا الا أن يقدموا لنا قهوة الصباح ويزودونا بطعام نأكل منه على الطريق. وبعد أن غادرنا البلدة سرنا في واد ضيق حتى وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى جبع، وهي تقع على قمة ربوة بينما تكثر أشجار الزيتون في الأودية

---

١ ـ ذكر احسان النمر أن أحمد آغا يوسف الجرار، عيّنه السلطان متسلماً على نابلس سنة ١٢٣٥ هجرية (١٨١٩م)، وانه توفي بعد بضعة أشهر من تعيينه «وبموته فقد جبل نابلس أميراً خطيراً قوي النفس والعصبية شجاعاً عزيزاً... وفقد آل جرار كبيراً لم يرزقوا بعده مثله. وبموته فقدت نابلس حاكماً وطنياً مهاباً....»
تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الأول، الطبعة الثانية، نابلس، ١٩٧٥، الصفحات ٢٨١ ـ ٢٨٤.

المحيطة بها. وأخذنا نلاحظ هنا اهتمام الأهلين بالزراعة، بل أخذنا نلاحظ أن نباتات القمح الصغيرة كانت قد نمت هنا قليلاً. وكان الناس قد خرجوا إلى حقولهم مما دلنا على نشاطهم وحيويتهم. ثم وصلنا إلى قرية بيت امرين التي تضم نحو أربعين منزلاً، وهي بدورها محاطة بأشجار كثيفة من الزيتون. ومضينا نتقدم إلى أن وصلنا إلى سبسطية التي تتألف من نحو ثلاثين منزلاً، وهي منازل متواضعة للغاية. وذهبنا إلى منزل الشيخ فقدم لنا وجبة طعام من الخبز والزيت. ثم استأنفنا سيرنا حتى وصلنا إلى وادي نابلس الطويل، وشاهدنا في تلك الأثناء عدة قرى. والوادي جميل حقاً تغطيه أشجار الزيتون ومزروعات القمح الخضراء وآبار الماء والقنوات والبساتين، وجميع مظاهر العمل النشيط والوفرة والثراء.

في نابلس

عند الظهر بلغنا نابلس فدخلنا من البوابة الغربية، ومررنا من سوق ضيق ولكنه مزدحم، ثم توقفنا عند خان لعموم الناس وأخذنا نسأل عن قافلة دمشق، وكم كان أسفي عندما علمت أن القافلة غادرت نابلس قبل ثلاثة أيام، بحيث لم يبق لي أي أمل في اللحاق بها، وقيل لي أيضاً أن القافلة التالية لن تسافر الا بعد شهر على الأقل. وعندئذ أصرّ الرجل الذي أرسله الحاج أحمد الجرار أن يبقى معنا حتى يطمئن على أحوالي، ثم اقترح أن أعود معه إلى صانور، فوافقت على الفكرة. وقررنا أن نأخذ قسطاً من الراحة نحن وخيولنا قبل أن نعود، فاغتنمت الفرصة كي ألقي نظرة على البلدة. انها تقع بين جبلي جرزيم وعيبال، وهي تتألف من شارعين طويلين يتجهان شرقاً وغرباً من منتصف الوادي، وتتقاطع معهما شوارع أخرى صغيرة. ونابلس في الوقت الحاضر مزدهرة وكثيرة السكان، وتدل الحركة فيها على الوفرة والنشاط. وفي البلدة ست جوامع مع خمس حمامات وكنيسة واحدة، وسوق مسقوفة للبضائع وأخرى مفتوحة للمواد التموينية. هذا بالإضافة إلى عدة معامل لصنع الأقمشة القطنية، ودكاكين من مختلف الأنواع والبضائع. ولقد أقيم أحد الجوامع ضمن دائرة كنيسة متهدمة. ويُقدّر عدد سكان

نابلس بين جبلي عيبال وجرزيم (عن كتاب تومسون)

البلدة بعشرة آلاف نسمة، ولكنني أظن أن العدد الحقيقي أقل من هذا الرقم. وجميع السكان مسلمون، باستثناء خمسين مسيحياً على وجه التقريب. ويحكم البلدة متسلم أو بيك، يتبع دمشق، وعنده في الوقت الحاضر نحو ٤٠٠ جندي ارناؤوط. ويرتدي الرجال ملابس هي مزيج من الطراز التركي والطراز العربي. أما النساء فيغطين وجوههن بخمر ملونة، ويلقين على الرأس والكتفين مناديل ذات ألوان صفراء فاتحة، مع خط أحمر على الأطراف. ومع أن لنابلس تجارة واسعة مع دمشق ومدن الساحل، الا أنه لا يقيم فيها يهود اقامة دائمة. اما السامريون فقد قيل لي أنه لا يوجد منهم هنا سوى بضع عائلات. وهم يعتقدون ـ على العكس من اليهود ـ أن جبل جرزيم أكثر قدسية من جبل عيبال. والواقع أن جبل جرزيم أكثر خصوبة وتربته أفضل من جبال عيبال.

عدنا من جولتنا ودخلنا إلى نابلس بينها كان المؤذن يرفع آذان العصر. ولم يكن لدينا متسع من الوقت، فأسرعنا إلى ركوب خيولنا كي نعود إلى صانور. غادرنا البلدة من بوابة في الجانب الشمالي. ومن فوق الأرض المرتفعة شاهدنا مناظر جميلة، وعلى الأخص منظر الوادي الخصيب تغطيه غابات الزيتون ومزروعات القمح الخضراء الرائعة، وكذلك منازل البلدة ذات السطوح المستوية، والمآذن العالية.

وعندما ابتعدنا أخذنا نسير عبر تلال غشيمة جرداء، ننحدر تارة ونصعد تارة أخرى، إلى أن وصلنا إلى قرية جبع القريبة من صانور. وكانت الشمس عندئذ قد غربت فلكزنا جيادنا وقطعنا المسافة القصيرة بسرعة. وعند وصولنا إلى صانور وجدنا أن مضيفنا الكريم قد أمر باعداد طعام العشاء لنا منذ أن أنبأه رجاله المرابطون عند بوابة القلعة، باقترابنا.

استقبلنا مضيفنا بترحاب لا مزيد عليه. وكان سرور الزعيم وجماعته بعودتنا مخلصاً وحاراً. وتعشينا سوية من أصناف الطعام العديدة التي قُدمت لنا، وبعد أن اكتفينا تقدم بقية الحضور للأكل من الطعام، كما هي العادة هنا.

بعد العشاء أخذنا نتبادل أطراف الأحاديث. وعندما أعربت عن شعوري بخيبة الأمل لأنني لم استطع اللحاق بالقافلة المتجهة إلى دمشق، أخذ الحاج أحمد الجرار يلحّ علي بالبقاء في ضيافته حتى الشهر القادم لمرافقة القافلة التالية التي ستغادر نابلس، مؤكداً أنه سيوفر لي جميع أسباب الراحة. وحينما أجبته بانني لا أدري كيف أرد على هذه الأريحية، قال انه يشعر بالسعادة لفعل الخير، خاصة بالنسبة إلى شخص مثلي غريب وبعيد عن أهله وبلاده.

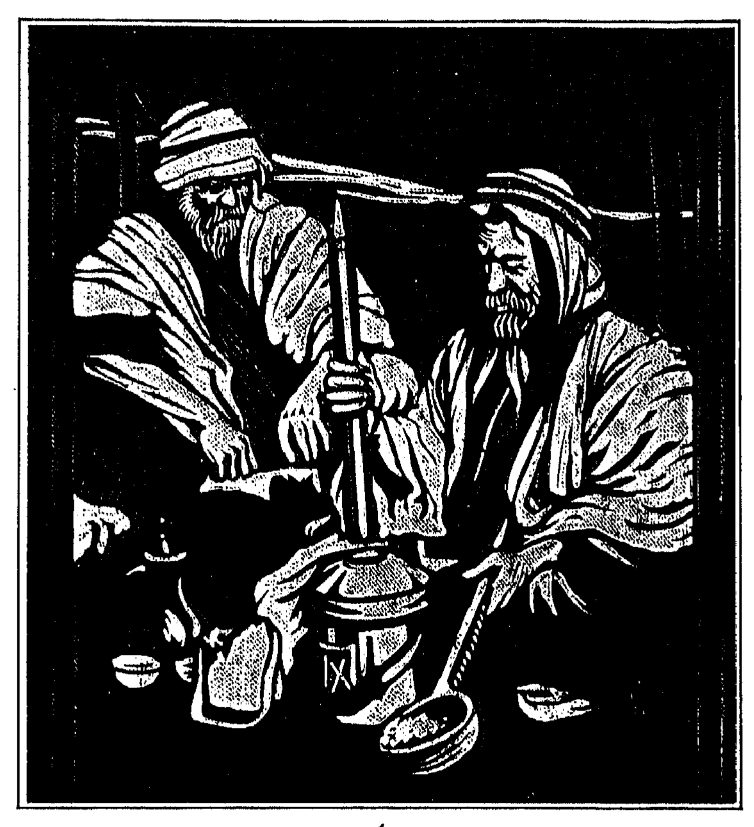
كان بودّي أن أبقى أياماً في صانور، ولكنني رأيت أن واجبي يدعوني لمواصلة الترحال. وأنبأت مضيفي بانني عاقد العزم على السفر غداً إلى الناصرة، فحاول أن يثنيني عن ذلك العزم. وبقينا نتجادل إلى أن انتصف الليل وهو يحاول اقناعي بالبقاء. ثم انفض السامر وآويت إلى الفراش الوثير الذي قضيت فيه ليلتي السابقة.

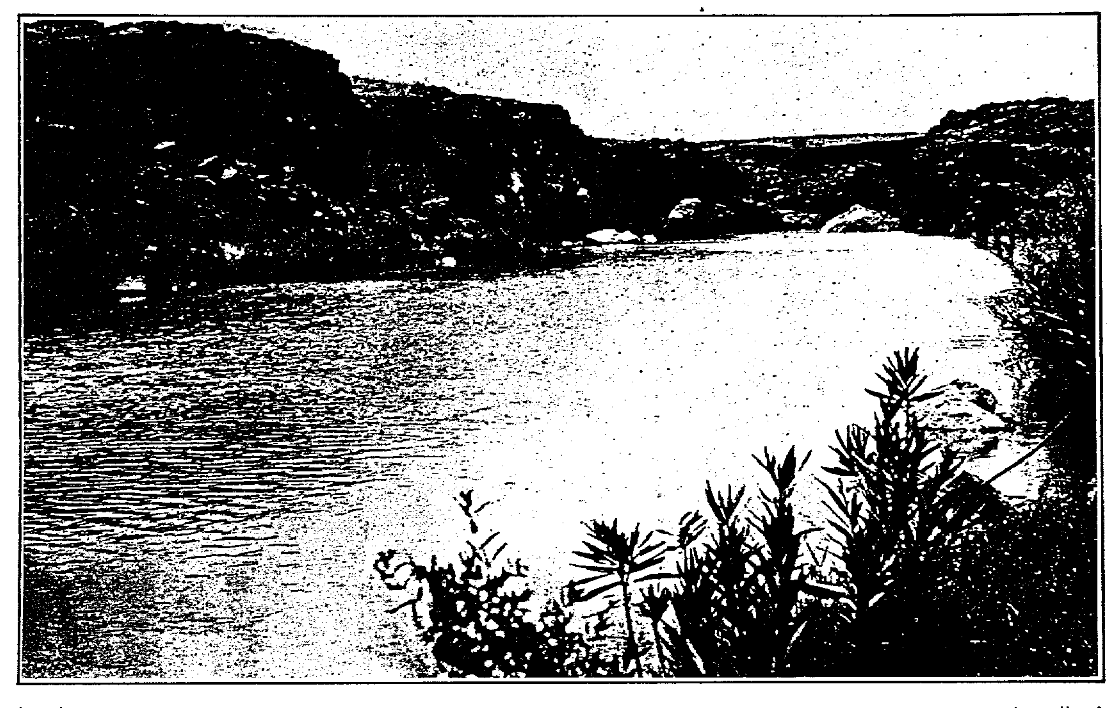
لم أجد من الملائم أن أسأل عن أوضاع صانور، ولكنها بدت لي بلدة محاطة بسور، تقوم على قمة تل مرتفع تحيط به المنحدرات السحيقة من جميع الجوانب، ويشرف على السهل الواقع إلى الشمال منها وعلى السهل الآخر إلى الجنوب، وكلاهما تزدهر فيه المزروعات. وأسوار صانور منيعة ويبدو أنها أنشئت في العهود الاسلامية القديمة. وللبلدة بوابتان، ولكن محيطها كله لا يزيد على نصف ميل. أما المنازل فبناؤها متين وتقارب بعضها البعض، والشوارع ضيقة وجميع السكان مسلمون وعددهم كبير بالنسبة لحجم البلدة.

يخضع الزعيم الحاج أحمد الجرار لوالي دمشق، ولكنه يتمتع بسلطة مطلقة في منطقته، إذ لا توجد هنا مراكز للحكومة أو قوات عسكرية. انه زعيم اقطاعي، تشمل سيادته عدداً من البلدان والقرى بالإضافة إلى أراضي فسيحة حولها. ومع أن سلطته مطلقة، الا أنه يحكم بأسلوب اللين، ويبدو أن جميع اتباعه سعداء بامتيازاتهم. وقد بدا لي من ملاحظاتي أن حكومة هذا الرجل أبوية عطوفة، وتوفر للناس مجالات العمل والأمن والرخاء والصحة والرضى.

١٨ شباط ١٨١٦ : غادرنا صانور أنا ودليلي هذا الصباح، ولكن الحاج أحمد الجرار أصرّ أن نتناول طعام الإفطار باكراً. وقبل أن أبارح المكان أخذ علي عهداً بأن أحل في ضيافته شهراً على الأقل، فيما إذا سنحت لي فرصة مقبلة لزيارة سوريا أو فلسطين.

سرنا أولاً في سهل مزروع بالحبوب، ثم في أرض تكثر فيها الحجارة، ولم نلبث أن وصلنا إلى قرية برقين والتي تضم ما بين ٤٠ إلى ٥٠ منزلاً. وتغلغلنا بعد ذلك في مرج بني عامر، ومررنا إلى جانب قرية مقيبلة. ثم توقفنا عند آبار الفولة لنروي ظمأ جيادنا. وفي السابعة مساء وصلنا إلى دير الناصرة، فاستقبلنا الرهبان وكان ترحيبهم ممتزجاً بالدهشة لعودتي.





نهر اليرموك (عن كتاب روبنسون ليس)

نهر الأردن والبحر الميت
الرحلة الاستكشافية لبعثة البحرية الأمريكية

تأليف : الكابتن وليم لينش

نهر الأردن والبحر الميت
الرحلة الاستكشافية لبعثة البحرية الأمريكية

تأليف : وليم لينش

هذه قصة الرحلة الاستكشافية التي قامت بها بعثة من سلاح البحرية الأمريكي، بهدف التعرّف على طبيعة الأرض التي يجري فيها نهر الأردن فيما بين بحيرة طبريا والبحر الميت، ودراسة مجرى النهر دراسة علمية وافية، ثم دراسة البحر الميت ومحيطه ومياهه. وهذا الكتاب الذي وضعه قائد البعثة الملازم لينش (١٨٠١ - ١٨٦٥) يتحدث عن أعمال البعثة وعن مشاهداته وملاحظاته الشخصية، والظروف والأحوال التي أحاطت بعمل البعثة في أثناء الأشهر الأولى من عام ١٨٤٨ . وكان طبع الكتاب في السنة التالية. ثم ظهرت منه طبعة جديدة منقحة سنة ١٩٧٧ . وقد تألفت البعثة من أربعة عشر رجلاً من رجال البحرية الأمريكية، ثم انضم اليها اثنان من الأمريكيين، أحدهما طبيب. ويضم الكتاب خارطتين واحدة لنهر الأردن والثانية للبحر الميت، بالإضافة إلى عدد من الرسومات.

ولست أنا من رجال العلم التطبيقي لكي أنقل للقارىء وصف المؤلف لطبيعة الأرض التي يجري فيها نهر الأردن ويستقر البحر الميت. ولا أريد أن أعرض للتسجيلات العلمية المتتابعة التي أثبتها من ناحية ارتفاع الأرض هنا وانخفاضها هناك، وقياسات درجات الحرارة في الليل والنهار، وتعرّجات النهر، وسرعة سيره، وعمق البحر الميت ونسبة الأملاح في مياهه،

عن كتاب : W.F. Lynch (U.S.N.) Narrative of the United States Expedition to the River Jordan and the Dead Sea. A New and Corrected Edition; Arno Press, Philadelphia, Lea & Blanchard, 1849. New York, 1977.

والأشجار والنباتات التي تنمو هناك، والحيوانات والطيور التي تعيش حول النهر والبحر - ولكنني رأيت أن المؤلف لم يقتصر في كتابه على تقديم المعلومات الجافة عن الجوانب العلمية المحضة، وما أعدّ هو ورفاقه من ترتيبات، وما واجهوا من مخاطر وعقبات، وما عانوا من شدائد، بل تجاوز ذلك إلى وصف البلاد التي أقام فيها أو شاهدها، والناس الذين عرفهم في أثناء الرحلة، مما يعطي صورة عن وضع بلادنا في تلك الأيام، من ناحية مستوى الحكم والإدارة وعلاقة أبناء الشعب بها، ومن ناحية الوضع الاجتماعي السائد، بالإضافة إلى وصف أحوال العمران والزراعة وطراز الألبسة وكيفية سلوك الناس وعاداتهم وتقاليدهم وأحوالهم المعيشية.

وقد ورد ذكر هذا الكتاب في بعض المراجع الأجنبية، ولكن أكثر ما أثار شوقي إلى قراءته عبارات أوردها القس أسعد منصور في كتابه (تاريخ الناصرة)، ومؤداها أن الرحالة لينش تحدث عن رحلته أولاً في الصحف وأشاد بذكر شخصية كان لها وزنها في تلك الأيام، في هذه الجهات، الا وهي شخصية عقيلة الحاسي، وانه نشر صورته «في جرائد أوروبا ومجلاتها، فطبّق اسمه البلاد المتمدنة...». وسبب اهتمامي الخاص بعقيلة هذا يعود إلى سبب شخصي، ذلك أن اسمه ارتبط في أذهان المتقدمين في السن من أهلي بما كان له من علاقة بنزوح أجدادنا من القرية التي كانوا يستوطنونها بالقرب من الناصرة (قرية عولَم) في منتصف القرن التاسع عشر، أو بعده بقليل.

وها أنني أقدم هنا (على لسان المؤلف) الملامح التي رأيت أنها تهم القارىء المعاصر من بين صفحات هذا الكتاب، الذي يبلغ في أصله الانكليزي ٥٠٩ صفحات.

استانبول

في أيار ١٨٤٧ قدمتُ طلباً إلى قيادة سلاح البحرية لاستكشاف بحيرة الأسفلت المعروفة باسم البحر الميت. وبعد خمسة أشهر صدر الأمر بالموافقة وبأن أتولّى قيادة احدى السفن لتنفيذ المهمة. وبدأت الاستعداد فحصلت

على زورقين أحدهما من النحاس والثاني من الحديد، ثم اخترت عشرة رجال من الشبان ذوي الأبدان السليمة ليكونوا بحارة لهما، بعد أن أخذت عليهم عهداً بالامتناع عن المشروبات المسكرة. كما انضمّ الي ضابطان لهما معرفة ممتازة بفن الرسم، لكي يكونا مساعدين لي. وبعد أن أتممتُ جميع استعداداتي صدر لي الأمر بأن أبحر إلى استانبول، لأطلب من الحكومة العثمانية اذناً بالتجوال في سوريا بهدف استكشاف البحر الميت ومجرى نهر الأردن.

تألفت الأسلحة التي حملناها معنا من بندقية كبيرة (أشبه ما تكون بالمدفع) و ١٤ بندقية عادية ثُبتت الحراب الطويلة عليها و ١٤ مسدساً. وكان كل ضابط يحمل سيفاً. ومن جملة ما حملنا معنا عدد من أكياس الماء التي يمكن نفخها والاستعانة بها في خوض عباب الماء، إذا حدث أن تحطم الزورقان. كما أخذنا معنا أجهزة وخياماً وأشرعة ومجاذيف ولحوماً محفوظة وأواني طبخ قليلة.

غادرنا خليج نيويورك يوم ٢٦ تشرين الثاني ١٨٤٧ واتجهنا إلى الشرق، فمررنا بجزر الآزور ثم برأس الطرف الأغر، ثم برأس طريف، أقصى نقطة في جنوبي أوروبا حيث كان نزول الشرقيين Saracens الأول، ومنهم أصل التسمية. ومن هناك مررنا من مضيق جبل طارق، ومضينا نمخر عباب البحر حتى وصلنا إلى أزمير، ثم اتجهنا إلى استانبول ذات القباب الكبيرة والمآذن العالية.

حظيتُ بمقابلة السلطان يوم ٢٦ شباط ١٩٤٨، وعرضت عليه غايتي طالباً الإذن بالسفر الى سوريا. وكانت التعليمات التي تلقيتها تقضي عليّ بأن أطلب ـ عن طريق وزيرنا المفوض لدى البلاط العثماني ـ فرماناً يخوّل مجموعتنا المرور من أراضي سوريا إلى البحر الميت، والحصول على التسهيلات من موظفي الدولة. أما مسألة حماية الدولة لنا من العرب (يعني البدو) فإنها لم تكن تستطيع شيئاً من هذا، لأن جميع الذين يسافرون إلى الشرق يعرفون جيداً انه لا سلطة للدولة إلى أبعد من مسافة عشرة أميال

شرقي خط القدس ـ نابلس. فالقبائل تروح وتغدو على هواها، وترتكب أعمال النهب والقتل دون أن تخشى عقاباً ودون أن تجد من يردعها.

وأخيراً حصلتُ على الفرمان المطلوب من الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، وكان موجهاً إلى حاكمي صيدا والقدس. وفيما يلي ترجمة الفرمان:

مصطفى باشا، حاكم صيدا — استامبول ٧ آذار ١٨٤٨

ظريف باشا، حاكم القدس

يرغب الكابتن لينش، أحد ضباط الأسطول الأمريكي، باستكشاف بحر لوط (البحر الميت). وقد طلبت مفوضية بلاده من جميع السلطات تقديم المساعدة له.

بناء عليه، ينبغي عليكم عند تسلمكم هذه الأوامر، أن تقدموا له ولرفاقه، وعددهم سبعة عشر شخصاً، كل مساعدة وتعاون في عملية الاستكشاف.

عليكم توفير الحماية له ومعاملته باحترام، نظراً للصداقة التي تربط بين الحكومة الأمريكية وحكومة الباب العالي.

(التوقيع) مصطفى رشيد باشا
الصدر الأعظم

غادرتُ استانبول بعد نصف ساعة من استلامي الفرمان، ووصلت إلى ازمير، ومن هناك أبحرت باتجاه شاطىء سوريا. ولكن عاصفة شديدة اضطرتنا أن نبقى في ميناء قريب من افسوس القديمة، فاغتنمنا الفرصة لزيارة الآثار، ثم مغارة النائمين السبعة، وهم سبعة أخوة اعتنقوا الديانة المسيحية واختبأوا في مغارة مستغرقين في النوم ١٥٧ سنة ومعهم كلبهم.

من بيروت إلى عكا

وهدأت العاصفة فأبحرنا، وكان وصولنا إلى بيروت صباح يوم ٢٥

آذار. وفي بيروت انتقلت من السفينة إلى البلدة كي أزور الباشا. وقدّمني قنصلنا اليه فعرضت عليه الفرمان السلطاني، فقرأه باحترام وعناية وأعلن استعداده للعمل بمقتضاه. وفي أثناء الحديث ظهرت صعوبة غير متوقعة، إذ تبين أن الباشا لم يكن واثقاً من تبعية أراضي شرقي الأردن: هل تقع تحت ادارته أم تقع ضمن مسؤولية باشا دمشق؟ وبالنتيجة ظهر أن تلك المنطقة تخضع لباشا دمشق.

بعد ذلك اتفقت مع شاب سوري ذكي اسمه اميوني كي يرافقنا كترجمان، كما استخدمت طباخاً اسمه مصطفى. واتفقت أيضاً مع الدكتور اندرسون لكي يرافقنا ويعمل معنا كطبيب وجيولوجي. وكان قد حدث قبل مدة قريبة أن جماعة من الإنكليز هوجموا وهم يحاولون الانحدار نحو الأردن، وتوفي قائد الجماعة من الحمى التي أصابته عند البحر الميت، فكان لا مندوحة لي عن تأمين خدمات هذا الطبيب، حفاظاً على سلامة جماعتي.

إن بيروت بلدة افرنجية - سورية، تمتزج فيها عادات الغرب والشرق. وقد جلب انتباهنا ذلك الطنطور (أو القرن) الذي تلبسه النساء الجبليات على رؤوسهن.

ولم نلبث أن غادرنا بيروت، فمررنا من قبالة صيدا وصور، ثم برأس الأبيض وهو الطرف الشمالي لخليج عكا، ثم مررنا قبالة عكا حتى ألقينا مراسينا تحت جبل الكرمل أمام قرية حيفا المسوّرة. وبصعوبة بالغة نزلت على الشاطىء ومعي الترجمان ووكيل القنصل، بل اننا واجهنا خطر الهلاك بسبب الأمواج القوية، لو لم يبادر صيادو السمك العرب إلى مساعدتنا. انهم سباحون جسورون وماهرون.

مضينا أولاً إلى حيفا ومن هناك إلى دير الكرمل نبحث عن مكان نقضي ليلتنا فيه، ذلك ان القرية البائسة لم يكن فيها مكان لاقامة الأشخاص الغرباء. وأول ما يدهش الزائر الغربي عند وصوله إلى سوريا، انعدام وجود شجر الغابات. انك لا ترى سوى أشجار البساتين، ولكنك لا ترى شجرة بلوط ترتفع كالبرج الشامخ، او صفوف أشجار الحور السامقة، ومن

هنا تبدو مناظر الأرض رتيبة تبعث على الملل. وفي الدير القائم على جبهة جبل الكرمل استقبلنا الرهبان مرحبين، وقدموا لنا وجبة من حساء الخضار والسمك، لأن تلك الفترة كانت تصادف أيام الصوم الكبير (الذي يسبق عيد الفصح).

في اليوم الأخير من شهر آذار، هدأت العواصف، فأرسلت إلى عكا أطلب خيولاً. وقد تمكنا من انزال القاربين وكذلك امتعتنا وجميع لوازمنا وحاجياتنا، ثم نصبنا خيامنا على الشاطىء خارج اسوار حيفا، ورفعنا علم أمريكا. ولم يلبث أن أحاط بنا جمهور من العرب الذين استبد بهم الفضول للتفرج علينا. وكان معنا خيمتان صنعتا بحيث تصلح سواري الزورقين أعمدة لهما. وجاء الليل فخرج الرجال المكلفون بالحراسة إلى أماكنهم حول الخيمتين.

وصلت الخيول في اليوم التالي، فوجدناها ناحلة الأبدان هزيلة. وانتقلنا إلى عكا، ومضيت إلى منزل القنصل. وبعد أن دخلتُ من البوابة شاهدت سوقاً ضيقة طولها نحو ٢٠٠ ياردة، وفيها دكاكين تحتوي على بضائع مما يحتاج اليه الناس هنا بالضرورة. وبعد ذلك مررنا بصف آخر من الدكاكين أكثرها لصناعة الأحذية. ثم مضيت مع القنصل للاجتماع بالحاكم فلحقنا به إلى خارج السور، وهناك ألفيناه يجلس إلى جانب كوخ جلسة تتمثل فيها الديموقراطية الحقة. واستقبلنا الحاكم بلطف، ودعانا إلى الجلوس بالقرب منه إلى جانب ضباطه ومرافقيه. هذا الحاكم هو سعيد بك، وهو سوري المولد، مصري الأصل، في الخامسة والأربعين من العمر، يرتدي بنطلوناً أزرق اللون ومعطفاً طويلاً وطربوشاً.

حدثت الحاكم عن هزال الجياد التي أرسلها، فأعرب عن أسفه قائلاً أنه لم يجد أفضل منها. واقترحت أن يزودنا بثيران ولكنه قال أن الفلاحين يحرثون الأرض بواسطة ثيرانهم، وأنه سيلحق الضرر بهم إذا أمر بأخذ عدد من الثيران منهم. ولم أكن أريد أن يلحق بسببي الأذى بأحد، ولكنني أوضحت له ضرورة تزويدنا بوسائط نقل مناسبة، وأبديتُ الاستعداد لدفع

أجور سخية، وأوضحت انه سيكون ملوماً إذا لم يساعدنا. وكان جمهور من الناس قد تجمع حولنا، فقال الحاكم بانه سوف يرى ما يمكن أن يفعل وانه سوف يحيطني علماً بذلك.

في تلك الأثناء كانت سفينتنا قد وصلت إلى ميناء عكا ووصل القاربان. وجاء الحاكم وضباطه يتفرجون، ولحق بهم معظم سكان البلدة. وقد طلبت من الحاكم أن يأمر بدفع الجمهور قليلاً إلى الوراء حتى نتمكن من انزال أمتعتنا ونصب الخيمتين، ولكنه لم يتمكن من ذلك، فانتقلنا إلى الطرف الجنوبي من الخليج، وعلى الرغم من ذلك لحق الجمهور بنا إلى هناك، فاضطررنا إلى أن نتدبر أمورنا بأنفسنا، ووقف عدد من رجالنا ومعهم حرابهم يحولون دون اقتراب الناس. وبعدئذ استطعنا أن نجر الزورقين إلى أرض الشاطىء. وبعد قليل أخذت السفينة تبتعد في عرض البحر. وأخذنا نتساءل: هل سيُقدّر لنا أن نعود اليها؟ اننا بين يدي الله، وكل ما سيحدث لنا سيكون بارادته.

في المساء تلقيت دعوة بالذهاب إلى قصر سعيد بك. وعند وصولي إلى ديوانه وجدت هناك القاضي وعدداً من الضباط. وكان هناك خدم يروحون ويجيئون وهم يقدمون غلايين الدخان وفناجين القهوة لكل قادم جديد.

عقيلة الحاسي

ولكن ما أثار اهتمامي أكثر من أي شيء آخر، رؤية رجل رائع يلف نفسه بمعطف من قماش قرمزي اللون، مطرز بالذهب. بدا لي الرجل على قدر عظيم من الوسامة وجمال البنية والملامح، اسمر اللون ذا شعر أسود وأسنان منتظمة كأنها العاج الأبيض. اما نظرات عينيه فقد كانت حادة أحياناً ولكنها على العموم ناعمة لمّاعة. كان يتكىء على الديوان، وعلى رأسه طربوش، ويداه تعبثان بمقبض سيفه. بدا لي انه على وصف الشاعر:

فولاذٌ حين لقاء السنان،
وشمعٌ حين لقاء الحسان،



عقيلة آغا الحاسي (عن كتاب لينش)

والتفت الحاكم يقول لي أنه بعد اجتماعه بي تلقى أنباء مثيرة عن عداء القبائل المتاخمة لنهر الأردن. ثم أشار إلى الزعيم المدهش الذي أثار اعجابي، اشارة من يقول انه هو مصدر تلك الأنباء المثيرة. ومضى الحاكم يعرّفني بالرجل قائلاً انه عقيلة آغا الحاسي، أحد كبار شيوخ العرب الذين يقيمون بالقرب من نهر الأردن، وان هذا الشيخ المتميز، وصل لتوّه من الغور، وأفادنا بأن القبائل تنازل بعضها البعض وتعمل على نهب وايذاء كل من يقع

بين أيديها. ثم خرج الحاكم من كل هذا إلى القول انه يرى اننا لا نستطيع المضي في مهمتنا الا إذا كنا في حراسة ما لا يقل عن مائة جندي، وانه يستطيع أن يؤمن سلامتنا ونقل قاربينا إذا أنا وافقت على دفع مبلغ عشرين الف قرش (نحو ٨٠٠ دولار).

عندما سمعت هذا القول تبادر إلى ذهني أن الحاكم استدعى هذا الشيخ خصيصاً بقصد ترويعي حتى أقبل ما يملي عليّ من شروط. وأمعنت النظر في الأمر فتوصلت إلى قرار لا يتفق مع رغبات الحاكم. وأقبل الحضور جميعاً عليّ يحاولون اقناعي بقبول العرض، ولكنني رفضت أن ابتاع الحماية بالنقود، وقلت انني سأدفع أجور الخيل أو الثيران، ومكافأة معتدلة لعدد قليل من الجنود يرافقونني بصفة أدلّاء. ثم أضفتُ قائلاً اننا جميعاً مسلحون بأسلحة فتاكة وقادرون على حماية أنفسنا.

عندما أدرك الحاكم رفضي القاطع لعرضه حاول اقناعي بترك المشروع. وكان جوابي: اننا تلقينا أوامر باستكشاف البحر الميت ونحن عازمون على اطاعة تلك الأوامر.

هنا قال عقيلة أن عربان الغور سوف يأكلوننا. وكان جوابي أنهم سيجدون ذلك أمراً عسيراً للغاية. ثم أضفتُ قائلاً: اننا نود أن نقوم بمهمتنا بصورة سلمية، مع استعدادنا لدفع أجور الخدمات التي يمكن أن تقدّم لنا وثمن المؤن التي سنحتاج اليها.

وغادرت بعد هذا مجلس الحاكم ولحقت بالشيخ الذي كان قد خرج قبلي بقليل، ووجهتُ اليه أسئلة عديدة عن قبائل وادي الأردن. وفي اثناء الحديث كشفتُ عن سيفي ومسدسي، فتفحصها الشيخ وقال أنها من اختراع الشيطان. عندئذ قلت اننا خمسة عشر رجلاً، ونحن نملك بالإضافة إلى السيوف والمسدسات، بندقية كبيرة أشبه ما تكون بالمدفع و ١٤ بندقية، وفوق ذلك حراباً ومسدسات أخرى. ثم سألته عما إذا كان يعتقد أن باستطاعتنا الانحدار الآن إلى وادي الأردن. كان جوابه: لا شك أنكم تستطيعون. وبعد أن افترقت عنه علمتُ أنه كان في السنة الماضية قد ثار في

وجه الحكومة العثمانية على رأس عدة قبائل، وأن الحكومة لم تستطع اخضاعه فابتاعت ولاءه عن طريق منحه رتبة عقيد للعرب غير النظاميين، وقدمت اليه فوق ذلك معطفاً من معاطف التشريفات، هو المعطف الذي كان يرتديه عند لقائي به[1].

كان الليل عندئذ قد انتصف وبوابة عكا قد أُغلقت، ولم يكن بمقدوري الذهاب للمبيت مع رفاقي، فذهبتُ مع القنصل إلى منزله، وهناك التقيتُ بالميجر سمث وأمريكي آخر ورجل انكليزي معهما، وقد أكد ثلاثتهم أنهم كانوا تعرضوا لهجوم قبل ليلتين فقط بالقرب من جبل طابور. وهذا مما زاد من اقتناعي بوجود الخطر واحتمالات الصدام، فأرسلت رسالة إلى القنصل البريطاني في القدس أطلب اليه ان يتصل بحاكمها من أجل أن يرسل عدداً من الجنود للانضمام إليّ في طبريا أو في الغور ـ هذا بعد أن رفضت باصرار عرض سعيد بك بأن يرسل معي عشرة جنود من رجاله.

الشريف هـزّاع

في الليلة التالية كنتُ في منزل القنصل، وجاء زائرون عديدون إلى المنزل. وقد أدهشني بصورة خاصة مجيء رجل من نبلاء العرب هو الشريف هزاع من أشراف مكة. كان الشريف يناهز الخمسين من العمر، أسمر اللون، متوسط القامة وذا ملامح تدل على الذكاء. وعلمت أن أباه وعمه كانا توليا سدّة الحكم في مكة حتى جاء محمد علي إلى الحجاز فعزل العم. كان ذا شخصية تبعث على الاعجاب، وقد أبدى اهتماماً مستنيراً بالنسبة لبلادنا ومؤسساتها. وقد قيل لنا أن العرب يحيطونه بتبجيل عظيم بسبب نبل محتده وعراقة نسبه. ولاحظت أن جميع المسلمين الذين جاءوا إلى المنزل

---

١ ـ كانت الدولة العثمانية تعمل على تجنيد بعض الرجال للخدمة في مناطقهم دون أن يكونوا جنوداً في الجيش النظامي. وكان الواحد من هؤلاء يُعرف باسم باشبوزق، وهي كلمة تركية تتألف من مقطعين: باش ومعناها رأس، وبوزق ومعناها فارغ. (س.م.).

يتقدمون منه ويقبلون يده بكل احترام. وعلمنا منه أنه لا يعمل شيئاً في الوقت الحاضر، بل ينتظر صدور قرار في دعوى قضائية. وعلى حين غرّة عرضتُ عليه أن يرافقنا، فابتسم في بادىء الأمر، كأن الاقتراح ينطوي على سخافة. ولكن عندما أوضحتُ له اننا ضباط مكلفون بمهمة، واننا جئنا من بلاد بعيدة ولكنها قوية، لكي نحل مسائل علمية، بدا عليه الاهتمام. وأصغى بكل جدية لما قلت، ثم نهض مودعاً وهو يقول انه سوف يعطيني جواباً. والحقيقة انني شعرتُ أن الأقدار هي التي جمعتني به، لاعتقادي أنه سيكون ذا فائدة كبيرة لنا. ولم يلبث الشريف طويلاً حتى عاد وأبلغني انه يقبل دعوتي، وانه يترك أمر التعويض لتقديري. كما أنه أبلغني رسالة من عقيلة ـ ذلك المتوحش الوسيم ـ مؤداها أن سعيد بك رجل مخادع وانه كان يحاول ادخال الرعب في نفسي. وكان من رأي الشريف أنه يمكن اقناع عقيلة أيضاً بمرافقتنا، إذا تمت المفاوضات بسرية وكتمان.

إن سيرة سعيد بك هذا تعطي مثالاً على تقلبات الحظوظ في الدولة العثمانية. فقد قضى وقتاً طويلاً وهو يعمل مع المصريين عندما كان ابراهيم باشا يحكم البلاد، ولكنه أساء التصرف في أداء وظيفته، وعندما استرد الأتراك عكا وجدوه يجر أصفاده وهو يقضي مدة المحكومية بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة. وها هو الآن يسير كالسيد في الشوارع التي كان يقوم بتكنيسها فيما مضى.

في اليوم التالي بحثتُ موضوع استخدام الجمال بدلاً من الخيول. وتبين لي أن هذه الحيوانات الضخمة تستطيع أن تجر الزورقين ـ بعد وضع قطعها في شاحنات. وشعرت بأنني أستطيع الاستغناء عن الاستعانة بسعيد بك، لأن الجمال كثيرة. وعقدتُ العزم على أن لا أعود اليه، فاتفقت مع أحد أبناء عكا (سعيد مصطفى) كي يقوم بتأمين الجمال والخيول التي تلزم لنا.

غادرنا عكا يوم ٣ نيسان. وبعد خروجنا من بوابة البلدة التقينا الشيخ البدوي عقيلة، فسلمني رسالة بعث بها القنصل الأمريكي في بيروت. وكان

الشيخ قد تلطف بحملها وهو في طريقه إلى عبلّين، احدى القرى التابعة له. كانت الرسالة تحتوي على الفرمان الذي كنا بانتظاره من والي دمشق. اما عقيلة فكان يرتدي المعطف القرمزي اياه، وسراويل بيضاء وطربوشاً أحمر وجزمة، وهو نفس اللباس الذي كان يرتديه في مجلس الحاكم قبل يومين. كان يمتطي صهوة مهرة متوثبة، لم تلبث أن مضت تعدو به وعباءته القرمزية تسبح مع الريح، بينما كان يبتعد عبر السهل الفسيح.

وخيّمنا على مسافة من عكا بانتظار وصول الجمال. وزارنا الشريف ووعد أن يلحق بنا فيها بعد خشية أن يحول سعيد بك دون خروجه إذا ما عرف باتفاقنا معه.

في صباح اليوم التالي أتممنا استعداداتنا بعد أن توافر لنا ستة عشر جواداً وأحد عشر جملاً، وبغلاً واحداً. وقبل أن نبدأ رحلتنا جاءني رسول من سعيد بك يقول أنه قدم لي جميع الخدمات التي طلبتها منه. وكان جوابي أنه لم يفعل شيئاً لمساعدتنا، وأنه يحاول ابتزازنا، وانني أحطت حكومة بلادي ووزيرنا المفوض في استانبول، ورئيسه المشير في بيروت - علماً بذلك.

الاتفاق مع عقيلة

ومضينا نسير في سهل عكا الذي تزينه الأزهار. وكنت وعدت عقيلة أن أزوره في معقله الجبلي، إذا استطعت، لذلك وجدت بانتظارنا أحد رجاله وقد أقبل لكي يكون دليلاً لنا. وسرعان ما شاهدنا قرية عبلّين فوق قمة ربوة عالية. وبدت القرية لنا كأنها عرين الأسد لا يمكن الدخول اليها. لقد سبق أن حذرني البعض، ولم أكن أعرف عن عقيلة الا أنه زعيم عربي جسور. لم أكن واثقاً من حسن نيته، ولكنني قبلت دعوته لاهتمامي باقناعه كي يرافقنا. كان رفاقي ومعهم الزورقان قد سبقونا. وعلى سبيل الاحتياط أرسلت إلى مساعدي الملازم ديل، رسالة مع أحد القرويين أقول له فيها: انه إذا حدث أنني لم ألحق به، فإن عليه أن يمضي قدماً في تنفيذ أهداف البعثة، ويتولى القيادة مكاني.

وأخذنا نصعّد في طريق وعرة حتى وصلنا إلى القرية، فوجدنا أنها تشرف على منطقة واسعة حواليها، حتى أن المرء ليرى دير الكرمل منها. ولكن القرية لم تكن كما توقعت، فبيوتها مبنية من الحجارة الغشيمة دون أن يكون ملاط بينها، وهي ذات سقوف من الطين، وكانت هناك أفران عديدة تحيط بالقرية من أجل صنع الخبز ـ ووقودها من بعر الجمال الجاف.

بعد فترة انتظار دُعيتُ للدخول إلى غرفة واسعة، فوجدت الشريف وعقيلة وعدداً من المسلحين العرب. وسادت فترة صمت لأنني لا أعرف اللغة ولأنني كنت أرسلت الترجمان مع القافلة. كان هناك نحو خمسة عشر رجلاً في الغرفة. ووجهتُ نظراتي نحو الشريف لعله يقول شيئاً، ولكن بدا لي أن الشريف يقوم بدراسة البناء الجيولوجي للجمرات المشتعلة فوق تنباك نرجيلته. وتطلعت نحو عقيلة فردّ عليّ بنظرة خالية من الود. وبدا لي الوضع باعثاً على الحيرة، وعلى الأخص لأن احداً لم يقدم لي فنجان القهوة وغليون التبغ، اللذين يعبّران عن الترحيب في منازل العرب. ودار بين القوم حديث، وبدا لي أنهم مختلفون في شأني. واستبدّ بي القلق فنظرتُ إلى ساعتي، وللحال توقف الحديث وطلب الشريف أن يرى الساعة، وتجمهر الآخرون حولي. لم تكن الساعة شيئاً غريباً بالنسبة للشريف ولكن الآخرين أخذوا يتفحصونها باستغراب. وفي تلك الأثناء سحبتُ سيفي من غمده، وأنا أشعر بالسرور لوجوده في قبضة يدي، ثم أخذت أشير إلى كيفية تركيب مقبضه. وأخذوا يتفحصون السيف دون أن أدعه يفلت من يدي. وسمعت صوت هتاف، وألقيت نظرة سريعة، ثم نهضت ومددت ذراعي أشير إلى سفح التلة وأنا أصرخ: جمال، جمال. كانت قافلتنا تبدو للعيان. وحدث تبدّل واضح في موقف القوم. لم أستطع أن أصل إلى تفسير لما حدث. ربما كانت شكوكي وهماً. ومهما يكن من أمر فإن فوهة البندقية الضخمة والمتاع والبنادق التي يحملها رفاقي، أعطتني إحساساً بالحماية والأمان.

على أن ذلك الوضع المربك لم يجعلني أتردد في عقد اتفاق مع عقيلة، يماثل في شروطه اتفاقي مع الشريف. وقد تفاهمنا على كل ذلك بلغة الأشارات.

فيما بعد عرفت السبب الكامن وراء برودة استقبالي. كان بين الحضور أحد رجال سعيد بك، وقد جاء يعرض أن ينضمَّ الينا، ولكن الآخرين رأوا أن العرض لم يكن مخلصاً، بل ساد لديهم الاعتقاد بأن الرجل انما جاء بقصد الاستطلاع. ومن هنا سبب استقبالهم لي ببرودة.

أسرعتُ للحاق بالقافلة بينما كانت تمرّ في محاذاة القرية (كانت أصلاً قد سلكتْ طريقاً غير التي سلكتُ أنا) على أن يلحق بنا حلفاؤنا ومعهم عشرة من الرجال المسلحين بالحراب. وقد برهن هؤلاء أنهم فرسان أشدّاء. وسرنا ببطء نظراً لوعورة الدروب. وسرعان ما لحق بنا أدلاؤنا، بعد أن ارتدوا جميعاً ملابس البادية من عباءات سوداء وكوفيات صفراء وعقل حيكت من وبر الجمال، وكانوا يتسلحون برماح طول الواحد منها ١٨ قدماً [أي أكثر من خمسة أمتار!]، وكانت بعض تلك الرماح تزدان بريش النعام.

في المساء حططنا رحالنا، وأنخنا جمالنا (نحو ثلاثين) ونصبنا الخيمتين، ورفعنا الراية الأمريكية، بينما وقف ضابط وملاّحان للقيام بواجب الحراسة. وعلى مقربة منا نصب حلفاؤنا خيمتهم الزرقاء، وربطوا خيولهم وغرسوا رماحهم في الأرض ـ فكان منظراً متعدّد الأشكال والألوان.

وأستأنفنا سيرنا في صباح اليوم التالي (٥ نيسان). كانت هناك ثلاثة جمال لجر كل زورق، وكان هناك اثنا عشر جملاً، يتم الاستبدال من بينها كل نصف ساعة لجر الزورقين. كانت جماعتنا تتألف من ستة عشر رجلاً، ومن جملتهم الترجمان والطباخ، بالإضافة إلى أحد عشر جملاً تحمل امتعتنا ومعداتنا والخيمتين. أما الشريف وعقيلة آغا الحاسي فقد كان معهما خمسة عشر بدوياً، جميعهم يركبون الجياد الأصيلة.

عند الضحى وصلنا إلى خان الدليل، وهو متهدم الآن، وإلى جانبه بئر ماء. ومن هناك شاهدنا قلعة صفورية على رأس ربوة عالية. إنها القلعة التي أنشأها الرومان وكانت تنافس طبريا ذات يوم، وعندها تجمّع الصليبيون قبل معركة حطين القاضية.

كل يوم كان أحد أتباع الشريف أو عقيلة يأتي الينا بنعجة أو خروف على سبيل الهدية، وكنا بطبيعة الحال نقدم بدلًا عادلًا عن الهدية. فيا لها من عادة حسنة أفضل بكثير من الدخول في المساومة. وفي أثناء سيرنا كان رفاقنا يتسابقون أحياناً على خيولهم. وكان الشريف يمتطي صهوة فرس رمادية اللون تساوي آلافاً كثيرة من القروش، وهو يرتدي عباءة ثمينة مطرزة بالفضة. أما الشيخ عقيلة وأتباعه فقد كانوا يركبون أفراساً كستنائية الألوان، وكان بين أولئك الأتباع اثنان من سودان النوبة يمتاز أحدهما بقامةٍ فارعة تشبه قامة هرقل، وفي جسده آثار جراح عديدة.

لم نلبث حتى وصلنا إلى مقربة من قرية ترعان، وهي مركز تجمّع للسكان المزارعين. ومنذ مغادرتنا عكا لم نمر بمنازل منفردة خارج هذه القرى المسوّرة. والواقع أن ترعان أشبه ما تكون بالقلعة، مع أنها قرية صغيرة ومنازلها عادية. وبعد أن ابتعدنا قليلًا نصبنا خيامنا عند طرف بستان زيتون. وكان تحتنا السهل الذي دارت فيه معركة فاصلة بين السوريين والفرنسيين. وذهبتُ مع الشريف وعقيلة إلى القرية تلبية لدعوة من قبل الشيخ، وهناك شربنا القهوة. وكنت منذ البداية قد رتّبت مع جماعتي أن نقتصر على وجبتي طعام في اليوم، والغاية من ذلك الاقتصاد في الوقت والنفقة، وتعويد أنفسنا على احتمال الحرمان الذي سنواجهه. والوجبة التي قرّرنا الاستغناء عنها هي وجبة الغداء. ولم يعترض أحد على ذلك أو يتذمر. وفي المساء ذهبت أنا والدكتور اندرسون إلى خيمة رفاقنا العرب، حيث كانوا قد ربطوا خيولهم التي كانت تصهل صهيلًا مرتفعاً. فيا له من منظر قَبَلي. وجلسنا على البسط في الداخل، وشاهدنا النار وحولها أولئك الرجال البدائيون، الذين كانوا يذكّروننا بهنود بلادنا. ثم جيء بطعام العشاء وهو يتألف من شاة كاملة فوق الأرز. وتناولنا الطعام دون شوك أو سكاكين.

طبريـــا

في اليوم التالي (٦ نيسان) مررنا إلى الشمال من قرية لوبية، ولم نشاهد هنا أشجاراً كثيرة ولكن الحقول كانت مزروعة بالقمح، كما كان هناك

قرويون يحرثون الأرض هنا وهناك. ثم وصلنا إلى نبع ماء عند الطريق الرئيسية الممتدة من القدس إلى دمشق، وهناك شاهدنا عدداً من الحجاج المسيحيين ومعهم خيولهم المتعبة، ينتظرون دورهم للاستقاء من الماء.

ومضينا في سيرنا لا نشاهد شجرة أو حتى شجيرة، مع أن الأرض كانت كاسية بأعشاب الربيع الزاهية. ثم أطللنا على بحيرة طبريا فبدت لنا مياهها كالمرآة تلتمع تحت أشعّة الشمس، والتلال الجرداء تحيط بها وتشرف عليها. فيا للذكريات التي تثيرها هذه البحيرة في نفوس المسيحيين. وطبريا بلدة مسوّرة، ولكن الخراب ما يزال ماثلاً فيها من جراء زلزال ١٨٣٧ الذي أهلك قسماً كبيراً من أهلها. لم نشاهد بيتاً أو شجرة خارج الأسوار، ولكن الحقول حولها كانت مزروعة، وبالقرب من بوابتها المتصدعة شاهدنا خيام مفرزة صغيرة من الجنود الاتراك.

وأستأجرنا جانباً من نزل في البلدة يملكه أحد اليهود. وهناك عرض علينا صاحب النزل ورقة كتبت عليها عبارات تحمل ايحاء غير مباشر، وهي:

أرجو من السادة الذين يزورون منزلي أن يتلطفوا قبل رحيلهم باعطائي ما تجود به نفوسهم.

طبريا ٧ نيسان ١٨٤٥

وكانت هذه العبارة مكتوبة باللغات الانكليزية والايطالية والاسبانية.

ثم فوجئنا بحضور الشريف وعقيلة، لأننا كنا تركناهم في لوبية. ولولا شعورهم الطيب تجاهنا ما كان بالإمكان أن يدخلوا إلى منزل رجل يهودي. وجاء ثلاثة من رجال الدين اليهود يزوروننا، فعانقوا الزائرين المسلمين بالأسلوب الشرقي الأصيل. وزارنا أيضاً حاكم طبريا الذي كان واحداً من أقرباء عقيلة.

لم يكن هناك شك في المقام الرفيع الذي كان يتمتع به الشريف هزاع

وابن أخيه الشريف مساعد، وهذا الأخير شاب جذاب انضمّ الينا قبل يومين. وكان الحاكم عربياً ذكياً ذا لون مصري أسمر. ولم يلبث الشريفان وعقيلة حتى ذهبا لينزلا ضيوفاً عنده.

في المساء تناولنا وجبة طعام من سمك البحيرة. وفي اليوم التالي رددتُ الزيارة للحاكم فاستقبلني في مكتبه الرسمي حيث كان يفصل في القضايا بكل البساطة وفورية الاجراء التي اشتهر الشرق بها. وجاءت أم تشكو بان ابنها ضربها، وبعد أن سمع الحاكم أقوالها وأقوال ابنها أصدر قراره بسرعة، واقتيد الولد الشقي خارجاً كي يلقى العقوبة التي استحقها. وجاءت امرأة تشكو بأن زوجها ضربها، واستمع الحاكم إلى أقوالها وأقوال زوجها، واستمع إلى أقوال الشهود، وبدا أن البيّنات ضد الزوج، فأمره الحاكم أن يقبّل جبينها في الموضع الذي تلقى الضربة من يده. [أي ان الحاكم أصلح بينهما: والصلح سيد الأحكام!].

لاحظت أن اليهود هنا لا يهتمون كثيراً بالتجارة كما اعتادوا أن يفعلوا. وكما قيل لي فإن اهتمامهم الوحيد ينصرف إلى الصلاة وقراءة التلمود. ولليهود هنا كنيسان. وفي البلدة ٣٠٠ عائلة منهم أي ما يقارب ألف شخص. أما المسلمون فيتراوح عددهم بين ٣٠٠ و ٤٠٠ شخص، بينما يوجد اثنان أو ثلاثة مسيحيين من الناصرة.

وفي أثناء وجودنا في طبريا تسلمت رسائل من القدس كان بينها فرمان (بيرولدي) من الباشا هناك وهو مؤرخ ٦ نيسان ١٨٤٨، ويتضمن أمراً إلى شيوخ العرب بتقديم ما يلزم من مساعدة لنا.

وفي تلك الأثناء كنا قد تمكنا من نقل الزورقين عبر التلال الوعرة إلى شاطىء البحيرة، ثم أنزلناهما في الماء بحضور جمهور من المتفرجين، ووقفنا نشاهدهما يبحران في ماء البحيرة مع الملاحين باتجاه الجنوب، إلى المكان الذي يخرج منه نهر الأردن نحو وادي الأردن والبحر الميت.

وزرنا الحمامات ذات المياه المعدنية الحارّة، ثم زرنا قرية المجدل التي

تضم نحو ٤٠ عائلة من الفلاحين.

ويكثر الذباب في بلدة طبريا، وقد شاهدنا من سوء النظافة هنا ما لم نشاهد في أي مكان آخر، حتى أن رفاقنا من البدو يعتبرون نماذج للنظافة إذا قورنوا بسكان هذه البلدة، وخاصة اليهود منهم.

وللحكام في هذه البلاد أسلوب في التعامل يتسم بالبت الارتجالي البعيد عن الشعور الرقيق. وقد حدث عندما كنا في عكا وطلبنا من سعيد بك أن يساعدنا في الحصول على عدد آخر من الجمال ـ أن رجلاً من فلاحي الناصرة كان قد وصل إلى عكا ومعه جملان محملان، فما كان من رجال الحاكم الا أنهم أرغموا الرجل المسكين على طرح أكياس القمح على قارعة الطريق وساقوه مع الجملين لكي يساعد في نقل حاجياتنا. لم نعلم بهذا التصرف الظالم الا بعد أن تم العمل وأخذنا نسلم أصحاب الجمال أجورهم، وعندئذ عملتُ على التعويض على الرجل الناصري لقاء ما لحق به من ضرر.

وفي طبريا ابتعتُ زورقاً قديماً بمبلغ ٦٠٠ قرش (نحو ٢٥ دولاراً) بقصد الاستعانة به على التخفيف من حمولة الزورقين المعدنيين، ولكي نحمل فيه خيمتينا عند عبور البحر الميت.

كان الطباخ مصطفى يمتاز بروح فكاهة ومرح لا تفارقه في جميع الأوقات والظروف. هو عربي أصيل، يعرف القليل من الانكليزية، ويعرف كيف يتعامل مع الناس على اختلاف مراتبهم وأذواقهم.

الأمير الغـــزاوي

وفوجئنا في الصباح (يوم ١٠ نيسان) بزيارة أمير القبائل التي تقيم على ضفاف الأردن العليا. انه الأمير ناصر عرار الغزاوي. لقد بلغته أنباء مجيئنا فجاء يدعونا كي نحل ضيوفاً عليه. انه رجل طويل القامة متين البنية أكثر من عامة أبناء قومه، له عينان سوداوان لّماعتان ولحية كثة سوداء، أما لباسه

فلم يكن يختلف كثيراً عن ألبسة أتباعه الكثيرين. وقبلنا الدعوة، فانضم وجماعته إلى القافلة.

وزعنا المهام فيما بيننا. هذا يقوم بوضع الرسومات وكتابة الملحوظات. وهذا يجمع نماذج من الحيوانات والنباتات، وذاك يسجّل انطباعاته وخواطره. وأخذت أنا على نفسي تسجيل قياسات النهر من حيث العمق والحرارة وسرعة جريان الماء وما ينمو حول النهر من شجر ومزروعات وأنواع الطيور. ثم قسمنا أنفسنا إلى جماعتين: احداهما تعبر النهر في الزورقين والثانية تسير في محاذاته على جانب الضفة. وكان الترتيب أن يكون الشريف وعقيلة وعشرة من البدو مع الجماعة التي تسير إلى جانب النهر. أما أنا فقد أخذتُ على نفسي مسؤولية السير مع مجرى النهر في أحد الزورقين.

وأبحرت الزوارق الثلاثة باتجاه الجنوب: وكان كثيرون من أصدقائنا البدو قد استبدلوا حرابهم ببنادق ومسدسات. وفيما عدا عقيلة لم يحتفظ أحد بسيف. أما الشريف فإن مقامه الديني كان حائلاً بينه وبين حمل السلاح. وكان عدد الخيالة، بما فيهم الأمير الغزاوي وجماعته، ثلاثين رجلاً. وسار هؤلاء في صف طويل مهيب، بينما مضى أحد عشر رجلاً في المقدمة، والملازم ديل وضباطه في ألبسة افرنجية، في المؤخرة.

قبائل الشمـــال

عند العصر خرجنا من البحيرة، وسرعان ما بدت لنا قرية سمخ على ربوة إلى الجنوب. ومن قواربنا كنا نرى القافلة أحياناً وتغيب عن أنظارنا أحياناً أخرى. ومررنا بعد ذلك بجسر سمخ المتهدم، وكانت حجارة الجسر تؤلف عائقاً فاعتزمت أن اقتحم العائق بالقارب النحاسي عبر فجوة صغيرة. ومررت بالقارب بنجاح على الرغم من قوة اندفاع الماء. وفي تلك الأثناء كان عقيلة يقف على ركبة احدى قوائم الجسر يشير إلى الفجوة، وهو يرتدي عباءته الخضراء وطربوشه الأحمر وجزمته وسراويله البيضاء.

قافلة الرحلة ـ وتبدو الجمال وهي تجر الزورق (عن كتاب لينش)

بعد ذلك أحكمنا ربط القوارب إلى جانب مغارة، وغادرنا الماء إلى الخيام التي ألفيناها منصوبة فوق تلعة مرتفعة تشرف على النهر والجسر. وكانت لدينا هذه المرة أربع خيام ذات ألوان مختلفة. وقد عرفنا أن شيخ قرية سمخ يقوم بزراعة مساحة من الأرض مقابل استضافة المسافرين الذين يمرون من هناك، بتقديم وجبة من الطعام لهم والشعير لخيولهم. واعتزم رفاقنا البدو أن يذهبوا الى مضافة الشيخ تطبيقاً للشرط اياه، فعبروا مخاضة النهر واحداً بعد آخر فوق ظهور خيولهم، وهم على ثقة من أن العشاء سيكون ذبيحة كاملة مع الأرز.

في صباح اليوم التالي تناولنا طعام الافطار باكراً، ثم مضينا إلى الامام: القوارب في النهر والقافلة في البر. وفي طريقنا شاهدنا الحقول مزروعة على الجانبين. اجتزنا بنجاح مسافة ينحدر النهر فيها بسرعة وقوة. وعند العصر وصلنا إلى بناء طاحونتين نزعت الآلات والعجلات منها فلم يعد أحد يستعملها. وشاهدنا أراضي تصلح للزراعة بعضها ينمو فيه نبات القمح والبعض الآخر غير مزروع. ثم مررنا بقرية العبيدية على مرتفع من الأرض، وبدا لنا أن جميع أهلها من رجال ونساء وأطفال هرعوا للتفرج علينا. ولم نلبث حتى وصلنا إلى خرائب قرية الدلهمية وقرية البقعة المقابلة لها. وفي هذه الناحية يقيم مصريون في القرى القريبة من النهر، إذ كان ابراهيم باشا أقطعها لهم من أجل التصدي لاعتداءات البدو. وما دام أن الجيش المصري انسحب من البلاد فإن المصير الذي صارت اليه هذه القرى لا يبعث على الاستغراب. فالبدو في غاراتهم ينهبون ما ينتج القرويون من حبوب وما يربون من ماشية، فلا يجد هؤلاء مفراً من هجر قراهم بحثاً عن أمكنة أخرى يتوافر فيها الأمن.

هنا أنقل عن ملاحظات كتبها الملازم ديل الذي كان يسير مع القافلة :

«مررنا بخمسة من بيوت الشعر يقيم فيها فلاحون (وهم غير البدو الرحّل الذين يعتبرون العمل في الأرض غير لائق بالرجال)! . وقد شاهدنا عدداً من الأغنام وعجلاً. واعتذرنا لعدم امكاننا قبول الدعوة للحلول

ضيوفاً عليهم، ولكننا تقبلنا وعاء من حليب النياق فوجدناه منعشاً للغاية. وهرع أهل قرية العبيدية ليشاهدوا القافلة. ثم مررنا بخرائب قريتين متقابلتين. وبعد ذلك نصبنا خيامنا وأخذنا ننتظر وصول القوارب عبر مياه النهر المزبدة».

بعد العشاء جاء الأمير ناصر وحاشيته إلى الخيمة، وقال أنه على استعداد لمرافقتنا حتى بحر لوط، وقال انه يعرض هذا من منطلق الشعور بالمودة نحونا، أما رجاله فيتوقعون أن ينالوا أجوراً. قلتُ له انني مرهق ولا أستطيع بحث الموضوع الآن. وبالفعل ألقينا بأنفسنا على الأرض وإلى جانب كل واحد سلاحه وحزام عتاده. كان يجب أن نبقى دائماً على حذر، مع أنني كنت شديد الرغبة في أن ننفّذ مهمتنا دون اراقة دماء. ولم نلبث ان استغرقنا في النوم، على الرغم من جمال الليل وأضواء القمر ووحشية المنظر بين التلال ومياه النهر المزبدة، بل على الرغم من مواقد النار المشتعلة وصوت الشاعر البدوي يغنّي أشعاره الحزينة على أنغام ربابته.

في صباح اليوم التالي مضيت لمشاهدة نهر اليرموك وهو يلتقي بنهر الأردن. ولحق الشريف بي وهو يصيح غاضباً بعدد من الأشخاص كانوا يقتربون على ضفة النهر. وتراجع هؤلاء. كان الشريف يلقي أوامره لهؤلاء الناس كأنه حاكم ذو سلطان. وكانت ضفتا النهر حافلتان بنبات البسباس ذي النوّار الأصفر، بين أشجار الدفلى والصفصاف والطرفاء، وعلى مبعدة منها أشجار البلوط والأرز. حقاً كان المنظر فائق الروعة.

وحدثني عقيلة عن القبائل التي كنا نمر بأراضيها فقال: انهم
(١) البشاتوة، حوالي جسر سمخ وهم يعدّون ٢٠٠ رجل محارب
(٢) العبيدية، على بعد ساعة وراء النهر وهم يعدّون ٥٠٠ رجل
(٣) الصقر، الذين كنا نخيم الآن في أراضيهم ويعدّون ٣٠٠ رجل.

كنا هناك على مقربة من أم قيس (جدارا القديمة) التي يُقال أن فيها آثاراً رومانية عظيمة ما تزال سليمة من الأذى. ولما كان من جملة اهتماماتنا

دراسة البنية الجيولوجية لهذه المنطقة، فقد كلفت الدكتور أندرسون بالذهاب اليها ومعه حرس من رجالنا.

كلفت الشريف وعقيلة أن يبلغا الأمير بأننا لا نحتاج الى حماية. اننا ندفع أجور الرجال الذين يعملون كأدلاء لنا أو يقدمون لنا خدمات أخرى، ولهذا فإننا لا نريد من الأمير أن يتكبّد هو ورجاله مشقة المجيء معنا بعد أن نغادر منطقة أرضهم. واقترح الشريف وعقيلة أن نقدم هدية للأمير، فقدمنا له عباءة وكوفية. وكنا قد ابتعنا في عكا بعض الألبسة العربية لمناسبات مثل هذه المناسبة. والعادة في هذه البلاد أن تُقدم الهدايا للشيخ، أما اتباع الشيخ فيتم دفع المكافآت لهم نقداً.

وفي هذه الأثناء تحطم القارب الخشبي على الرغم من كل محاولاتنا. ويعود السبب إلى كثرة ارتطامه بالصخور.

وأقبلنا على جسر المجامع، فرأينا هناك بقايا خان قديم فوق قمة احدى التلال. وبدا لنا أن الخان كان صرحاً متين البناء، ولا بدّ أن دماره كان نتيجة زلزال. أما الجسر فيصل بين ضفتي النهر هنا، وهو من بناء المسلمين وله أربع قناطر أحداها كبيرة من تحت وست قناطر أصغر من فوق. وشاهدنا عدداً من بيوت الشعر، ما بين عشرين إلى ثلاثين بيتاً، وبالقرب منها جمال ترعى. وكان هناك رجال ونساء، وأطفال يلعبون.

الرحلة مع نهر الأردن

بعد أن اجتزنا الجسر نصبنا خيامنا في أرض مرتفعة تشرف على الخان والجسر. وهذا الجسر تمرّ به طريق نابلس ـ بيسان ـ دمشق. وقد علمنا أن بيسان خربة في الوقت الحاضر.

كان الشريف الكبير وعقيلة يزوراننا دائماً باستمرار، وكنا نستشير الشريف بالنظر لحكمته وبعد نظره. أما عقيلة فهو المحارب الجسور والرائد الممتاز. لم نكن نملّ قط من رفقة هذا الرجل الجذاب. لقد كان أكمل نموذج

رأيناه للرجولة وبوجهه المليح التقاطيع. فمن يصدق أنه كان القائد الصارم لثورة؟ ومن يصدق أن عينه الضاحكة مدّت نظرها من قلعته فوق التلة نحو جنود الباشا في السهل، بينما كان ذهنه يقلّب الرأي في كيفية إعمال السيف فيهم ونهب متاعهم؟ ومن يصدق أنه هو الرجل الذي يبحث في شعاب التلال عن الفلاحين المتخلفين وقطعانهم؟ وذراعه التي تبدو بلا أعصاب، هي اليد التي ترفع السيف بقوة تحمل معها الموت. وهو بكل ما يبدو عليه من لين، هو نفسه الذي تولّى قيادة عصابة صغيرة مستميتة ضد صولة السلطان وأرغم حاكم عكا على التفاوض معه وابتياع أمن المنطقة برتبة رفيعة ومعطف تشريفات قرمزي اللون.!!

لم يكن عقيلة متميزاً بصفاته البدنية فحسب، بل ان ذكاءه كان فوق المتوسط. وعلى الرغم من بداوته فقد كان يتحلى باسلوب السادة وأحاسيسهم. والحقيقة اننا لم نعرف اسلوباً في المخاطبة والتعامل أكثر تهذيباً وجاذبية من اسلوبه. كان الشريف هو (نسطور) الجماعة، أما عقيلة فكان (آخيل) فيها[1].

وعندما سأل أحدهم عقيلة عن السبب الذي يحول بينه وبين الاستقرار في أرض من الأراضي الخصبة في منطقته، حتى لا يبقى اعتماده قائماً على النهب والسلب، أجاب قائلاً: هل تريد أن أجلب العار على نفسي بأن أعمل في حراثة الأرض مثل واحد من الفلاحين؟ وعندما قلت له أن كثيرين من أعظم رجال بلادنا يعملون في فلاحة الأرض، نمّت ابتسامته عن اشمئزاز لم نرَ مثله قط، على ملامح وجهه.

في هذه الاثناء عاد الدكتور اندرسون من زيارته لأم قيس، وأفاد أنه عَبَرَ نهر اليرموك من شريعة المناذرة فوق (جسر الأحمر) الذي كان في حالة جيدة. وفي أثناء تجواله بين معالم الآثار، لم يجد سكاناً في الموقع. وقال أنه شاهد من بعيد قرية صَمَد، وأن عدداً من الفلاحين ما يزالون يقيمون فيها

---

١ - في حروب طروادة، كان نسطور الرجل الحكيم الذي يستنير اليونان برأيه ومشورته، بينما كان آخيل أعظم فرسانهم. (المترجم).



الشريف هزاع (عن كتاب لينش)

لكونهم يدفعون أتاوة سنوية لحماية أنفسهم من اعتداءات القبائل البدوية. كما شاهد من بعيد بيوت شعر لبدو السرو.

وعلمنا (١٣ نيسان) أن محمد باشا الحاكم العسكري لمنطقة نابلس يخيم في مرج ابن عامر، غير بعيد عن بيسان، فأرسلت الملازم ديل لزيارته، على سبيل اظهار احترامنا له، لأن المسؤولين الاتراك كانوا ـ باستثناء سعيد بك ـ لطفاء معنا.

ومررنا من قبالة قرية كوكب الهوا، وهي على مرتفع سامق من الأرض. ثم وصلنا إلى زور الباشا، وهو أرض قبيلة الغوارنة (اتباع الأمير ناصر)، ويعدّون ٣٠٠ رجل محارب. وقد شاهدنا كثيرين من العرب على الشاطىء يصرخون بأصوات عالية، وهم من جماعة الأمير. بعد ذلك مررنا بمنطقة قبيلة صخور الغور وهم يعدّون ٥٠٠ رجل. وفي أثناء سيرنا في النهر شاهدت عقيلة، حارسنا العبقري، على قمة ربوة مرتفعة. وشاهدنا أرضاً مزروعة بالقمح والشعير، وكانت المزروعات تبدو وقد أحصدت في هذا الوقت المبكر من العام. وبلغنا إلى مضارب تضم ثلاثين أو أربعين بيتاً من

الشعر. وقدّم لنا هؤلاء القهوة وغلايين الدخان، ثم جاءوا بباطية خشبية كبيرة مليئة بالأرز المضمخ بالزبدة، فأكلنا حتى شبعنا.

فيما بعد انحدرنا إلى سهل فسيح وهناك رأينا بيوت شعر كثيرة. أما الملازم ديل ومعه المترجم أميوني، فقد وصلا إلى حقول القمح التي يملكها الأمير، وهي تغطي سهل بيسان المائل. وتركا خرائب بيسان جانباً إلى أن بلغا السهل الرائع، وهناك شاهدا خيام الباشا العديدة، وحواليها ألف جواد ترعى العشب. واستقبل الباشا الملازم بلطف. وقال له انه كان ينوي مطاردة عصابة من البدو باتجاه الجنوب، ولكنه أرجأ ذلك خشية أن يعمد رجال العصابة إلى مهاجمتنا. وقدم الباشا للملازم قهوة ودخاناً وبرتقالاً ثم أصر أن يرسل معه عشرة من فرسانه كي يرافقوا البعثة. ومرّ الملازم في طريق عودته ببيسان، فبدا له أن أكثر أبنيتها تعود إلى أيام المسلمين وكذلك الطواحين والخانات. وشاهد الملازم على القمة بناء كبيراً كأنه القلعة، ولاحظ أن البدو أقاموا قرية لهم قريباً منه. [هل هي قلعة كوكب الهوا؟].

أصرّ الأمير ناصر أن نتناول طعام العشاء في ضيافته، ولم يقبل اعتذاراً منا. وتقرر أن يذهب البعض منا لتلبية الدعوة وأن يبقى البعض الآخر لحراسة المعسكر. وعند وصولنا إلى مضاربه شاهدنا امرأة تصرخ وتبكي بحرارة عند مشاهدتها عقيلة. تبين أن عقيلة كان قتل زوجها في غارة شنّها قبل سنة. وإذا كان عقيلة قد شعر بالندم، ولا بدّ أنه شعر بذلك، فقد كان يملك قدراً عظيماً من السيطرة الوحشية في أعماق نفسه، ولذلك لم تبد عليه أية مشاعر للندم.

وابتهج الأمير بزيارتنا، وعلى الأخص لتشريف سبط النبي إلى بيته. وعرض قطعان الغنم التي يملكها، وأبقاره (وهي أول أبقار نشاهدها في وادي الأردن) وماعزه وإبله وأطفاله. وعند غروب الشمس فرد شاب يرتدي عمامة فراءه على الأرض ووقف يؤذن داعياً المؤمنين للصلاة. ونهض الشريف وأربعة آخرون واصطفوا وراء المؤذن وأخذوا يصلون. وبعد قليل وصل الفرسان العشرة الذين أرسلهم الباشا الينا، في الوقت الذي جيء فيه

بالطعام. كانت المأدبة تتألف من باطية ضخمة من الخشب مملوءة بالأرز واللحم للبدو، وباطية ثانية أصغر حجماً لنا. كان القوم قد ذبحوا الشاة وسلخوها أمام الخيمة. وأخذ الجميع يستعملون أيديهم لتناول الطعام. وعلى الرغم من شدة جوعنا فقد كان من المستحيل علينا أن نأكل، لأننا شاهدنا الشاة المسكينة تُذبح أمامنا، وساورتنا الشكوك في مدى نظافة أولئك الذين قاموا بصنع الطبيخ. وكان أكثر ما استطعنا أن نفعل هو التظاهر بأننا نأكل.

في الصباح (١٤ نيسان) أفقنا من النوم فوجدنا ضفة النهر حاشدة بأولئك الغوارنة الذين اصطفوا يتفرجون على هؤلاء الغرباء الذين اخترعوا هذه الأدوات العجيبة،وهي الأدوات التي تمثّلت لهم في القاربين وفي المسدسات ذات الست عيون. أما نحن فقد مضينا في النهر تسوق سرعة جريان الماء قاربينا دون أن نحتاج إلى بذل مجهود كبير في استعمال المجاديف. وفي تلك الأثناء شاهدنا آثار أقدام نمر فوق أرض الطمي المحاذية للماء عندما جاء كي يروي ظمأه. وأختفى أفراد القافلة عن أنظارنا فترة من الزمن فساورتنا المخاوف من أن الشمس ستغيب دون أن نلتقي بهم لكي نبيت معاً، ولكن ما كان أكثر سرورنا عندما رأينا فارساً على رأس تلة مرتفعة وعرفنا انه عقيلة المغوار. لقد اجتزنا هذا اليوم أراضي الأمير ناصر الغزاوي، التي تمتد على مسافة ساعتين، ولكن تعرجات النهر فيها جعلتها تستغرق أربع ساعات. والقبيلة تعد ٣٠٠ رجل محارب. أما أراضي الأمير فتفوق في خصوبتها واتساع مساحتها أراضي البعض من ممالك أوروبا الصغيرة. ولاحظت أن الأمير وعدداً من أفراد قبيلته ذوو شعور مجعدة وألوان سمر، مع أن أخاه وبعض الأفراد الآخرين ذوو ألوان فاتحة. وربما تعود سمرة لون الجلد إلى شدة حرارة الشمس في الغور.

في الليل جاء الشريف وعقيلة إلى خيمتنا للتشاور حول مسيرة يوم غد. كان الشريف هو المشير وصاحب الرأي بين رفاقنا بينما كان عقيلة رجل الحرب. وكان من رأيهما اننا يجب أن نكون على حذر من القبائل التي سنمرّ في أراضيها، وأن من الضروري بقاء الجماعتين في النهر والبر على اتصال وثيق. وقالا أن من الأفضل أن تسير مجموعة البر على الضفة الشرقية للنهر.



الشريف مساعد والأمير ناصر الغزاوي وشيخ بني صخر (عن كتاب لينش)

ومررنا بعدة أودية: وادي الحمّام ووادي الملح ووادي عجلون ووادي الفارعة. وشاهدنا جبال السلط والبلقاء على مبعدة. ان قبيلة الفارعة تعد مائة رجل محارب وأراضيها تمتد على ضفتي النهر لمسافة ساعة. ومررنا أيضاً بمنطقة صخور الغور وهي القبيلة التي تعدّ مائتين من الرجال. ولما كان عقيلة صديقاً لهذه القبيلة فقد جاء بعضهم الينا قائلين أن ما يقارب مائتي

بدوي هاجموا قريتهم في الليلة الفائتة، وقتلوا عدداً من رجالهم ونهبوا معظم ما لديهم من خيل وبقر وشياه[1].

في هذا اليوم شاهد عقيلة وجماعته، على الضفة الغربية من النهر، شجرة دلب يستظل بظلها رجلان مسلحان. وأسرع أربعة من رجال عقيلة نحو هذين، ولكنهما أسرعا بالفرار على جواديهما. هذا الحادث أثار اهتياج الجماعة أكثر مما ينبغي. ولكننا لم نكن الا غرباء في براري غامضة غشيمة وبين قبائل بدائية اعتادت على الحروب، حيث لا سلامة أو نجاة من أخطار السلب والقتل الا بقوة العدد ومضاء السلاح، وحيث يندفع الرجل عندما يلتقي برجل آخر لا يعرفه إلى وضع يده بحكم الغريزة على مقبض سيفه أو زناد بندقيته. وتبين فيما بعد أن الرجلين من قبيلة بني صخر كانا في طريقهما إلى بيسان.

وعبر رفاقنا وادي عجلون العميق، وكان سيل الماء فيه يجري بحجم لا بأس به، وهناك التقوا ببعض المزارعين العرب فتقدم أحدهم من الشريف وقبّل يده. ثم شاهدوا قرية ابو عبيدة من بعيد، وهي تضم ضريح أحد قادة المسلمين (أبو عبيدة). وبعد ذلك وصلوا إلى حقول واسعة تكاد تنضج مزروعاتها من القمح والشعير.

وبعد موهن من الليل سمعنا حديثاً مشوقاً دار بين عقيلة وناصر: فقد حدث في السنة الفائتة أن عقيلة كان ثائراً ضد الحكومة وقام على رأس اتباعه من البدو بغارة على هذه السهول واستاق عدداً كبيراً من الخيل والبقر والشياه، ومن جملتها قطعان ناصر نفسه. والواقع أنه لم تكن هناك مودة قلبية بين الرجلين منذ لقائهما في طبريا. ووجه ناصر سؤالاً إلى عقيلة: الا يرى أنه ارتكب عملاً بالغ السوء عندما استاق أغنامه؟ وكان جواب عقيلة: انه لم يفعل الا ما تقضي به تقاليد الحرب بين القبائل، لأن ناصر كان عدواً له آنذاك. وسأله ناصر عما فعل بما انتهب، وعلى الأخص ماذا حدث لمهرته

---

١ - يذكر المؤلف في الصفحة ٢٠٢ من كتابه أن عدد الرجال المقاتلين في قبيلة صخور الغور يبلغ ٥٠٠ رجل، ثم يعود فيقول في الصفحة ٢٢٨ أن القبيلة تعد ٢٠٠ رجل محارب.

الأثيرة على نفسه؟ وقال عقيلة أنه ذبح الكثير من الأغنام، وأهدى الكثير منها، وباع البقية، وكذلك فعل بالأبقار والخيول. أما المهرة فقد راقت في نفسه فاحتفظ بها وهي الفرس التي يمتطيها الآن. وبدا أن الأمير كان يعرف ذلك. وبعد أحاديث أخرى اقترح ناصر أن يدفنا ما مضى من أخطاء ويصبحا أخوين. ووافق عقيلة. وعندئذ تعانق الرجلان وأقسما يميناً على الأخاء الدائم.. وسُئل عقيلة بعد ذلك عن الموضوع فقال أن يمين الأخاء ملزمة إلى حد أنه لو حدث أن انتهب مواشي من قبيلة أخرى ثم اكتشف أن تلك المواشي كانت في الأصل للأمير فهو ملزم باعادتها اليه. ثم أعطى مثالاً على ذلك بقوله انه عندما كان في خدمة ابراهيم باشا، كانت هناك تسع قبائل أخرى إلى جانب قبيلته، وانهم في احدى حملاتهم استولوا على قطعان من الغنم كانت حصته منها أربعين شاة. ولم يلبث أن جاء أحد البدو وقال أن بعض تلك الشياه ملك له، وطالب بها على أساس ما بينهما من أخوّة. هنا قال له عقيلة انه لا يعرفه ولم يره من قبل. ولكن الرجل أقسم يميناً وبرهن أن ابويهما كانا قد حلفا يمين الأخوّة. وعندئذ وجد عقيلة نفسه مضطراً لاعطائه الشياه التي طالب بها... من كل هذا بدا لي أن هؤلاء البداة يعيشون الآن المرحلة التي كان يعيشها بارونات انجلترا وفرسان اللصوصية في المانيا، قبل بضعة قرون.

وأخيراً وصلنا إلى موضع لم يزره من الافرنج في القرون الأخيرة سوى ثلاثة من البحارة الانكليز. وقد حدث أن أمتعة أولئك البحارة نُهبت واضطروا أن يفروا عائدين من حيث جاءوا. وفي الليل اجتمع أصدقاؤنا العرب أمام خيمة الشريف الزرقاء، وأخذوا يسهرون في الاستماع إلى قصائد الحب التي كان شاعر عقيلة ينشدها على أنغام ربابته. ومضينا نحوهم لكي نستمتع بهذه الحفلة الرومانتيكية، فنهض الشريف وعقيلة يرحّبون بنا ودعونا للجلوس بينهم، بأسلوب ينطوي على لطف وكياسة لا تفوقهما في ذلك أرفع الحضارات. لقد فُرشت البسط لنا عند مدخل الخيمة، وطُلب إلى الشاعر أن يستأنف أغانيه التي قطعها مجيئنا. وبينما كان الشاعر يشنّف أسماع الحضور، أدار أحد أتباع عقيلة آغا فناجين القهوة علينا، وهو نوبي طويل

القامة أسود اللون كأنه الأبنوس. وبعد أن أُدير غليون الدخان وأخذنا نستعد لمبارحة المجلس، اختطف الأمير ناصر الربابة، وأخذ ينشد احدى القصائد على أنغامها. ونقل ترجمانا مطلع القصيدة فجاءت كما يلي:

في نافذتها، من بعيد،
رأيت حبيبتي البدوية
عيناها تضيئان من وراء قناعها الأبيض
فشعرت عند رؤيتها
انني أكاد أصاب بالذهول

وبدا لي أن الشعر جاء من بلاد بعيدة، لأن البدوية تطل عادة من بيت الشعر وليس من نافذة بيت من الحجر.

وأصبحنا يوم الأحد ١٦ نيسان، فلاحظنا أن أشجار الدفلى أكثر كثافة هنا، كما أن أشجار الطرفاء أكثر ارتفاعاً ونباتات القصب لا يستطيع أحد الولوج بين أجماتها. ثم شاهدنا آثار أقدام نمر وحيوانات مفترسة أخرى. ثم وصلنا إلى مقطع (مخاضة) دامية حيث تمر الطريق من نابلس إلى السلط. هنا نصبنا خيامنا. وفي أثناء الليل شاهدنا الطريقة التي يعدّ بها البدو طعامهم، لقد أُزيح جمر النار جانباً، وفُتحت في موضع النار حفرة عرضها نحو قدمين وعمقها نحو شبر، وأُلقيت في الحفرة قطعة عجين كبيرة، ثم أُزيح الجمر فوقها، وتم تجديد النار عندئذ بمزيد من الحطب، ثم جيء بقدْرٍ كبيرة مملوءة بالأرز ووضعت فوق النار، وأخذ القوم يصبّون في القدر بين فترة وأخرى كمية من السمن، ويحركون الأرز بغصن شجرة. وعندما نضج الطبيخ نقلوا القدر إلى جانب، وأزاحوا جمر النار مرة ثانية وأخرجوا الخبز من الفرن البدائي. وسرعان ما اجتمع القوم كلهم حول الطعام واقتطع كل واحد منهم قطعة من الخبز، وأخذوا يقوّرونه كالملاعق ويغمسونه بالأرز ويأكلون.

في صباح اليوم التالي قلت للأمير ـ بحضور الشريف وعقيلة ـ اننا خرجنا الآن من منطقته وانه لا حاجة لنا به لكي يرافقنا من الآن وصاعداً.

ثم قمت بدفع المبالغ التي استحقت للرجال الذين كانوا يرافقونه. ومضى عقيلة مع الأمير بعض المسافة ثم نزلا عن جواديهما وتعانقا عناق الوداع.

نحو البحر الميت

وعبرنا نهر الزرقاء القادم من الشرق، ثم لاقانا رسول بعث به شيخ قبيلة (هتيم) التي تقيم غير بعيد من أريحا، ومعه هدية من البرتقال، ونوع من الحلويات هي مزيج من الدبس والنشأ والسمسم، قيل أنه من صنع دمشق. وبعد مسافة وصلنا إلى (المشرع) وهو الموضع الذي يغطس الحجاج المسيحيون في مائه. وبادرت إلى الاستحمام في الماء وأنا أشكر الله الذي منحني هذه المنّة الغالية. وكان رفاقنا قبل ذلك قد عبروا وادي الفارعة، وصادفهم جمل هناك فأحاط بعضهم به، وسرعان ما ترك عقيلة فرسه وركب على ظهر الجمل دون أن يكون عليه شداد أو مقود، وانطلق مسرعاً به فوق السهل، باعتباره غنيمة وقعت بين يديه. ثم مرّت القافلة بوادي العوجا، وكان الوقت ظهراً، واشتدت الحرارة حتى اضطر القوم إلى التوقف ساعة من الزمن، حيث غرزوا الرماح في الأرض وفردوا عباءاتهم عليها واستظلوا بفيء تلك الخيمة المرتجلة. واستأنفت القافلة سيرها مروراً بوادي الأبيض ثم وادي النويعمة حيث استقوا من ماء الجدول العذب، ومن هناك مضوا حتى بلغوا عين الحاج إلى الشرق من أريحا. وعند العين التقوا بعدد من أهل تلك القرية وهم يحملون بنادق طويلة من ذات الكبسول.

عند العصر وصلنا إلى الموضع الذي نُصبت فيه الخيام على حافة النهر، وهو الموضع الذي عرفنا أن الحجاج القادمين من القدس سوف ينزلون منه يوم غد لكي يغطسوا في ماء النهر. واعترض الملازم ديل على نصب الخيام هناك، ولكن رفاقنا العرب أكدوا له أن الحجاج لن يصلوا الا بعد رحيلنا. ولكننا أفقنا في أثناء الليل من النوم مذعورين. وبعد قليل تبين لنا أن رفاقنا أطلقوا النار باتجاه فلّاح كان يريد عبور مخاضة الماء. وعلمنا من عقيلة اننا هذا اليوم مررنا من منطقة بني عدوان (قبيلة العدوان) وبني صخر، واننا دخلنا في أراضي القبائل الرحّل في الغور الأدنى.

وأفقنا في فجر يوم ١٨ نيسان بعد أن وصلتنا أنباء بأن الحجاج أخذوا يقتربون باتجاهنا. ونهضنا مسرعين فشاهدنا آلاف المشاعل ترتفع فوق رؤوس كتلة متراصّة من الناس يزحفون بسرعة فوق التلال. وبادرنا إلى انزال خيامنا وإلى نقلها ونقل أمتعتنا مسافة قصيرة إلى اليسار. ولم نكد ننتهي من ذلك حتى شاهدنا الحجاج يندفعون نحو الضفة: رجالاً ونساء وأطفالاً، وهم على ظهور الخيول والجمال والبغال والحمير. في هذا الوضع وقف أصدقاؤنا البدو وقفة ثابتة إلى جانبنا، إذ غرزوا رماحهم المزدانة بريش النعام أمام خيامنا وامتطوا ظهور جيادهم وألّفوا حاجزاً عسكرياً حولنا. والحقيقة أنه لولاهم لاقتحمنا الحجاج بأقدام حيواناتهم ولفقدنا معظم ما معنا من أمتعة وأدوات. كان غريباً أن تعمل جماعة من أبناء الصحراء المسلمين على حمايتنا من حشد من المسيحيين. حقاً أنه لم ينقذنا الا رماح البدو ذوي الوجوه السمراء.

ثم تبين أن الجماعة التي داهمتنا لم تكن الا طليعة المجموعة الكبيرة للحجاج، وهي المجموعة التي أقبلت في الساعة الخامسة صباحاً من فوق قمة الربوة، ترافقها جلبة عظيمة. ذلك أن هؤلاء الناس لم يكونوا من بلاد واحدة، بل كانوا خليطاً من الأقباط والروس والبولنديين والأرمن واليونان والسوريين: جاءوا من مختلف أرجاء آسيا وأوروبا وافريقيا بل من أمريكا البعيدة: رجالاً ونساء وأطفالاً من كل سن ولون، في ألبسة من كل زي وطراز لا يمكن أن يخطر على البال، يزعقون ويصرخون بكل لغة من لغات العالم. وعندما وصل هؤلاء إلى حافة النهر اندفع كل واحد إلى الماء، أو وجد من يقوم بتغطيسه، ثم ملأ زجاجة أو وعاء من ماء النهر، وبعد أن تم ذلك أخذ كل واحد منهم يقتطع لنفسه غصناً من أغصان الشجر ثم يغمسه في الماء ليحمله معه تذكاراً لهذه الزيارة. ولم تمض ساعة حتى أخذوا يعودون أدراجهم. وبعد ثلاث ساعات لم تبق على الضفة سوى آثار الأقدام، فبقينا وحدنا في هذه البرية. كان مجيئهم أشبه ما يكون بالحلم، وقد قدّر البعض عددهم بثمانية آلاف، أما أنا فأحسب أنهم كانوا أقل من هذا العدد.

لم نستطع الحصول على مؤن من أريحا فتطوع الدكتور أندرسون



الحجاج يغطسون في نهر الأردن (عن كتاب لينش)

للذهاب إلى القدس كي يشرف على نقل الخبز الذي كنت رتّبت إرساله إلى هناك. وقد أعطيته تقريراً إلى وزير البحرية شرحتُ فيه باختصار العمل الذي قمنا به. ومن جملة ما جاء في ذلك التقرير أن نهر الأردن يمتد في تعرجه ٢٠٠ ميل بينما لا تزيد المسافة المستقيمة عن ستين ميلاً. وجاء في ختام التقرير اننا لم نصادف أية إعاقة من قبل العرب، مع إننا وجدنا أنفسنا نقف بأسلحتنا على استعداد مرتين. وقد برهن حلفاؤنا البدو أنهم أكفاء أوفياء.

وغادرنا مخاضة الحجاج باتجاه عين الفشخة على الشاطىء الشمالي الغربي من البحر الميت. وبعد نصف ساعة التقينا بشيخ قبيلة هتيم، فأخذناه معنا في أحد الزورقين، ومضينا نتقدم في النهر إلى أن وصلنا قبيل الساعة الثامنة مساء إلى مكان اللقاء الموعود ـ عين الفشخة.

في اليوم التالي تبينّ لنا أنه يستحيل على دواب البدو أن تعيش على النباتات المالحة في ذلك المكان، فأنهيتُ ارتباطهم معنا هم ورعاة الإبل، وأرسلت إلى باشا القدس أطلب بعض الجنود كي يقوموا بحراسة أمتعتنا وحاجاتنا التي انتويت أن أبقيها في عين جدي بينما نقوم باستكشاف البحر الميت وشواطئه.

وكان الترتيب أن نفترق عن عقيلة وجماعته هنا، وأن يبقى الشريف معنا. وبالفعل مضى الشريف إلى القدس لكي يرتب أمر تزويدنا بالمؤن من الخليل، وأرسلتُ معه كل ما أمكنني الاستغناء عنه من سروج وأحزمة وأشياء أخرى.

وجاء عقيلة لكي يودعنا. كنا جميعاً قد أصبحنا متعلقين به. وكم سرّنا ونحن نتحدث معه أن نعلم أنه يعرف معرفة وثيقة بعض القبائل التي تقيم في المناطق الشرقية وانه على علاقات ودية معها. واستطعت أن أقنعه بالذهاب إلى هناك لكي يحيط القبائل علماً بقدومنا ويعدّ الترتيبات لتزويدنا بالمؤن. وقد أسعدني هذا الترتيب، وداعبني الأمل بان نتفادى حصول أية مصاعب ونتمكن من زيارة بلاد مؤاب (الكرك) التي لا يعرف العالم عنها الا القليل. ومضى عقيلة ثم عاد بعد قليل يقول أنه يود التحلل من الاتفاق.

ولكنني ألححت عليه أن يلتزم بوعده. وكنت سابقاً قد أعطيته نقوداً لتغطية نفقات الرحلة المقبلة ولابتياع المؤن، ولكنه رفض أن يعطي أيصالاً أو أن يختم الإيصال بخاتمه. ولم يبق أمامي الا الوثوق بكلمته، وكنت أعرف أنه الرجل الذي يحافظ على شرف كلمته. وكما يقول المثل «ان قضيب الحديد قد يُكسر ولكن كلمة الانسان الأمين لا يمكن أن تُكسر». وكان في نفس هذا العربي من الشرف قدراً لا يقل عما كان يجيش في صدر ريتشارد قلب الأسد[1]. ان فكرة الخديعة لم تساور ذهنه قط.

في الليلة التي سبقت رحيل البدو، أعدّ هؤلاء لأنفسهم وليمة طعام وداعية على النحو التالي: جاءوا بقدر كبيرة مملوءة حتى منتصفها بالماء، ووضعوها فوق نار من أغصان الشجر اليابس، وعندما بلغ الماء درجة الغليان ألقوا فيه كمية من الطحين وأخذوا يحركونه بجذع شجرة طوله سبع أقدام وقطره تسعة انشات، حتى خُيّل اليهم أنه بلغ مرحلة النضج، فأنزلوا القدر عن النار وصبّوا فيها نحو ستة أرطال (أي نحو ثلاثة كيلوات) من السمن من قربة جلدية، ثم قاموا بتحريك المزيج مرة أخرى، وبعد ذلك أخذوا يغرفونه براحات أيديهم ويأكلونه. لم يكن عقيلة أقلهم شراهة. انه بربري أصيل وهو لا ينام حتى تحت غطاء الخيمة الرقيق، بل يذهب إلى مقربة من موقدة النار ويلف بدنه بعباءته الخضراء، وينام نوماً خفيفاً، وسيفه إلى جانبه ومسدسه تحت رأسه.

قام البدو بتوديعنا قبل أن ننصرف إلى النوم، أما هم فقد قضوا معظم الليلَ ساهرين على أنغام الربابة. وعند منتصف الليل سمعنا أجراس دير مار سابا، فأدخل ذلك عزاء في نفوسنا إذ علمنا أن هناك أكفّاً ترتفع بالضراعة إلى الله العلي في هذه البراري البعيدة. وفي الصباح الباكر (٢٠ نيسان) أفقنا على صوت المؤذن يدعو للصلاة. وقد شاهدنا بعض أصدقائنا البدو ينهضون من النوم ويؤدون الصلاة.

---

١ - هو ملك الانكليز الذي اشتهر بالمحافظة على تقاليد الفروسية، وقد اشترك في الحروب الصليبية وكانت بينه وبين صلاح الدين الايوبي معارك واتصالات، أبقت لكليهما ذكراً حميداً في تاريخ العرب وتاريخ الانكليز.

وبعد شروق الشمس جاء بعض أفراد قبيلة الرشايدة يعرضون أن يرافقونا كحرس وأدلّاء، وقد وافقنا أن يعملوا معنا بصفة أدلّاء لا غير. وبعد هبوط الظلام قمنا نحن باشعال النار لكي يهتدي بها ملاحو القاربين الذين كانوا يقومون بأعمال الاستكشاف في عرض البحر.

في اليوم التالي نقلنا أمتعتنا إلى القاربين، باستثناء أشياء قليلة اعتزمنا أن نحملها على ظهر الجمل الوحيد الذي بقي لدينا. وقد أعاننا الرشايدة في عملية النقل. ثم مضينا جنوباً قبالة رأس الفشخة ووادي محرص ووادي النار، وعند العصر بلغنا قبالة وادي سدير وبعده وادي الغويرة، وبعد ذلك اقتربنا من عين الترابة.

وعلمنا صباح يوم ٢٢ نيسان أن الدكتور اندرسون وصل مع المؤن إلى عين الفشخة، فأرسلنا بعض العرب لكي يرافقوه إلى عين جدي، حيث تواعدنا أن نلتقي هناك. ثم مضينا باتجاه الجنوب مروراً بوادي التعامرة، وقد سار هؤلاء مسافة طويلة حتى يلتقوا بنا. والطعام الرئيسي لأهل هذه البلاد هو الأرز. وجاء لنا البدو بالماء، وكان هناك نحو خمسين منهم من الرشايدة والتعامرة. وقد أرسلت بعضهم إلى الخليل ليبتاعوا طحيناً لنا. وياليت أنه كان بامكاننا الذهاب إلى هناك بأنفسنا لزيارة مغارة المكفيلة.

واحتفلنا بعيد الفصح يوم الأحد ٢٣ نيسان، فلم نقم الا بالأعمال الضرورية جداً. وكم كان سرورنا عندما أقبل الدكتور أندرسون والشريف بعد الظهر، إذ كانت المؤن التي معنا قد قاربت على النفاد. وعندما وصلا كان معهما أربعة من الجنود لكي يقوموا بحراسة مخيمنا عندما نكون غائبين. وفيما بعد رتّبت مع الشريف أن يبقى مسؤولا عن المخيم، ومعه أحد رجالنا والجنود الأربعة.

في الليل زرنا الشريف ووجدنا بعض العرب مجتمعين أمام خيمته. وكنت قد أرسلت رسولاً إلى القبائل المقيمة عند الشاطىء الجنوبي بقصد الحصول على أدلّاء. وعند عودة الرسول أبلغنا أن جميع القبائل ارتحلت بعيداً ولم يبق في المنطقة الا قطّاع الطرق. ونصحنا الشريف بأن لا نتقدم

نحو الجنوب، ولكن لم يكن بوسعنا أن نترك مهمتنا قبل اتمامها. ووافق أحد شيوخ التعامرة أن يسير مع الشاطىء على مرأى من الزورقين. وكنا نرغب في زيارة آثار سبّة (مسعدة) وأعددنا أنفسنا لكي نتغيّب عدة أيام. وفي أثناء الليل أخذ أحدهم يروي قصائد الشاعر الشهير عنترة، وقصائد أخرى في مدح ابراهيم باشا. كل ذلك لادخال السرور إلى قلب الشريف.

غور الصافـي

ومضينا في اليوم التالي باتجاه الجنوب ومررنا بجرف (ربطة الجاموس) وكان معنا سبعة من العرب من قبائل الرشايدة والتعامرة والكعابنة. ولاحظنا أنهم أصبحوا متخوفين لأنهم كانوا الآن يسيرون خارج مناطق قبائلهم. وقضينا ليلتنا في السهل غير بعيد عن جبل اسدوم. ووصلنا في اليوم التالي إلى وادي الصافية، فشاهدنا سهلاً عظيم الاتساع تغطي الجانب الأعلى منه أعشاب الربيع الخضراء. ونزلنا من الزورقين في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة بالقرب من وادي حمير. وقد وجدنا في الطرف الشمالي الشرقي بقايا طاحونة ضخمة قديمة جداً. ولا بدّ أن ماء الجدول كان يدير الطاحونة في فصل الشتاء.

كان الحر شديداً فبحثنا عن ماء حتى وجدنا بركتين، وبادرنا للاستحمام في إحداهما. وشاهدنا دخاناً من بعيد، فحاولت أن اقنع البدوي التعمري الذي رافقنا بالذهاب إلى المكان الذي ينبعث منه الدخان، ولكن الخوف استبدّ به فلم يذهب. وكان هذا التعمري ذا بنية بديعة، فإذا سار بدا وكأنه يسير كالملوك. ومن الجدير بالذكر اننا لم نشاهد أي شخص مشوّه (معاق) بين قبائل العرب.

في صباح يوم ٢٧ نيسان ذهبت أستحم في ماء الوادي، وهناك سمعت أصواتاً تأتي من الشقيف القريب. ثم دوّى صوت طلقة من بندقية. ولم ألبث حتى شاهدت بعض النساء الفلاّحات إلى الشمال. وهؤلاء النسوة سمحن لمصطفى (الطباخ) ان يقترب إلى مسافة يستطعن منها أن يسمعن



تعمري (عن كتاب لينش)

صوته، ووجهن اليه أسئلة عديدة تتعلق بنا. بعد ساعة شاهدنا ثلاثين أو أربعين رجلاً يتقدمون باتجاهنا وفي المقدمة شيخهم يحمل سيفاً، أما البقية فيحمل بعضهم بنادق والبعض الآخر حراباً وعصياً وأغصان شجر، وكانوا جميعاً ينشدون نشيد قبيلتهم. ولمواجهة هذا الوضع وقفنا نحن صفاً واحداً والبندقية الكبيرة أمامنا، ثم تقدمتُ نحوهم ومعي الترجمان. وعندما اقتربوا

رسمت على الأرض خطاً وقلت لهم إننا سنطلق النار عليهم إذا هم تجاوزوه. ازاء هذا رأيناهم يجلسون القرفصاء للتشاور. كانوا من عرب الغوارنة ويبدو عليهم الفقر الشديد. وعندما ظهرت قوتنا لهم طلبوا أن نهدي اليهم شيئاً، فقدمنا لهم بعض الطعام ليأكلوا وقليلاً من الدخان، ونفحتهم بمبلغ صغير من أجل أن يحملوا رسالة إلى عقيلة (الذي كان سيصل إلى الكرك قريباً) لكي نحيطه علماً بالمكان الذي وصلنا اليه.

وعدنا إلى ماء البحر نقوم بأخذ القياسات. وكان رفاقنا من العرب قد قضوا ساعات يبحثون عن الماء. لا أدري ماذا كان بوسعنا أن نفعل لولا هؤلاء العرب. لقد جاءوا لنا بالطعام (ثمر الدوم الذي ينتج عن شجر النبك) عندما اشتدّ بنا الجوع، وبالماء عندما جفّت حلوقنا من شدة العطش. عملوا معنا كرسل وأدلّاء، وقاموا في غيبتنا بحراسة مخيمنا بكل أمانة. ان التعامل بكياسة معهم يكسب احترامهم وحسن نيتهم. وعلى الرغم من أنهم أبناء شعب عُرف بالعاطفية والاندفاع، فإننا لم نتبادل معهم كلمة غاضبة واحدة. وكنت أرجو بعناية الله أن يستمر الوفاق بيننا وبينهم حتى النهاية.

يوم ٢٨ نيسان عدنا إلى مخيمنا فاستقبلنا الشريف ومن معه، ولاحظنا أن الشريف كان قلقاً على سلامتنا وبدا عليه سرور حقيقي لعودتنا. وكنا قد أرسلنا عدداً من رفاقنا البدو إلى جبل اسدوم، وبسبب الظمأ وقع أحدهم مغمى عليه، وقد اضطر رفاقه أن يتركوه ويمضوا إلى الامام لانقاذ أنفسهم لأنهم كانوا يعانون أيضاً من شدة الظمأ. ولكن حسن الحظ شاء أن يصل رسول من المخيم قبل ذلك بقليل على ظهر جواد، فبادر الشريف إلى إرساله مع قليل من الماء إلى حيث كان البدوي ملقى على الأرض، وبذلك أمكن انقاذ حياته.

كان الرسول القادم من القدس يحمل رسائل لنا، ومن خلالها عرفنا أنباء العالم الخارجي بعد انقطاع طويل. ومن بين الرسائل التي تلقيتها واحدة من المشير في صيدا، وعد فيها أن يوبخ سعيد بك على طمعه، ويخوّل حليفنا عقيلة أن يبقى معنا طوال المدة التي نريد.

أفقنا صباح يوم ٢٩ نيسان على صوت المؤذن، وشاهدنا بعض التعامرة يحصدون بمناجلهم نبات الشعير الذي كانوا زرعوه في قطع صغيرة من الأرض، ثم أخذوا ينقلونه الى البيدر، حيث كانت ثلاثة من الحمير تدور عليه بحوافرها. هؤلاء العرب يمقتون ايذاء الحيوانات. ومع ذلك شاهدنا عقيلة ينظر إلى المرأة التي قتل زوجها دون أن يرفّ له جفن أو تتحرك عضلة في وجهه. وابتعنا قليلاً من قمح هؤلاء لكي نوزعه في بلادنا. وفي ساعات بعد الظهر ركبتُ فرس الشريف وذهبت إلى عين جدي، إلى ذلك النبع الجميل الصافي الذي ينبجس من الصخر وتظلله أعواد القصب وأشجار النبك (السدر).

في اليوم التالي غادرنا المخيم باتجاه الشرق بعد أن رتبنا مع الشريف ان ينتقل بعد أربعة أيام إلى عين الترابة. ونحن هذا اليوم على موعد للالتقاء بعقيلة، وكنت واثقاً انه لن يخذلنا. ووصلنا إلى الطرف الشرقي من الخليج وأخذنا ننتظر اشارة من عقيلة. وبعد قليل شاهدنا رجلاً بين أعواد القصب ثم شاهدنا آخرين غيره. وكم كان سرورنا عندما اقتربنا منهم وشاهدنا (جمعة) بينهم. وقد عرفنا منه أن عقيلة وصل الى الكرك يوم أمس. ونزلنا من القاربين غير بعيد عن جدول ماء صغير يجري في وادي بني حامد.

علمنا أن عقيلة التقى في السلط بأصدقاء له من بني صخر. ولكن حدث أن بني عدوان هجموا عليهم على حين غرّة في أثناء الليل. وفي بادىء الأمر تراجع الصخور وفقد عقيلة ناقته ومتاعه. ولكن الصخور لم يلبثوا أن تلقوا نجدة فكرّوا على خصومهم. واستمر الاشتباك ساعات عديدة، وأصيب اثنا عشر منهم بجراح، من بينهم اثنان من رجال عقيلة. وقيل أن اثنين وعشرين رجلاً من العدوان لاقوا حتفهم أو أصيبوا بجراح. وقد أصيب النوبي الذي مع عقيلة مرتين بجراح : مرة من طلقة بندقية وأخرى بطعنة رمح. وكان بين قتلى العدوان ابن شيخهم، فكانت بندقيته من نصيب الشريف مساعد، ابن أخ الشريف هزاع، نظراً للبسالة التي أبداها في المعركة.



شيخ من شيوخ السلط (عن تريسترام)

في الكـــرك

حدثنا جمعة الحاسي أن هناك شيخين في الكرك، أحدهما مسيحي ويستطيع أن يحشد ٢٥٠ من حملة البنادق، وشيخ مسلم أكثر رجاله خيالة فرسان، وهم أكثر عدداً بكثير، وأن الشيخ المسيحي يتبع الشيخ المسلم تبعية كاملة.

ووصل سليمان بن عبدالله شيخ الكرك المسيحي في الصباح ومعه أربعة رجال، ليبلغنا دعوة من أبيه لكي نزوره في قلعته الجبلية. لقد جاء هؤلاء بناء على الحاج عقيلة، وقد شاهدونا في أثناء عبورنا البحر. وتلقينا دعوة أخرى من الشيخ المسلم. وقبلت الدعوة وأنا أدرك مقدار المخاطرة.

والحقيقة اننا جميعاً كنا نعاني من الحر الشديد، فأصبح من الضروري لنا أن نصعد إلى الجبال مهما كانت الاخطار. وكنت واثقاً أن جمعة سوف يحافظ على الزورقين في غيابنا، فأرسلت رسولاً إلى عقيلة أطلب منه أن يرسل خيلاً وبهائم لركوبنا. وكان عقيلة قد أبلغنا أنه لم يستطع الحضور بسبب الجراح التي أصيب بها أتباعه ولأن خيولهم كانت مرهقة. وكنا في موقع متوسط بين وادي الكرك وقرية المزرعة، التي يُفترض أن تكون آثار (زغر) بالقرب منها. واستحممت في ماء الجدول فانتعشت بعد أن كادت شدة الحر تصيبني بالاغماء. وكانت أشجار الدفلى على جانبي الجدول ترتفع ثمانية عشر قدماً، وقد تفتحت أزهارها وفاح عبيرها الذكي.

وجاء لنا شخص من قرية المزرعة ببعض اللبن والحليب، ولكن معظمنا لم يتحمل رائحته الناتجة عن اتساخ جلود الماعز التي يبدو أنهم لا يغسلونها هنا أبداً. وأحضر الرجل كمية من طحين ثمار الدوم الجاف، فكان طعمه لذيذ المذاق. ثم جاء شيخ المزرعة ومعه بعض جماعته، وهؤلاء مع قبائل الفلاحين في الطرف الجنوبي للبحر يطلق الناس عليهم اسم (الغويرية). وتدل ألوانهم وملامحهم أنهم من أصل افريقي. وهم يزرعون الذرة ونبات التبغ وبعض النيلة.

أبدى هؤلاء المسيحيون البدائيون سرورهم لرؤيتنا. انهم لم يشاهدوا قارباً من قبل، ويطلقون على القارب اسم (شختورة). ولكن أحد سكان المزرعة صرخ مبتهجاً عندما شاهد القاربين. لقد كان مصرياً جيء به إلى هنا وهو صغير السن، ولكنه تذكر عندما رآهما انه شاهد مثلهما في نهر النيل. وهؤلاء المسيحيون العرب من قبيلة (بني خلاص؟). وبدا لنا أنهم أقوى بنية وأكثر ذكاء من البدو الذين شاهدناهم عند شاطىء البحر الميت.

في اليوم التالي أنهى رفاقنا أبحاثهم وقياساتهم في البحر. وعندما سأل واحد منا عما إذا كانت هناك متاجر في الكرك يمكن الشراء منها، أجابه أحد المسيحيين العرب: اننا نعطي مما نملك. هل تعتقدون اننا يمكن أن نبيعكم أي شيء؟

كنا موفقين في ارسال عقيلة قبلنا إلى القبائل العربية، لأن شيخ المزرعة أبلغ جمعة الحاسي انه حالما شاهدنا قادمين، بادر إلى حشد جماعته عاقداً العزم على مهاجمتنا، ولم يعدل عن عزمه الا بعد أن سمعه يبادلنا تحية الاصدقاء. لقد سرّني هذا لأنه لو حدث أن هاجمنا أولئك الناس لوجدنا أنفسنا مرغمين على اطلاق النار عليهم والحاق الهزيمة بهم، على الرغم من انني كنت أرغب من كل قلبي ان نحقق هدفنا دون سفك دماء.

عند العصر زرت موقع الآثار التي يعتقد الباحثون (ومن جملتهم أربي ومانجلز) أنها بقايا (زغر) القديمة. وحينما عدت وجدت أن الخيول والبهائم التي أوصيت عليها أخذت تنحدر في طريقها نحونا. كان يرافقها محمد بن عبدالقادر شيخ الكركية، وعبدالله شيخ (بني خلاص؟) وعرفنا أن محمد يقيم أكثر ايامه في بيوت الشعر غير بعيد عن الكرك بينما يقيم عبدالله في بلدة الكرك نفسها.

ومحمد هذا في نحو الثلاثين من العمر، قصير القامة ولكنه متين البنية، أسمر اللون، أسود شعر الرأس والذقن والشاربين، وعيناه ناريتان لا تستقران طويلاً على شيء معيّن. وبدا لنا متغطرساً مستبداً إلى حدّ لم نعرف مثله من قبل، حتى أنه عندما أراد أن يركب فرساً أمر واحداً من الفلاحين بالانحناء ثم وضع قدمه على ظهر ذلك الرجل وقفز على صهوة فرسه. أما عبدالله ففي نحو الخمسين من عمره، قوي البنية معتدل المزاج.

حمل لي هؤلاء الرسالة التالية من عقيلة:

إلى حضرة صديقنا المحترم حفظه الله

نرجو أولاً أن نبعث اليكم بمحبتنا وشوقنا العظيم لمشاهدة محياكم. ثم نخبركم أن رسالتكم وصلت الينا في أسعد الأوقات وهي تتضمن أقوالكم اللطيفة. وعندما قرأنا الرسالة حمدنا الله القدير على أنكم بخير، ونسأله تعالى أن يرينا أنوار محياكم في الوقت المناسب. ان الركائب التي طلبتموها سوف تصل اليكم مع حضرة أخينا الشيخ محمد مجلّي والشيخ عبدالله

النحاس، وهذان الشيخان سوف يزودانكم بالرجال اللازمين لحراسة الزورقين.

ان تخلفنا عن المجيء لملاقاتكم سببه ضعف خيولنا وتعبها. وان شاء الله سوف نراكم بعد مدة قصيرة.

هذا كل ما لزم ونرجو ابلاغ سلامنا إلى كل من يسأل عنا. ومن طرفنا فإن حضرة أخينا المحترم الشريف يرسل لكم أطيب تحياته. والله يحفظكم.

الكرك ٢٨ جمادى الأولى (خاتم) عقيلة آغا الحاسي

ولكي نرضي فضول العرب قمنا بدفع أحد الزورقين إلى عرض البحر، بعد أن أركبنا بعضهم فيه. وعند عودة هؤلاء إلى البر وضعوا قطع بصل في أنوفهم قائلين ان هذا يؤدي إلى قتل الملاريا التي استنشقوها من ماء البحر.

ثم وصلت بعد غروب الشمس جماعة أخرى من الكرك على رأسهم أخو محمد. كانوا جميعاً يحملون بنادق طويلة وقصيرة، باستثناء واحد منهم كان يحمل رمحاً طوله ١٨ قدماً، وهو يزدان بريش النعام تحت سن الحربة. كان هؤلاء يهزجون بأصوات مرتفعة، ويصرخون صرخات الحرب الغريبة.

قضينا ليلتنا معاً. ولكنني لم أجد سبيلاً إلى النوم لأن غطرسة محمد جعلتني أحسب للوضع حسابه. لقد جاء ومعه ثمانية رجال ثم جاء أخوه ومعه أربعة عشر غيرهم، ثم تقاطر وراءهم آخرون حتى زاد عددهم على أربعين. وبدا كأن محمد أخذ يعتبر اننا صرنا في قبضة يده. وخامرتني فكرة الرحيل في الحال للمحافظة على حياة رفاقي، ولكن كان هناك اعتباران دفعاني للبقاء ثم للذهاب إلى الكرك (أولاً) انني أرسلت عقيلة إلى القبائل العربية لكي يعلن عن وصول جماعة من الأمريكيين، وقام عقيلة بمهمته في وجه أخطار جسيمة وبعد أن تكبد خسارة كبيرة. (ثانياً) ان انسحابي الان سوف يُعتبر هزيمة، وسينظر هؤلاء إلى اسم الأمريكي بازدراء. أضف إلى ذلك أن رفضنا للدعوة ربما يجعل حياة عقيلة في خطر. وفوق هذا كله فإن



رجلان من الكرك (عن كتاب لينش)

استنشاق هواء الجبال كان ضرورياً بالنسبة لنا.

ومهما يكن من أمر فقد نهضنا باكراً صباح يوم ٢ أيار، وأخذنا نستعد للذهاب إلى الكرك. وفي الوقت نفسه تركت واحداً من البحارة مع جمعة الحاسي لحراسة القاربين. كنا أربعة عشر شخصاً عدا الترجمان والطباخ. ورافقنا عشرون من العرب، أما الباقون فقد مضوا قبلنا. وسرنا مصعدين في وادي الكرك وكان المنظر أروع ما شاهدت عيوننا. وبدأنا نشعر بالبرودة، ثم أخذ المطر يهطل، وسمعنا صوت الرعد، وازداد المطر كثافة. ولكن العاصفة لم تلبث أن هدأت ثم تلاشت. وبعد مسافة أخذنا نشاهد قطع أرض مزروعة بالحبوب وأشجار زيتون. وأخيراً وصلنا إلى السور، ثم إلى بوابة نُحتت في الصخر. وبلغنا بيوت البلدة، وشاهدنا كثيرين يقفون لكي يتفرجوا علينا. وسار معنا رفاقنا إلى المضافة، التي كانت مدرسة للمسيحيين في الوقت نفسه. هنا أقام (أربي ومانجلز) قبل ثلاثين سنة، وكانا أول شخصين من بلاد الافرنج يأتيان إلى هذه البلدة منذ أيام الصليبيين.

كنا نتوقع أن يبادر أحد الناس إلى ذبح شاة لنا، وكان هناك مئات منها في المنطقة المجاورة. ونتيجة لجهود الكاهن والشيخ ابراهيم حصلنا على بعض البيض، وتألف غداؤنا من ثلاث بيضات لكل شخص.

وخرجنا على دفعات لنتفرج على المكان، ووجدنا دكاناً ليس فيها للبيع الا قماش موسلين من صنع انجلترا، وثمار مشمش مجففة [ربما كان تمراً حسبه لينش مشمشاً]. لم تكن للبيوت نوافذ. وفي الكرك ٣٠٠ أسرة ثلاثة أرباعها من المسيحيين، لأن قبيلة الكركية القوية تقيم في مضارب لها على بعد مسافة قصيرة من أسوار القلعة. وقد بلغ من كراهية بعض القوم للاقامة في داخل بيوت الحجر، اننا رأينا البعض منهم ينصبون بيوت الشعر في ساحات المنازل الخالية. وفي هذه البلدة ترى معظم الرجال يرتدون معاطف الفراء، بينما ترتدي النساء الثياب الغامقة الألوان. ولم تكن النساء المسيحيات يخفين وجوههن التي لاحظنا أنها موشومة. وأخذنا الخوري إلى كنيسته الصغيرة وهي غرفة واطئة ومعتمة وفيها عمودان غير كاملين جيء بهما أصلاً من القلعة.

وحصلنا هنا على كمية من القمح. وقيل لنا أن أهل البلاد لم يفيدوا كثيراً من مزروعاتهم خلال السنين السبع السابقة نتيجة لغزو الجراد والرياح الشرقية.

عند العصر تحادثنا طويلاً مع عقيلة عما إذا كان بمقدورنا زيارة وادي الصافية. وكان من رأيه أن الفكرة غير عملية بسبب تحركات القبائل، بعد أن بدأت الاشتباكات بين بني عدوان وبني صخر. وكان من رأيه أن السبب يعود إلى اقتراب موسم الحصاد والبيادر، إذ أن البدو أخذوا يستعدون للاستيلاء على حبوب الفلاحين. وبدا عقيلة غامضاً من بعض الوجوه، ولم أستطع أن أفهم تماماً تلميحاته، ولكنني ظننت أنه يود أن يعرف إذا كنا سنقدم العون إلى حلف من القبائل. لم أضغط عليه لشرح ما يريد ولكنني قلت له اننا كنا على استعداد للاسراع لمساعدته لو أنه وقع في الأسر في أثناء عمله معنا، وانني سوف أسعى لتعويضه عما فقده في رحلته. وقد خمّنت أن

هذا البدوي ـ الذي كان أكثر من عرفنا جاذبية ولباقة، كريماً شجاعاً، يخافه الناس أو يحبونه ـ يفكر بتوحيد القبائل من أجل نزع النير التركي وانشاء مملكة له. وما دام انه حصل على مكاسب من ثورته فيما مضى، فمن المحتمل انه كان يفكر بحركة أوسع نطاقاً. . . لقد كان حضور عقيلة معنا خدمة كبيرة لنا، ولولاه لاصطدمنا مع هؤلاء الناس البدائيين.

وكان عقيلة قد جاء معه بأمير بني صخر الشاب، تلك القبيلة القوية التي يهابها حتى هؤلاء العرب الأشدّاء. وكانت غاية عقيلة ـ كما قال لي ـ أن يضمن حسن سلوك الكركية معنا. وكان الفتى الصخري مرخي الجدائل مثل البنات، ولكن قيل لنا أنه في المعارك فارس مغوار. وأخبرنا عقيلة أنه عند عودته يريد أن يتفادى صداماً آخر مع العدوان، ولذلك يريد أن يعود إلى منطقة الجليل عبر الطريق الشرقية ـ طريق الحاج الشامي.

لم يحتف بنا الكركية لأننا لم نكن مستعدين لتقديم الهدايا. وفي أثناء الليل كنا على حذر خشية المفاجآت. ولم يكن مع عقيلة سوى أربعة رجال أحدهم مصاب بجراح، بينما كان بمقدور الكركية أن يحشدوا ٧٠٠ رجل مقاتل. وقد أخبرنا عبدالله ان عدد المسيحيين يتراوح ما بين ٩٠٠ إلى ألف شخص، ويستطيعون حشد أكثر من ٢٠٠ رجل مقاتل. وقد تعرفنا أيضاً على يعقوب شقيق عبدالله النحاس[1].

في طريق العودة

في صباح اليوم التالي (٣ أيار) غادرنا الكرك عائدين إلى شاطىء البحر الميت. وعند وصولنا أعطيت لعبدالله هدية له وعباءة مقصبة هدية مني إلى الأمير الصخري.

لم يكن استقبالنا في الكرك متسماً بالمودة، بينما كان استقبال الكركية

---

١ ـ من الواضح ان لينش لم يكن على صواب عندما وصف عبدالله النحاس بانه شيخ مسيحيي الكرك. والواقع أنه كانت تقيم في الكرك آنذاك أسرة صغيرة تعرف باسم (النحاس)، ويظهر أن عقيلة أراد أن يبعث رسولاً من الكرك إلى شاطىء البحر الميت، فكان الرسول عبدالله النحاس.

لبيركهارت وأربي ومانجلز ودياً. ويعود السبب إلى أن بيركهارت كان يتكلم العربية ويتظاهر بانه عربي. بينما كان أربي ومانجلز يحملان رسالة توصية من شيخ الخليل، كما أنهما دفعا ٤٠٠ قرش (تساوي ١٦٠٠ قرش في هذه الأيام)، وفي اليوم التالي دفعا ١٥٠ قرشاً أخرى. أما سيتزن فقد سلبه بعض البدو قبل أن يدخل إلى الكرك.

أبحرنا في الزورقين باتجاه وادي الموجب. وعند وصولنا الى الموضع الذي يصب فيه سيل الموجب تبين لنا أن عرضه ٨٢ قدماً. وواصلنا السير باتجاه الشمال قرب الشاطىء العربي إلى أن وصلنا إلى مصب سيل زرقاء ماعين. وبعد اجراء الكشوفات وأخذ القياسات اللازمة وصلنا إلى مخيمنا عند عين الترابة، والذي كان في حراسة الشريف الطيب. وقد حدثنا الشريف عن اشتباك العدوان وبني صخر وعما بلغه من أن عدداً من جرحى بني صخر لم يلبثوا أن قضوا نحبهم متأثرين بجراحهم، وان القبيلة كلها أصيبت بخسارة فادحة.

قمت باعداد الترتيبات لاستئجار جمال تحمل الزورقين إلى يافا. وكنا قد أتممنا مسح البحر الميت، فاعتبرنا يوم الأحد (٧ أيار) يوم استراحة. وأرسلت اثنين من رجالي إلى دير مار سابا بعد أن أضرّت بهما شدة الحرارة. وقال نصرالله شيخ الرشايدة ـ وكنت رفضت أن أُقدم له هدية قبل انتهاء العمل ـ انه لولا وجود الشريف معنا، لكان حصل على ما يريد. فوبختة على قوله، وعند ذلك اعتذر عما بدر منه.

حمّلنا قطع الزورقين على ظهور الجمال وأرسلناها إلى القدس. وغادرنا موقعنا ومعنا الشريف وابراهيم آغا وشيخا الرشايدة والتعامرة وستة جمال. وقد شعرنا بالأسى عند رحيلنا خصوصاً لمعرفتنا اننا لن نرى هذه الأماكن مرة أخرى.

في المساء دعونا الشريف هزاع إلى خيمتنا وأقنعناه بأن يروي لنا قصة حياته. وبعد تردّد روى لنا أن أباه كان أميراً لمكة، وعند وفاته تولّى ابنه الأكبر (شقيق هزاع) منصب الإمارة. ولكن محمد علي، بعد أن استولى على

الحجاز، عمد إلى عزل أخيه وعيّن ابن عم له أميراً مكانه. ومضى الشريف المعزول إلى استانبول بينما أرسل هزاع أسيراً إلى القاهرة، حيث قضى هناك عشر سنوات كان يتقاضى خلالها راتباً يتألف من ٣٠٠٠ قرش (١٢٥ دولاراً) كل شهر لكي ينفق على اسرته. بعد ذلك أرسله محمد علي إلى الحجاز للاشتراك في الحرب، وهناك أصيب بجراح في عدة معارك. وعندما أضطر محمد علي إلى الانسحاب بضغط الحلف الخماسي، ذهب هزاع إلى مصر لكي يطالب برواتبه المتأخرة. وإذ لم يجد هناك الا الوعود، فانه مضى إلى استانبول يطالب بحقوقه، وقدّم شكوى للباب العالي. وهو الآن ينتظر صدور القرار. ان الشريف هزاع رجل ذكي محترم، وله نفوذ قوي بين القبائل. ويعود له ولعقيلة ـ وكذلك لتيقظنا ـ الفضل في أننا لم نواجه متاعب من قبل العرب. لقد كان الترتيب ان يفارقنا في اليوم التالي، ونحن نحمل له في قلوبنا الاحترام وأطيب التمنيات. وكم تحدثنا مع بعضنا البعض عما كان عسانا أن نفعل لولا الشريف وعقيلة. ولا تخامرنا ذرة من الشك في أن وجودهما معنا حال دون سفك الدماء.

وجاءنا راهب من دير مار سابا يبلغنا أن رفيقينا انتعشا وتعافيا. وبدا لنا أن هناك تفاهماً وثيقاً بين هؤلاء الرهبان والقبائل المختلفة، ففي أثناء الليل قام أحد البدو بدعوة الراهب للنوم معه تحت عباءته.

وأخيراً وصلنا إلى جبال القدس وكان التبدل في الطقس مزعجاً: من أقصى الحرارة إلى أقصى البرودة ـ من درجة حرارة ١١٠ ف إلى درجة ٦٠ ف. هنا وجدنا الهواء بارداً ينفذ إلى العظام، وصرنا نرتجف في أثناء الليل. وودعنا الشريف الطيب. وأصبحنا على ارتفاع ٢٠٠ قدم فوق سطح البحر الميت. ومررنا من وادي النار باتجاه دير مار سابا. ودعانا الرهبان للدخول إلى الدير، ولكن خشية من الذباب والحشرات فاننا آثرنا البقاء في الهواء الطلق. على اننا دخلنا إلى الدير زائرين. وقد عرفنا أن هؤلاء الرهبان يعيشون على الخضروات. ويوجد هنا نحو ثلاثين منهم وكلهم يونان باستثناء عدد قليل من روسيا. وهم ودعاء ساذجون غير متعلمين.

وفي أثناء سفرنا باتجاه القدس مررنا بقرية لم يلبث أن لحق شيخها بنا ومعه ١٥ ـ ٢٠ رجلاً مسلحاً، وكان سلاحهم البنادق الطويلة. وطلب هؤلاء مبلغاً من المال لقاء مرورنا في أراضيهم، ولكننا رفضنا. فقدم الشيخ احدى الشياه هدية لنا، وعندئذ قدمت له ما يساوي ثمنها، فمضى هو ورفاقه في سبيلهم. وفي تلك التلال شاهدنا قطعان كثيرة من الشياه والماعز، وكان الحصادون يحصدون في الحقول بينما كانت الثيران تدرس البيادر، والنساء يسرن ذهاباً وأياباً وهن يحملن أغمار القمح أو الجرار المليئة باللبن. وشاهدنا رجالاً مسلحين يحرسون الحصادين والبيادر. وهنا تحضرني عبارة قالها فولني «يتوجب على المزارع أن يزرع الأرض وهو يحمل بندقيته بيده، والناس لا يزرعون الا ما يكفي للقيام بأودهم».

وشعرنا بالظمأ، والتقينا بامرأة فطلبنا منها أن تذهب إلى عرب الصبيح لتأتي لنا بشيء من اللبن. وذهبت المرأة ولم تلبث أن عادت ومعها ابنتها الحسناء. ولاحظنا الحزن على وجه دليلنا عواد التعمري، وعندما سألناه عن السبب قال انه يهوى الفتاة وانه قضى اثنى عشر شهراً وهو يتودّد اليها عسى أن تقبل به زوجاً، ولكنه في نهاية الأمر أخفق لأن الأم لم توافق على تزويج ابنتها له، ولأن أباها طلب ٤٠٠٠ قرش (نحو ١٧٠ دولاراً) مهراً لها. أما الآن فهي مخطوبة لابن عمها الذي تقضي التقاليد باعطائه الأولوية على غيره من الخاطبين.

القـــــــدس

وأخيراً أقبلنا على المدينة المقدسة وشاهدنا حقول القمح ذي السنابل الذهبية وبساتين التين والزيتون، وبعض أشجار المشمش ـ كلها كانت تغطي جميع الأراضي الصالحة للزراعة. ثم اخترنا مكاناً نصبنا فيه خيامنا غير بعيد عن بوابة يافا (باب الخليل). كان هناك خان كبير على مرتفع من الأرض، فوضعنا فيه أجزاء القاربين. أما المدينة فليس لها الآن الا أربع بوابات هي: باب يافا الذي يذكره الإنجيل باسم بوابة السمك، من ناحية

الغرب، وباب دمشق (باب العمود) الذي يواجه الطريق الشمالي الكبير وهي الطريق التي سار عليها المسيح وعمره اثنا عشر عاماً عندما جاء هو وأمه، وبوابة القديس استيفان (باب الاسباط) من ناحية الشرق، وبوابة صهيون إلى الجنوب على قمة الجبل. وقد أغلق الأتراك الباب الذهبي فبنوا جداراً في داخله.

يوم ١٨ أيار أرسلنا أجزاء القاربين إلى يافا، في رعاية الشريف الذي عدنا والتقينا به هنا. أما نحن فقد قضينا بضعة أيام نزور القدس وضواحيها، وكذلك بيت لحم. ومن المعلوم أن الحكومة لا تسمح للافرنج بتملّك الأرض في فلسطين، أو في أية منطقة أخرى من أراضي الدولة العثمانية. أما في الأراضي المحيطة بالقدس فيغرس الأهلون أشجار الزيتون والتين ويزرعون القمح والشعير والذرة والعدس والشمام والخيار والخرشوف (الأرض شوكي) والبطاطا؟ وهم يعتنون بتربية دودة القز ويصنعون بعض الحرير.

شيخ أبو غوش

وأخيراً غادرنا القدس (٢٢ أيار) بعد أن حملنا أمتعتنا على ظهور البغال، فمررنا أولاً بوادي لفتا. وبعد أن مررنا بقرية كولونية، قضينا ليلتنا بين أشجار الزيتون. ومن الطريف أن هناك مرسوماً يمنع البدو من نصب خيامهم إلى الغرب من القدس، من أجل حماية المسافرين. ولم يكن المسافرون يخشون أي ابتزاز من قبل عائلة أبو غوش القوية. ولا شك أن لامارتين بالغ كعادته عندما قال أن شيخ أبو غوش يخضع لأمره خمسون الف عربي. وقد عمد بعض أهالي هذه المنطقة إلى حيلة يتفادون من خلالها التجنيد الذي فرضه ابراهيم باشا، وكانت الحيلة هي أن يعمد الشخص الذي لا يرغب في الجندية إلى اقتلاع احدى عينيه. ولكن ذلك القائد أبطل تدبيرهم، فألّف كتيبة من الرجال الذين ليس للواحد منهم سوى عين واحدة.

قضينا الليلة التالية في عين دلبة بالقرب من قرية بيت نقبه. وفي اليوم التالي مررنا بقرية العنب فخرج الشيخ أبو غوش يريد استيفاء اتاوة منا، ولكننا لم نلق اهتماماً للشيخ المخيف. عندئذ مضى إلى الترجمان الذي كان يسير أمامنا مع فئة المساحة ونادى عليه بصوت متغطرس: يا ترجمان، تعال إلى هنا. ولكن الترجمان أجابه قائلاً: تعال أنت. ومضى الشيخ اليه سائلاً بأي حق نحاول المرور من أراضيه، بينما لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك دون اذنه. هنا عرض الترجمان عليه الفرمان فقرأه وقال ان الفرمان لا يذكر شيئاً عن مسح الطريق، وانه لو كان هناك ألف رجل فانهم لا يستطيعون المرور ضد ارادته. قلنا له ان من الأفضل له أن لا يعترض طريقنا لأننا حصلنا على موافقة رؤسائه. وقد بلغ اعتراض الشيخ ذروته بالنسبة لدليلنا عواد التعمري، فأبلغناه أن خدمات عواد ضرورية لنا واننا على استعداد لحمايته. قال عواد يخاطب أبو غوش مستعطفاً أنه ليس سوى فلاح فقير. وأدركنا من ذلك الموقف سبب ازدراء البدو للفلاحين.

كان ذلك الشيخ رجلاً أبيض اللون ذا ملامح أوروبية وشارب أشقر. انه أخو أبو غوش الشهير الذي بث الرعب طويلاً في هذه المنطقة، وكانت نتيجة أعمال القتل والنهب التي اقترفها أنه سيق قبل مدة إلى استانبول، وقيل أنه يعيش هناك حياة المنفى. وبينما كنا نسير في محاذاة القرية خرج رجل متقدم في السن وأخذ يصرخ قائلاً: أيها المسلمون، تعالوا وانظروا المسيحيين يبحثون عن الكنوز التي أخفاها أجدادهم في هذه البلاد!!

وغادرنا القرية فشاهدنا مزروعات الخضار وافرة النماء وجوانب التلال ممهدة تكسوها الدوالي وأشجار التين والزيتون. ثم انحدرنا نحو قرية ساريس حيث قضينا ليلتنا في غابة من أشجار الزيتون. إن وجه الأرض، منذ أن غادرنا القدس يدل على درجة عالية من العناية بالمزروعات، وقد كان منظر سفوح التلال الخضراء باعثاً على الارتياح. في اليوم التالي انحدرنا عبر طريق مخيفة الى باب وادي علي، الذي ينفتح على سهل سارونه، وكانت حقوله الواسعة تموج بنبات القمح ذي السنابل الذهبية. وانبسط السهل

الجميل أمامنا وفيه القرى هنا وهناك، وقد خرج الأهلون كلهم للحصاد.

توقفنا قرب قرية دير أيوب تحت أشجار الطرفاء، وزارنا شيخ القرية. وأفقنا في الصباح الباكر على حركة المزارعين النشيطين وهم يعملون في حقولهم. كان منظراً رعوياً رائعاً، فالرعاة يسيرون مع قطعان الماعز على جوانب التلال، والأبقار ترعى تحتهم، والحصادون بين أعواد القمح، والنساء يلتقطن السنابل المتساقطة وراءهم، بينما كان حارس نوبي مسلّح يجلس في ظل شجرة، والهواء الخفيف يحرك طيات عباءته البيضاء ويحني سنابل الشعير الذي لم يُحصد بعد.

ومضينا في الطريق فشاهدنا على قمة ربوة عالية قرية اللطرون، وشاهدنا تحت القرية حقول القمح الذي لم يُحصد بعد وبيادر كبيرة للقمح الذي تم حصده، تدور حولها فدادين البقر لتدرسها. كان جميع سكان القرية قد خرجوا إلى الحقول يحصدون ويضعون الأغمار على الأرض، بينما كان البعض منهم يذرّون البيادر التي فرغوا من درسها.

وأقبلنا أخيراً على بلدة الرملة في وسط السهل، وقد بدت لنا ـ ببرجها ومآذنها وآثارها وأشجار النخيل ـ ذات طابع شرقي أكثر من أية بلدة أخرى في فلسطين. وتروي الحكايات التقليدية أن مريم العذراء وطفلها ويوسف قضوا ليلة هنا وهم في طريقهم إلى مصر. وقد وجدنا صعوبة في الدوران حول البلدة بسبب كثرة نباتات الصبّار المرتفعة والتي لا يمكن المرور من خلالها. وأخيراً جاء وكيل القنصل وسار بنا إلى الجانب الشمالي الذي تبدأ منه الطريق إلى يافا. وقد شاهدنا الكثير من أشجار الزيتون والسرو حول البلدة ووراء ذلك. انه لسهل جميل تحيط به سلسلة الجبال من جهة وماء البحر من جهة ثانية.

يافـــا

ثم مررنا بقرية بيت دجن، غير بعيد عن اللد، ثم بقرية يازور وبعدها وصلنا إلى يافا، ونحن نشعر اننا أتممنا القيام بمهمتنا على خير وجه.

ثم مضينا إلى البيت الريفي الذي يملكه ممثلنا القنصلي مراد، بعد أن تلطف ووضعه تحت تصرفنا.

تقع بلدة يافا على جانب ربوة، يحيط بها سهل واسع تكثر فيه المزروعات الخصيبة وبيارات البرتقال وبساتين التوت، وتفصل بين كل بستان وآخر أسيجة من الصبّار ترتفع خمسة عشر قدماً. كان البيت الذي نزلنا فيه محاطاً بالأشجار فأخلدنا للراحة. وكانت البيارة التي يقوم البيت فيها تضم ٢٥٠٠ شجرة برتقال و ١٥٠٠ شجرة ليمون، بالإضافة إلى بعض أشجار المشمش والتفاح والرمان. وكان في البيارة بئر ماء وبركة وناعورة تديرها البغال ليل نهار، وكانت هناك قنوات صغيرة يتدفق الماء اليها من البركة ليروي الشجر. ولم يكن الأمر مقتصراً على الأشجار، بل وجدنا أن الأهلين يزرعون في داخل البساتين أنواع الخضروات من قرع وخيار وبطيخ وباذنجان وفاصولياء وبامية وبطاطا.

وليافا بوابة واحدة. وإلى الشمال منها قرية يسكنها الأقباط الذين ظلوا في البلاد بعد انسحاب ابراهيم باشا. وقد شاهدنا غير بعيد عن القرية باشا القدس ومعه عدد من الضباط يتبارزون ويلعبون بالجريد، وقد وقفوا في صفّين متقابلين تفصل بينهما مسافة ١٥٠ ياردة تقريباً. انها لعبة رجولية بعثت الحماسة في نفوسنا ونحن نتفرج.

وفي داخل البلدة مررنا بأسواق وجامع له ساحة واسعة، وسرنا في شوارع ضيقة حتى وصلنا إلى منزل القنصل الذي يطل على الميناء. وكان في الميناء نحو ثلاثين أو أربعين مركباً. والممثل القنصلي سوري أرمني وقد استقبلنا بترحاب. وربما كانت يافا أقدم مدينة في العالم. وتقول الأساطير أن اندروميد رُبطت هنا بسلسلة إلى صخرة وأخذت تتعرض لمداعبات وحش البحر. وهنا قام نابليون بمجزرة خارج السور قضى فيها على جميع أسراه. وإلى هنا لجأ ابراهيم باشا من هجمات القبائل العربية التي دفعها باجراءاته الشديدة إلى حافة اليأس. ويبلغ عدد سكان يافا نحو ١٣ ألف نسمة بينهم ثمانية آلاف مسلمون و ٤٧٠٠ مسيحيون ونحو ٣٠٠ يهود.

وكان من غرائب الصدف اننا التقينا في يافا بالشريف مساعد، فأقبلنا نحوه فرحين ولكنه قابلنا بشيء من الجفاء وتركنا بسرعة. وعجبنا لهذا التصرف ولكن الشريف عاد بعد ذلك يقول لنا أن عبداً ثميناً له فرّ من عكا ومعه أفضل جياد الشريف وبندقية ثمينة. وقد تعقب مساعد أثر العبد إلى يافا، وعندما التقينا به كان يقوم بالبحث والسؤال عن العبد ولم يكن يريد الافصاح عن هويته. وقال أنه عرف ان العبد فرّ إلى مصر وانه ينوي اللحاق به إلى هناك.

عكا ودمشق

غادرنا يافا يوم ٦ حزيران في مركب شراعي صغير استأجرناه، فمررنا بقرية أم خالد ثم بمصب جدول الزرقاء. وكانت هناك طاحونة شاهدنا حولها جمالاً وخيلاً وبهائم وعليها أحمال من القمح. ثم وصلنا إلى الطنطورة وهي بلدة مزدهرة كثيرة السكان. وأخيراً وصلنا إلى عكا. وهناك زارنا الشريف هزاع وعقيلة، وقبلنا دعوة لتناول طعام الافطار معهما. وذهبنا إلى منزل الشريف فشاهدنا أسلحة ثمينة معلقة على الجدران. كان هناك عبيد نوبيون قدموا لنا الشربات والدخان والقهوة. ثم جيء بالطعام فكان يتألف من أصناف عديدة، ومن الجملة خروف مشوي قام عقيلة بتمزيقه بيديه وتوزيع القطع علينا. وكنا في أثناء رحلتنا قد تعلمنا الاستغناء عن الشوك والسكاكين فأقبلنا على الطعام، ونعمنا بوجبة لذيذة..

ثم غادرنا عكا باتجاه الناصرة فمررنا بقرية صفورية، ثم وصلنا إلى بلدة الناصرة وزرنا عين العذراء حيث شاهدنا العديد من النساء والأطفال. وتكوّن لدينا الانطباع ان الناصرة أجمل مكان شاهدناه في فلسطين، فالشوارع هادئة والمنازل وادعة والناس يرتدون ملابس أفضل، وهم هنا أكثر تهذيباً وكياسة ممن التقينا بهم في أماكن أخرى. ويبلغ سكان الناصرة نحو خمسة آلاف نسمة أربعة أخماسهم مسيحيون والباقون مسلمون. وهي تابعة لباشوية عكا وتحيط بها ٢٢ قرية. وكان نابليون قد توقف في الناصرة بعد أن انقذ كليبر حينما اشتبك هذا مع الجيش السوري في مرج ابن عامر.

زرنا بعد ذلك قرية كفركنا وجبل طابور. ومضينا باتجاه الشمال الشرقي فمررنا بخان كبير حيث كان نحو ألف شخص قد جاءوا للاشتراك في نشاط السوق الاسبوعي (يوم الاثنين). وبعد ذلك وصلنا الى حيث شاهدنا مضارب كبيرة من بيوت الشعر وأراض مزروعة على نطاق واسع وأغناماً وأبقاراً كثيرة حولها. وكانت المزروعات تتألف من نبات القمح والذرة. ثم مررنا بقريتين خربتين، وتحت احداهما بستان مهجور فيه أشجار مشمش وتين. لم يكن هناك أحد يستظل بظل الأشجار المثمرة، ولم يعد امرؤ يسمع أغاني الأمهات وصرخات الأطفال التي كانت تتردد أصداؤها سابقاً هنا. ليس من العسير أن نتصور المصير الذي آلت اليه الأسرة: لقي الأب حتفه وطُردت المرأة وأطفالها بعيداً. لا بدّ أن هذا الموضع كان قبل بضعة أشهر عش سعادة وهناء، ولكن ها هو الآن قد أصبح مكاناً مقفراً يهدل فيه الحمام نهاراً ويشهق البوم في أثناء الليل.

اضطررنا للمبيت في حقل حُصد القمح فيه قبل وقت وجيز. وعند الصباح أرسلت أبحث عن مالك الأرض لكي أعوضه عن الضرر القليل الذي ألحقناه به. وجاء الرجل متردّداً، وعندما حدثته بالأمر بدت عليه الدهشة، اذ لا يمكن أن تخطر فكرة التعويض ببال هؤلاء الناس الذين يعانون من الظلم وسوء الحكم.

ومررنا بطبريا وآثار خان المنية، ثم عين الطابغة، وتل حوم، وبعدها البطيحة حيث كانت بيوت شعر كثيرة. ومضينا إلى بانياس وبلدة حاصبيا، وزرنا منابع نهر الأردن، وبعد ذلك مضينا إلى دمشق التي يقدّر الدكتور مشاقة عدد سكانها بـ ١١٥ ألفاً. وفي أثناء اقامتنا هناك زارنا الشيخ الكبير لقبيلة (العَنْزَة) ومعه نقيب أشراف دمشق. والشيخ رجل بهي الطلعة لطيف المحيا، ولكن ملامحه لا تدل على طبيعة نفسه، اذ كان له ضلع في الاعتداء أخيراً على بعض الرحّالين الأنكليز. انه الشيخ الذي لا بدّ ان يتعاقد معه أولئك الذين يريدون زيارة آثار تدمر أو عبور الصحراء الكبيرة. أما النقيب فرجل متقدم في السن محترم يرتدي عمامة بديعة، وكان يرافقه أتباع كثيرون في موكب مهيب.

ثم زرنا بعلبك وزحلة ومن هناك مضينا إلى بيروت. وفي تلك الأثناء رُزئنا بوفاة الملازم ديل. وأبحرنا من بيروت إلى مالطة، حيث وجدنا السفينة التي جئنا بها أصلاً من أمريكا في انتظارنا. وأبحرنا على متن السفينة فبلغنا أرض بلادنا في أوائل شهر كانون الأول ١٨٤٨، بعد غيبة استمرت ثلاثة عشر شهراً.



شيخ مشايخ قبيلة عُنَزَة (عن كتاب لينش)

الأرض والكتـــاب

تأليف : و.م. تومسون

الأرض والكتـــاب

تأليف : و.م. تومسون

قضى مؤلف هذا الكتاب ثلاثين عاماً في سوريا وفلسطين عاملاً في مجال الإرساليات، ووضع كتابه من معين الخبرة والمعرفة والتجارب التي تجمّعت له في تلك الأعوام، وذلك في يوميات بدأها من بيروت ـ مركز اقامته ـ بتاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٨٥٧ واختتمها في بيت لحم والقدس بتاريخ ١٤ أيار ١٨٥٧، أي أن هذه الرحلة الأخيرة استغرقت أقلّ من أربعة أشهر. والكتاب مجلد ضخم يزيد على ٧٠٠ صفحة، ويقع في نحو ٣٨٠ ألف كلمة.

يبدأ الدكتور تومسون رحلته من الشمال من بيروت إلى صور إلى الجليل وعكا، وبحيرة طبريا، والناصرة، ومرج ابن عامر، ونابلس، وغزة والخليل ثم إلى وادي الأردن وأريحا والبحر الميت، ثم أخيراً في القدس وبيت لحم. والمقصود بالعنوان: الأرض وهي فلسطين والكتاب وهو التوراة (العهد القديم) والإنجيل العهد الجديد.

وضع المؤلف كتابه بناء على معرفة وثيقة بالبلاد وأهلها، من خلال اقامة استمرّت سنوات طوالاً، ولكننا نلمس من سياق حديثه انه لم يكن متعاطفاً كل التعاطف مع أهل البلاد أو مع الحكومة، فكان كثير الانتقاد، انطلاقاً من تعصّبه لحضارة بلاده ـ الولايات الأميركية المتحدة ـ ومعتقداتها

عن كتاب Rev. W.M. Thomson: The Land & The Book, T. Nelson and Sons, London, 1879.

ومفاهيمها وأخلاقياتها. وفي هذا الصدد لا يفوتني أن أنوّه بالتأثير العظيم للتوراة في نفوس معظم أولئك الأشخاص الذين كتبوا عن بلادنا، وخاصة في القرن التاسع عشر وما قبله، وأخصّ من التوراة (العهد القديم) أكثر من (العهد الجديد) في التأثير على عقولهم. ولا يخفى أن ذلك التأثير كان وما يزال من جملة الدوافع الأساسية في تحيّز الغرب إلى جانب الغزاة الاسرائيليين. وقد كان الهمّ الأول لهذا الكاتب بالذات أن يستعيد أحوال فلسطين وتاريخها (من خلال نصوص العهد القديم) ابّان غزوة الإسرائيليين الأولى: متوقفاً عند كل موقع يزوره أو تجاه تصرّف من أهل البلاد يلاحظه. على أنني أعتقد أن المؤلف كان أميناً في تسجيل المعلومات التي توصل إلى معرفتها في أثناء سياحته الأخيرة عام ١٨٥٧، وهي المعلومات التي رأيت أن نقلها هنا يعطي فكرة وصورة عن أحوال هذه البلاد في تلك الحقبة من الزمن، وتساعد - بالتالي - على كتابة تاريخها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعمراني.

بيروت (٢٤ كانون الثاني ١٨٥٧)

لا توجد في سوريا سيارات أو أية آليات تسير على عجلات، بل أنك لا تجد في البلاد شوارع أو طرقاً يمكن أن تسير عليها العجلات. لم يكن الأمر كذلك دائماً، لأن الكتب القديمة تتحدث عن عربات ومركبات. وذكرت التوراة أن الكنعانيين كانوا يملكون مركبات حرب تجرها الخيول، بل قيل أن الفلسطينيين كان لديهم ثلاثون ألف مركبة[1]. وهنا يبرز السؤال: لماذا اختفت بعد ذلك وسائط النقل والحرب هذه؟ لقد جاء إلى البلاد قوم اعتادوا على استخدام الجواد والجمل والبهيم، وسرعان ما اختفت العربات واندثرت الطرق التي كانت تسير عليها. حتى في لبنان ترى الناس يقودون جمالهم وبغالهم وهي تحمل الأحمال، عبر دروب مخيفة، دون أن يخطر في بالهم عمل شيء لاصلاحها.

---

١ - في ابان الغزوة الإسرائيلية الأولى كانت قبائل الكنعانيين العرب تقطن في شمالي فلسطين وأواسطها، بينما كان الفلسطينيون (الذين يُقال أنهم جاءوا أصلاً من جزر بحر ايجه) يقطنون في الجنوب ومدنهم الرئيسية غزة وعسقلان واسدود.

وهكذا تعيّن عليّ أن أقوم برحلاتي في هذه البلاد على ظهور الدواب.

ما تزال المدن في سوريا وفلسطين محاطةً بأسوار ذات بوابات، وهي أسوار أُنشئت في الأصل لحماية المدن من الاعتداءات. ان بيروت تشبه الآن الصوص الذي كسر قشرة البيضة وخرج منها. ولن يمر وقت طويل حتى تخرج تماماً من أسوارها وتنطلق، فلا يكون لها سور ولا بوابات. وفي الأيام القديمة كانت جميع المبادلات العامة تتم عند بوابات المدن أو بالقرب منها. كانت البوابات المكان الذي يلتقي فيه المرء بشركائه، وعندها يتم استقبال الاصدقاء أو توديعهم، واليها يأتي كثيرون لسماع آخر الأنباء أو القيام بأعمال التجارة وترتيب الأسفار. وقد شاهدت القاضي يجلس عند مدخل بوابة يافا ومعه بطانته، فيستمع إلى ادّعاءات المشتكين ويفصل في جميع أنواع القضايا التي تُعرض عليه.

وعند البوابة يتم اعلان المنشورات والتعليمات المهمة. وكانت هذه البوابات تُقام بحيث تغدو في غاية المناعة والقوة والفخامة، لأن الناس كانوا يعتبرونها صرحاً للأمن والحماية ويرون فيها مظهراً لقوة الدولة وهيبتها. ولنذكر أن جميع الناس كانوا يعبرون من البوابات في أية مدينة: كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم. ولا ننسى أن هذه البوابات تحمل اسماء أكثرها متوارث منذ أقدم الأزمان، ويُطلق الاسم في العادة لسبب ذي علاقة بموضع البوابة: فبوابة باب البحر مثلاً، استمدت اسمها لأنها تتجه نحو البحر، وهناك باب الدبّاغة لأن الدبّاغين يزاولون أعمالهم بالقرب منه، وكذلك الأمر بالنسبة لباب السرايا لأن قصر الوالي يقوم بالقرب منه. ومن منطلقات مماثلة تستمد الشوارع والأحياء اسماءها: فهذا شارع السروجية، وذاك شارع الحدادين، إلى آخر القائمة.

وفي المدينة ترى منظراً شرقياً صرفاً، فغير بعيد عن باب المسجد يجلس شيخ يعمل في كتابة الرسائل، وبالقرب منه أوراق بيضاء ومقص يقص الورق به لكي يصبح بالحجم المطلوب. انه يتناول دواة الحبر من حزامه (وهي من قرن حيوان) وعوداً من أعواد القصب. وترى امرأة تأتي



بوابة مدينة (عن كتاب تومسون)

وجسمها مغطى بحجاب وجلباب من رأسها إلى أخمص قدميها، فتقف إلى جانب الكاتب، ثم تراها تهمس بعبارات الرسالة التي تريد املاءها حتى تختتمها بعبارة التحية المعتادة. لا بدّ أن هذا الكاتب يعرف الكثير من أسرار المدينة وما يجري فيها. ولكن لا تظن أن جميع النساء محجبات، فإنك لا بد أن ترى هنا وهناك امرأة تسير سافرة الوجه. هؤلاء هن نساء الفلاحين أو الفتيات الصغيرات اللائي يرفضن ارتداء الحجاب مثل امهاتهن، ويصررن على توكيد حقوقهن بالسفور عن وجوههن. ولكن هناك قواعد بالنسبة للبعض، ومن جملتها عدم الكشف عن شعر الرأس. ويؤلف الحجاب في واقع الأمر نوعاً من القوة والحماية بالنسبة للفتاة الجميلة، فهي تستطيع وهي تغطي به وجهها أن تذهب إلى أي مكان، دون أن يمسّها أو يهينها أحد، لأن



كاتب الرسائل (عن كتاب تومسون)

أي رجل يقدم على اهانة امرأة انما يجازف بمواجهة خطر كبير على أيدي جمهور غاضب. أما بدون الحجاب فالمرأة ضعيفة وهي تتنقل تحت رحمة أي وحش قد تحدثه نفسه بالاساءة اليها.

ونسير في شوارع بيروت الضيقة، التي تشقها البواليع من منتصفها. ونتساءل: كيف يمكن أن نتجاوز هذه القافلة من الجمال المثقلة بأحمالها؟ لم يكن هناك مفر من أن نحني رؤوسنا ونتنقل من تحت هذا الجمل الى تحت ذاك، حتى نحقق الهدف العظيم. ثم تلاقينا قافلة من البهائم وهي تحمل حزم الحطب وقِرَب الماء، بحيث تلامس أطراف أحمالها جانبي الشارع. كيف نستطيع تجاوز هذه العقبة الجديدة؟ من حسن الحظ اننا نجد تجويفاً عند طرف الشارع، فننتحي اليه جانباً حتى تمر البهائم، ثم نواصل سيرنا. ولكن ما خطب هذا الرجل الذي يصرخ: ظهرك، وجهك، ظهرك،

وجهك!! انه يحذّر السابلة حتى ينتبهوا جيداً فلا يصيب الحطب اليابس وجوههم أو يمزق ملابسهم. وأتساءل: هل أُنشئت جميع المدن الشرقية على هذا المنوال: عرض الشارع فيها ثمانية أقدام وارتفاع المنازل ستون قدماً؟ ها هو المؤذن يدعو لصلاة الغروب. وألاحظ أن الشوارع الكئيبة ترزح تحت ظلال المساء، وأتطلع فلا أجد مصابيح تنيرها في ظلام الليل. ها هم التجار يغلقون أبواب دكاكينهم ويتجهون نحو منازلهم. وتبقى الشوارع من الآن وحتى الصباح خالية صامتة، اللهم الا إذا مرّت جماعة من الناس عائدين من سهرة عائلية، وأمامهم يسير خادم يحمل مصباحاً. أما حراس الليل فيسيرون على مهل في الظلمة الدامسة، ويستوقفون كل من يسير في الشوارع دون ضوء. على ان بيروت تسير الآن تدريجياً في طريق التخلص من كل هذا، ولكن ما شاهدناه فيها يعطي نموذجاً يمكن أن يراه الرحالة في كل مكان، فيما عدا دمشق. ذلك أن طراز الحياة في تلك المدينة يختلف تماماً، ويحمل المرء - كأنما بفعل السحر - إلى عهود الخلفاء وإلى الأجواء الخيالية لحياة ألف ليلة وليلة.

بيروت ذات موقع جميل ومناظر رائعة. انها في سهل مائل يمتد بين الجبل والبحر، ويؤلف الجزء الجنوبي الشرقي من السهل حديقة واسعة من أشجار الزيتون الكثيفة، وهي أكثر الكروم اتساعاً وأوفرها انتاجاً في سوريا كلها (يعني سوريا الطبيعية). وفي وسط السهل غابات من شجر الصنوبر التي غرسها امراء لبنانيون تتابعوا على الحكم فيها ابتداء من الزعيم الدرزي الشهير فخر الدين إلى حاكمها الحالي وامق باشا، وهو ممثل السلطان في الوقت الحاضر. هنا كروم عديدة تكثر فيها أشجار البرتقال والليمون، كما تكثر أشجار التين واللوز والتفاح.

ونمر بالخليج العميق فنرى جبال المتن وكسروان إلى الشرق والشمال الشرقي عالية تظللها غابات الصنوبر، وتتخللها القرى والأديرة والكنائس، ثم وادي نهر الكلب تطل عليه قمة صنّين المكسوة بالثلوج.

تقع بيروت في موضع ممتاز على ساحل البحر، ومن المرجح أنها كانت

في باديء الأمر موطناً لجماعة من الفينيقيين الذين جاءوا اليها من صيدا. وتدل كتابات الجغرافيين القدماء على أنها كانت ذات أهمية. وفيما بعد أصبحت مستعمرة لروما، وقد زيّنها الأباطرة بالأعمدة والمسارح والحمامات، التي ما تزال بقاياها تنتشر بين الكروم، كما تكثر الأعمدة المتهاوية على شاطئها. ومن المرجح أن القائد الروماني تيطس احتفل في أحد مسارحها بانتصاره على اليهود في القدس. وفي عهد جوستنيان ازدهرت بيروت حتى أصبحت مركزاً من مراكز العلم المعدودة في الامبراطورية، وكانت - كما هي اليوم - أجمل مدينة على هذا الشاطيء. ثم جاء زلزال هائل سنة ٥٥١ للميلاد فدمّر المدينة كلها واختفت كليات العلم والكنائس والهياكل والمسارح والقصور. كان ذلك الزلزال كارثة مخيفة، لم تسترد بيروت مكانتها بعده.

وعندما جاء محمد علي الى سوريا أصدر أمراً بأن تأتي جميع السفن إلى ميناء بيروت لغايات الحجر الصحي. ولم يلبث قناصل الدول الأجنبية حتى استقروا فيها، ثم اتخذتها الدولة العثمانية قاعدة للحكم في لبنان. وقبل ثلاثين سنة كان عدد سكانها خمسة آلاف، أما الآن (١٨٥٧) فعدد السكان لا يقل عن أربعين الف نسمة. وبينما كانت المدينة كلها في السابق ضمن الأسوار، فإنك ترى الآن ثلثي السكان يقيمون خارج أسوارها القديمة. ولا تجد في سوريا كلها مدينة توسعت بمثل هذه السرعة.

وفي طريقنا من بيروت إلى الجنوب شاهدنا عدداً من النساء وعلى رؤوسهن الطناطير (التي تشبه القرون) وقد جئن من دير القمر لزيارة مقام النبي يونان والوفاء بالنذور له. ولكن استعمال هذا الزي الغريب أخذ يتراجع ويتقلص بعد حروب ١٨٤١ و١٨٤٥ بين الموارنة والدروز.

في صيــدا

كثيرون هنا أولئك الذين يدخنون النرجيلة (الأرجيلة)، وبعض هذه الأراجيل مصنوع بدقة وعلى عدة أشكال. وقبل أيام شاهدت نربيش

احداها وطوله ١٦ قدماً. أما الزجاجة فكبيرة الحجم ومن زجاج سميك مطعّم بالذهب. وقد جربت التدخين من هذه فلم أستطع تحريك الماء في الزجاجة، وبدا لي أن الانسان يحتاج إلى صدر حوت حتى يستطيع دفع الدخان من هذه الانبوبة إلى الماء. ومع ذلك شاهدتُ سيدة تحرّك الماء بقوة نَفَسها حتى بدا كأنه يغلي في مرجل، والغريب أنه لم يكن يبدو أن السيدة تبذل جهداً في ذلك. وجدت لذة في احتساء القهوة السادة من الفناجين الصغيرة، أما التدخين بهذه الصورة العنيفة فلم أستطع أن آنس له أو أجد متعة فيه. وإنك لترى أن الغرفة سرعان ما تمتلىء بالدخان حتى يصبح كالغيم وحتى يكاد المرء لا يرى الشخص الجالس قبالته. وحينئذ أجد نفسي مرغماً على الفرار إلى الخارج كي أنجو من الاختناق.

وقد أدهشتني أيضاً الحماسة التي تتملّك الناس هنا وهم يتحدثون. فعندما تتوثب مشاعرهم إلى حدٍّ ما، تراهم يتكلمون جميعاً في آن واحد وبأعلى أصواتهم. وقد لاحظ أحدهم اندهاشي فقال لي: انتم الامريكان تتكلمون كأنكم تخشون ان يسمعكم أحد، ونحن نتكلم كأنما نخشى ان لا يسمعنا أحد. وكنت أتابع المجرى العام للأحاديث عن طريق شابين كانا يرافقانني ويعرفان اللغة الانكليزية.

الملابس والأزيــــاء

ودار حديث بيني وبين بعض الناس عن ملابس الغربيين وملابس الشرقيين، فكان من رأيهم ان ملابسنا غير مريحة واستدلوا على ذلك من اننا لا نستطيع أن نجلس القرفصاء بسهولة. وعلى الرغم من ذلك فانهم اعترفوا أن الملابس الغربية أفضل في ممارسة الحياة العملية. ولا أشك في أن الثياب الطويلة الفضفاضة تعوق المرء عندما يعمل أو يمشي أو يكون راكباً، هذا مع الاعتراف بأنها تساعد أكثر على تجميل الانسان وتحسين مظهره، فهي لا تكشف عيوبه البدنية مثل الملابس الغربية.

ان لباس الإنسان الشرقي في ايامنا هذه يماثل إلى حدّ بعيد ملابس الانسان الذي كان يعيش في هذه البلاد في الأزمنة القديمة: العباءة والمعطف

والثوب والسراويل والمنطقة والقلنسوة والحذاء. وإذا أردنا أن نعمل قائمة بما يرتديه السوري العربي في هذه الأيام، استطعنا التوصل إلى ما يلي :

القميص : وهو ثوب داخلي من القطن أو الكتان أو الحرير. ويكون ثوب البدو فضفاضاً ومن قماش قطني متين، وهو أهم قطعة في القائمة.

اللباس : وهو السراويل الداخلية من قماش القطن.

الشنتيان : وهو السراويل الطويلة.

الشروال : وهو السراويل الطويلة الفضفاضة.

الدكة : وهي خيط يدخل في الشروال ويضمه حول الخصر.

الصدرية : وهي صدار داخلي، دون أكمام، ويُزرّر حتى العنق.

المنتيان : صدار داخلي يُلبس فوق الصدرية، وله جيوب لوضع محفظة النقود والمنديل الخ.

القمباز : أو القفطان [أو المزنوك]، وهو معطف طويل مفتوح من القطن أو الحرير، يضمه الزنار فوق الحقوين.

الزنار : حزام من الجلد، أو وبر الجمال، أو الحرير أو القطن، أو يكون شالاً من الصوف.

السْلطة : معطف خارجي يُلبس فوق القمباز.

الكبران : (الكبر) معطف ثقيل ذو أردان مفتوحة، يُربط بأزرار عند الكتفين.

الجبة : ثوب أو معطف طويل فضفاض، ذو أردان قصيرة، واسع جداً، ويُستعمل عندما يرتدي المرء جميع ملابسه.

العباءة : رداء قوي خشن. وكثيراً ما تكون العباءة قصيرة، وقد تزدان حواشيها بخيوط الذهب أو الفضة. أكثرها يُحاك من شعر الماعز أو وبر الجمال، وتكون واسعة جداً بحيث يستطيع صاحبها أن يلفّ نفسه بها وينام.

البرْنس : عباءة طويلة فضفاضة من الصوف الأبيض، وتكون لها قلنسوة لتغطية الرأس.

أما غطاء الرأس فيضم القطع التالية:

الطاقية :قبعة من القطن تُصنع على قدر الرأس وتلتصق به. وإذا كان الرأس حليقاً فكثيراً ما تُوضع طاقية أخرى ناعمة على الجلد مباشرة تحت الطاقية الأولى.

الطربوش : قبعة من اللباد الأحمر السميك، وأفضل أنواعه ما جاء من الجزائر.

الطربان : شال من الصوف أو الحرير أو القطن يُلَفُّ حول الطربوش. وفي هذه الأيام يستعمل الأتراك الطربوش وكذلك كثيرون من العرب، مع شرّابة طويلة. أما البدو فيستعملون قطعة من القماش الثقيل على رؤوسهم [الحطة أو الكوفية أو الشماغ] تثبت على الرأس بالعقال الذي يُصنع من وبر الجمال أو شعر الماعز، وهو لباس مهيب وبارز في تمييز البدوي الأصيل عن غيره.

وأخيراً نأتي إلى أنواع الأحذية التي يستعملها الناس في أقدامهم:

الجوارب : (الكلسات) وهي من أنواع مختلفة.

الكلشين : خف داخلي من الجلد الناعم، أصفر أو أسود.

البابوج : خف نصفي، يشبه الصندل القديم (الذي بطل استعماله الآن).

الجزمة : حذاء من الجلد الأحمر وتكون كبيرة الحجم وغير رشيقة.

وهناك بطبيعة الحال اختلافات في أشكال قطع الملابس والأحذية وتفصيلها، وهذه تتراوح من منطقة إلى أخرى، في بلاد العرب الواسعة.

أما قائمة ملابس النساء فتماثل الى حدّ ما قائمة ملابس الرجال. ولكن هناك بعض الاضافات، كالخمار. وهناك أيضاً اختلافات في شكل غطاء الرأس الذي تزينه الحلي. ولكن الرجل لا يستطيع فحص هذه الأشياء لأن ذلك يُعتبر اهانة خطيرة.



وجيه سوري بلباسه الكامل (عن كتاب تومسون)



فتاة بملابسها الوطنية (عن كتاب تومسون)

بعض العادات الاجتماعية

ترتدي النساء الخمر عندما يخرجن من منازلهن، بل أن الجلابيب الخارجية تكون طويلة حتى القدمين. ولكن النساء لا يخرجن كثيراً من

المنازل. وهذا يعود إلى طباع الشعوب الشرقية منذ العصور القديمة. وإذا زرت منزلاً ولم تشاهد أية امرأة أو فتاة فيه، فاعلم أن هذا يعود لضرورات أدبية ومعنوية. انك لا ترى رجلاً يسير وذراعه في ذراع امرأة، ذلك أن تصرفاً كهذا خليق أن يهزّ تقاليد المجتمع. حتى في الكنيسة، تقف النساء في جانب تحيط به شبكة (شعرية) من الأعواد الدقيقة المتداخلة. وأحياناً تظهر سخافة الاغراق في الغيرة عندما تمرض المرأة وتحتاج إلى علاج الطبيب. ومن المدهش اننا نلاحظ أحياناً تحفّظ كثيرين من المسيحيين المتعلمين في التحدث عن نسائهم. وغالباً ما يحدث أن الرجل عندما يكون مسافراً لا يكتب رسائله إلى زوجته بل يوجهها إلى ابنه، حتى لو كان عمره شهراً واحداً. وإذا كان غائباً عن بلدته والتقى بأحد معارفه فإنه يسأله عن أفراد عائلته فيما عدا زوجته. من هذا كله نعلم أن الرجل لا يستطيع التعرف على فتاته قبل عقد قرانه عليها. وهكذا يتم ترتيب الزواج عن طريق أقارب الطرفين وأصدقائهما.

وإذا أنجبت الزوجة ولداً كان ذلك حَدَثاً مبهجاً للأسرة، أما ولادة البنت فتُعتبر نوعاً من الكارثة، حتى ان الزوج يمتنع عن مشاهدة الطفلة أو التحدث للأم. ومن جملة التقاليد أن الأب يأخذ اسم ابنه البكر فيُعرف به. فإذا وُلد لطنّوس ابن وأسماه بشارة، فإن طنوس يصبح منذ ذلك الحين (ابو بشارة). ويصبح نوعاً من قلة الاعتبار أن ندعو طنوس باسمه المجرّد. وكذلك الأم يدعوها الناس (أم بشارة). وأكثر من هذا إن الرجل الذي لا ولد له، يمنحه الناس اسم الابن المفترض، بل أن الرجل الذي لم يتزوج بعد يدعوه الناس باسم الابن الذي لم يأت بعد إلى عالم الوجود.

وهناك بعض العادات الاجتماعية التي تختلف عن عادات أهل الغرب. وعلى سبيل المثال ترى هنا الأسرة كلها تنام في غرفة واحدة، دون أن يبدل أفرادها ملابسهم في أكثر الأحيان. بل ترى الأسرة كلها تقيم سوياً في بيت واحد: الأب والأبناء والأحفاد.

والعادة السائدة عند تناول الطعام أن يُؤتى بطاولة (اسكملة) غير

مرتفعة وشبه مستديرة، تُوضع في وسط الغرفة، ثم يُوضع عليها طبق من القش أو النحاس، وعلى هذا تُوضع صحون الطعام، وبالقرب من ذلك ابريق ماء يشرب منه الطاعمون الذين يجلسون حول الطاولة. وبصورة عامة يتألف الطعام من الأرز والعدس والبرغل والحساء. ويستعمل البعض ملاعق من الخشب أو المعدن، ولكن أكثر الناس يغمسون الخبز الرقيق بما في الصحون من طعام. ويستعمل بعض الأثرياء ملاعق من الفضة، ولكنهم لا يستعملون السكاكين والشوك. وترى أفراد العائلة يأكلون جميعهم من وعاء واحد. وهم يرون هذا ملائماً لهم ولا عيب فيه. ولا شك أن هذه الطريقة أقل كلفة وتحتاج إلى عمل أقل بالنسبة للنساء اللائي يقمن بمهمة اعداد الطعام وغسل الأواني. وعلى العموم فإن الطبخ جيد وترتيب الطعام محترم. بعد الفراغ من الأكل يغسل الطاعمون أيديهم وأفواههم، ويتم ذلك بواسطة الابريق والطشت، وترى الخادم يصب الماء على يديك وهو يضع المنشفة على كتفه. أما إذا لم يكن هناك خادم فالرجال يخدمون بعضهم البعض.

وهناك عادات أخرى ملفتة للنظر. فإذا جاء كاهن أو أمير أو واحد



حفل غداء (عن كتاب تومسون)

من كبار رجال الدولة ترى الناس يسلّمون عليه بتقبيل ظاهر يده، حتى أن تجاهل هذه الطريقة يُعتبر نوعاً من الإهانة. وعلى الخصوص يصرّ رجال الدين على أن يقبّل الناس أيديهم دليلاً على الاعتبار. وإذا التقى صديقان بعد فراق طويل فانهما يضمّان بعضهما البعض ويقبل أحدهما الآخر على وجنتيه وأحياناً على كتفيه. أما النساء فيتبادلن القبلات في جميع المناسبات، ولكن إذا التقى اثنان من الجنسين فإنهما يتحفظان كل التحفظ في أداء التحية والسلام، حتى أن يد الواحد منهما لا تمس يد الآخر.

والسيدات العربيات، وخاصة المتزوجات منهن، مولعات باقتناء الحلي الفضية والذهبية، وتقتني كل واحدة منهن عدداً من الأساور والخلاخيل والخواتم والعقود. وانك لترى النساء يزينّ جباههن وأعناقهن بالنقود. كما يربطن سلسلة من النقود تدعى (الصفّة) على غطاء الرأس من الخلف بحيث تنتشر على الكتفين. ولا يستطيع الرجل أن يمدّ يده إلى حلي زوجته، مهما ضاقت به الأحوال، حتى ليحدث أن يُؤخذ الرجل الفقير إلى السجن إذا ما قصّر في تسديد بضعة قروش، بينما تكون مئات منها تلمع وتخشخش على ثياب زوجته.

وترى السيدات المتزوجات يبذلن الجهد في تزيين أنفسهن فيضعن الدهون على الوجوه، والكحل حول العيون والحواجب، ويصبغن الأيدي والأقدام بالحنّاء. أما الفتاة غير المتزوجة فتحافظ على بساطة مظهرها، لأن المجتمع ينتقد الاسراف في الزينة قبل الزواج.

والنساء الشرقيات لا يُعتبرن مساويات للرجال. حتى إذا سار رجل واخوانه وزوجاتهم في طريق، تقدم الرجال أولاً وأخذت النساء يسرن وراءهم على مبعدة. ولكن هناك نوع من التطور التدريجي في مدن لبنان الساحلية، مع اتجاه الى تعليم البنات.

وأهل هذه البلاد يجلسون اكثر مما يقفون في أثناء قيامهم بأعمالهم. فالنجار ينشر الخشب وهو جالس على الأرض، والمرأة تغسل وهي جالسة، والتجار تراهم دائماً جالسين في دكاكينهم. ومع أن الشرقيين يتشددون في

المحافظة على حياتهم الخصوصية الشخصية، الا أنهم لا يقرعون باب غرفتك قبل أن يدخلوا اليها، بل يبادرون إلى الدخول دون تحذير سابق. ولكن يجب الاعتراف أنهم يشعرونك قبل ذلك بقدومهم حين يصلون الى البوابة الخارجية سواء بالتخبيط عليها أو المناداة بأصواتهم. ثم ان المجتمع لا ينتقد الشخص الذي يقف وينادي بصوت مرتفع على من يريد.

السكان في سوريا

من مصائب سوريا (يعني سوريا الطبيعية) كثرة ما فيها من قبائل وحمائل ومذاهب، الأمر الذي يؤدي إلى تجزئة البلاد إلى مناطق صغيرة وطبقات متصارعة، ويؤدي تبعاً لذلك إلى الحروب الأهلية والفوضى والاضطراب. إن هذا يتضح لنا من الاحصاءات التقريبية التالية:

المسلمون	: وهم الذين يتولّون حكم البلاد بأجمعها ـ باستثناء جبل لبنان. وهم موزعون في مذهبين رئيسيين، السنة والشيعة.	٨٠٠ ألف نسمة
النصيرية	: وموطنهم الجبال الواقعة إلى الشمال من طرابلس.	١٥٠ ألف نسمة
الدروز	: ويقطنون في النصف الجنوبي من لبنان، مع امتداد إلى جبل الشيخ وحوران. ويقيم بضعة آلاف منهم إلى الغرب من حلب، وفي الكرمل والجبال المشرفة على عكا.	١٠٠ ألف نسمة
الموارنة	: ويقطنون بصورة رئيسية في لبنان	٢٠٠ ألف نسمة
الروم الارثوذكس	: يقطنون متفرقين في جميع أنحاء سوريا	١٥٠ ألف نسمة
الأكراد	: (مسلمون):	٥٠ ألف نسمة
الأرمن	:	٣٥ ألف نسمة

اليهود :	(القدس ٧٠٠٠، دمشق ٥٠٠٠، حلب ٤٠٠٠، صفد ٢٠٠٠، طبريا ١٥٠٠، الخليل ٦٠٠، والبقية في بيروت وصيدا وأماكن أخرى).	٢٥ ألف نسمة
الاسماعيلية واليزيدية والنَوَر:		٢٠ ألف نسمة
مسيحيون (طوائف أخرى: كاثوليك ولاتين وبروتستانت)		٨٠ ألف نسمة
مجموع عدد سكان سوريا تقريباً سنة ١٨٥٧ (باستثناء البدو).		١,٦١٠,٠٠٠[1]

ان هذا التعداد لا يشمل أفراد القبائل العربية التي تتجول في البادية، ونحن لا نعرف الا القليل عن عددهم. وهناك اختلاف واسع في التقديرات، فالبعض يقول أن عددهم يقارب ٢٠٠ ألف نسمة، والبعض الآخر يقول أنهم لا يقلون عن ٥٠٠ ألف نسمة. ومما هو جدير بالملاحظة أن عدد سكان لبنان يقارب ٤٠٠ ألف نسمة.

أما أكبر مدينة في سوريا وأقدمها فهي دمشق التي يبلغ عدد سكانها نحو ١٢٠ ألف نسمة. ولكن عدد سكان القدس التي تُعتبر أكثر المدن اثارة على وجه الكرة الأرضية لا يزيد عن ١٨ ألف نسمة. وفي حلب ٧٠ أو ٨٠ ألف نسمة. ويتراوح عدد سكان بيروت ما بين ٤٠ إلى ٥٠ ألفاً، بينما يبلغ عدد سكان عكا ٥٠٠٠، وحيفا ٣٠٠٠، والناصرة ٣٠٠٠، وصفد ٤٠٠٠، وطبريا ١٥٠٠ وجنين ٢٥٠٠، ونابلس ١٢,٠٠٠، ويافا ١١,٠٠٠، والرملة ٤٠٠٠، وغزة ١٦,٠٠٠، والخليل ٦٠٠٠، وبيت لحم ٣٥٠٠.

ومع أن أبناء المذاهب المتعددة يعيشون معاً، الا أنهم لا يندمجون في مجموعة متكاملة، ولا ينظرون إلى بعضهم البعض نظرة الأخوّة، ومن هنا

---

١ ـ جاء في حاشية للكتاب منقولة عن كتاب آخر:
ان كثيرين من يهود دمشق وحلب أبناء بلاد وأثرياء: انهم عرب في كل شيء باستثناء الديانة. أما في فلسطين فاليهود جميعهم أجانب من أبناء بلدان متعددة.

تقوم النزاعات بينهم. وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة وهو أن البدو واليهود فقط يستطيعون تتبع منابع أصولهم العائلية، أما الأكثرية الساحقة من سكان المدن والقرى فقد تناسلوا من الأجناس المختلفة التي عاشت في هذه البلاد منذ أقدم العصور. وهذا هو أصل الخلافات والمنازعات التي كثيراً ما تنشب في سوريا.

صفـــــد

وصلنا إلى قرية قَدَس، وهي في موضع غير صحي، حتى أن المتاولة أسياد هذه الجبال يجدون صعوبة في العثور على أناس يقيمون فيها ويزرعون الأرض. والناس الذين يعيشون فيها الآن جاءوا من الجزائر، المستعمرة الفرنسية. لقد حصل عدة آلاف من الجزائريين على اذن بالإقامة في سوريا بعد أن وجدوا صعوبة في احتمال النير الفرنسي، ثم وصلت جماعة من هؤلاء إلى هذه القرية.

ثم أقبلنا على بلدة صفد، وفي وسطها القلعة. وعندما زرت هذه البلدة سنة ١٨٣٣ كانت أسوار قلعتها كاملة سليمة، إذ كانت معتقلاً لجميع المعارضين السياسيين لمحمد علي. وقد صعدت إلى سطح القلعة القائمة في وسط الأسوار فوجدت أنها تشرف على ما يحيط بها من مناطق حتى ان جبل طابور بدا منخفضاً بالنسبة لها، وبدت حطين كأنها في أحد الأودية.

تبدو صفد بلدة حديثة العمران، ذلك أن جميع المنازل فيها أُنشئت خلال السنوات العشرين الماضية، بعد أن أدّى زلزال ١٨٣٧ إلى تهدم جميع منازلها القديمة. ويبلغ عدد سكانها نحو خمسة آلاف نسمة نصفهم يهود، وهؤلاء خليط من مختلف أقطار أوروبا. وقد سمعت الكثير عن ذلك الزلزال الذي وقع يوم ١ كانون الثاني ١٨٣٧، ولكن أنباء الكارثة التي حلّت بالبلدة وبالقرى المحيطة بها لم تصل إلى بيروت الا بعد ثمانية أيام، بسبب صعوبة المواصلات في فصل الشتاء. كانت الانباء تقول أن البلدة كلها أصبحت ركاماً، وان طبريا أصابها ما أصاب صفد من دمار. وقالت بعض الرسائل أنه لم ينج من السكان سوى مائة شخص. بعد وصول هذه الأنباء

المفزعة بدأ جمع التبرعات، واعتزمت ان أزور المنطقة التي ضربتها الهزة. وفي طريقنا مررنا بصيدا وصور وشاهدنا مدى الدمار الذي لحق بهما، حتى اننا لم نستطع المرور ببعض الشوارع من جراء انهيار المنازل. لن أنسى تلك الليلة الكئيبة طوال حياتي. في قرية الجش لم يبق بيت واحد قائماً، وسقط سقف الكنيسة على المصلين الذين كانوا يؤدون صلاة المساء فيها، فقُتلوا جميعاً باستثناء الكاهن. وعند وصولنا إلى صفد كان منظر الدمار مخيفاً، فقد تساقطت المنازل المبنية في جانب الجبل واحداً فوق الآخر، وكان ركام كل منزل يهبط فوق ركام المنزل الذي تحته. كثيرون من الأهلين قضوا نحبهم تحت الركام لأن أحداً لم يستطع الوصول اليهم لانقاذهم في الوقت المناسب. كان الأشخاص الذين ظلّوا على قيد الحياة يتجولون بين الركام وهم يبحثون عن أقربائهم وأحبائهم. وعملنا على انشاء مستشفى مؤقت لمعالجة الجرحى والمصابين. بذلنا كل ما في وسعنا للتخفيف عن مصائب أولئك التعساء. وبعد أن تمكّنا من تأمين الحصول على خدمات طبيب محلي، غادرنا إلى طبريا، حيث اكتشفنا أن ما يقارب من ٦٠٠ شخص لاقوا حتفهم تحت الانقاض. من هناك اتجهنا إلى الناصرة فمررنا في طريقنا بقرى لوبية والشجرة وكفركنا والرينة ووزعنا فيها أدوية وملابس للمحتاجين. كانت لوبية والشجرة قد أصيبتا بدمار كبير. ولكن كان من المؤلم أن أهالي بعض القرى التي لم يلحق بها دمار هرعوا إلى صفد لممارسة أعمال النهب، حتى أن ابراهيم باشا أرسل مفرزة جنود من عكا لمنع أعمال النهب والاعتداء. وقد اضطررنا لدفع مبالغ كبيرة من المال لكي يقوم بعض الذين نجوا من الزلزال بمساعدتنا على نقل «أصدقائهم» المصابين الى المستشفى.

استأنفنا رحلتنا باتجاه عكا، ومررنا بقرية عَلْما. هنا أودية عميقة تكثر فيها الحيوانات الكاسرة كالنمر والدب والذئب والضبع، وحيوانات مفترسة أخرى. هنا يذهب المزارع إلى حقله وبندقيته في يده، وكذلك يفعل راعي القطيع بينما تتبعه كلابه. وعندما منع ابراهيم باشا حمل الأسلحة، تكاثرت الوحوش وتعاظم أذاها فارتفعت الشكاوى من الناس حتى اضطر الباشا أن يسمح للمزارعين في بعض المناطق باقتناء بنادق لحماية مواشيهم. وفي علما

قلعة تقوم على رأس تلة مرتفعة، وهي قلعة أنشأها أحد فروع أسرة علي الصغير قبل نحو مائة سنة.

وذات ليلة استمعت إلى أحاديث طويلة في قرية علما عن التحالفات العشائرية وعن أعمال الأخذ بالثأر وعرفت ما يلحق بالبلاد من جراء ذلك من أضرار. وكان الأمير بشير قد بذل جهوداً حثيثة لردع الناس، وأوقع عقوبات قاسية ببعض الأشقياء، فكان من نتيجة ذلك أن أخفى كثيرون أحقادهم في صدورهم إلى أن جاء سقوط ذلك الأمير سنة ١٨٤٠ بفعل الدول المتحالفة، فثارت الأحقاد من جديد ووقعت حوادث مأساوية عديدة.

وبالإضافة إلى التحالفات التي تعقدها هذه الأسرة مع تلك من أجل تأمين حماية خارجية، فإن تحالفات من نوع آخر تُعقد بين العائلات، ويكون المقصود منها تأمين الحماية الداخلية. ذلك أن عائلات معينة تعقد فيما بينها صلات مصاهرة يطلقون عليها اسم (مجاويز)، أي أن هؤلاء لا يزوجون بناتهم أو أبناءهم الا لبنات وأبناء العائلات الداخلة في تحالف (المجاويز) هذا. وهذه التحالفات العائلية تكون ضيقة جداً، ويبدو أن غايتها الرئيسية المحافظة على الثروة في داخل الأسرة الواحدة. ولكن لا يخفى ما في هذا التقليد من أخطار، وما يؤدي اليه تكرار الزواج بين الأقارب من تدهور في الصحة البدنية والسلامة العقلية للأنسال المتعاقبة. وقد عرفت حالات أسر من (المجاويز) لم يكن فيها فتاة واحدة في سن الزواج. ان هذا التقليد يؤدي أحياناً إلى وقوع جرائم قتل من جراء المنافسة على الزواج من فتاة بعينها. ويحدث أحياناً أن تُعقد زيجات غير متكافئة، ومن جملة ذلك أن رجلاً يعمل معنا في التعليم وعمره ستون سنة تزوج فتاة من قريباته عمرها ثلاث عشرة سنة. ان الزواج من القريبات ما يزال تقليداً مرعياً. فإذا ما تقدم خاطبان لفتاة واحدة، وكان أحدهما من أقربائها، فإن التقاليد تقضي باعطاء الأولوية للخاطب القريب. أضف إلى ما تقدم أن الآباء هم الذين يرتبون زواج هذا من تلك، فلا يبقى للفتاة المسكينة الا الخضوع. ان رغباتها لا قيمة ولا اعتبار لها عندهم. وقد عرفت حوادث مأساوية نتجت عن اكراه فتيات على

الزواج من أشخاص لا يملن اليهم. بل يحدث أحياناً أن الوالد يرتّب أمر زواج ابنته وهي ما تزال مجرد طفلة، لا تعرف أو تدرك شيئاً له علاقة بالزواج. ومن الأمور التي عرفتها ان البدو لا يتزاوجون مع الفلاحين، اعتقاداً منهم أن العمل في زراعة الأرض يحط من قدر الانسان. وانك لتجد بين هؤلاء البدو من هو في حالة فقر مدقع، ومع ذلك يتجاوز شعوره بالكبرياء شعور جوبيتر [كبير آلهة اليونان الأقدمين]. فما أعجب تناقضات الانسان وسخافاته. وعندما كنت في علما بلغ العجب بي حده عندما سمعت أن معزّبي يشكو من عدم اهتمام البدو بالنظافة قائلاً أنهم «ما بيعرفوا جنس النظافة». هذا في وقت كنت أجلس معه والبقر والماعز والاغنام تحيط بنا والطيور تعشش فوقنا، في نفس البيت الذي يعيش فيه. ولم يكن في مقدوري الا أن أوافق على كلامه. !!

ولكن لا بدّ أن تكون هناك فوائد يمكن أن نتعلمها من هؤلاء الذين يسكنون في بيوت الشعر. فقد حدثني ظاهر عبّود - وهو طبيب قضى عدة سنوات متنقلاً بين قبائل شرقي الأردن البدوية - أن الناس، حتى في بلدتين كبيرتين مثل السلط والكرك، ينصبون خيامهم في الحقول بعيداً عن منازلهم لتمضية شهور الصيف في الهواء الطلق ومع الطبيعة العذراء. وهو يعتقد ان الناس في تلك البلاد دأبوا على القيام بذلك منذ أزمان بعيدة. وأنا أعرف أن الفلاحين في جنوب فلسطين ما يزالون يقضون شهور الصيف في الحقول حتى أيامنا هذه. ولو كنت أنا مزارعاً عربياً لفعلت مثلما يفعلون. فلا بد أن يكون أمراً يبعث على السرور أن ينجو المرء من القرية ومنازلها المزدحمة، وما فيها من نفايات متراكمة - فيخرج إلى حيث الشمس الساطعة والكروم الزاهية، والهواء المنعش في الأرض العراء.

ومررت بقرية معليا وبعدها بترشيحا، وهي قرية كبيرة يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة آلاف نسمة. وفي هذه القرية يقيم الشيخ علي المغربي الذي أحرز نجاحاً في بث الدعوة لطريقته الصوفية حتى بلغ عدد مريديه نحو عشرين ألفاً كما يُقال. وكان أحد اتباعه قد أمضى نصف يوم في مكتبي وهو يحاول اقناعي باتباع الطريقة. وقد وجدت الشيخ يعيش حياة رفاهية

ورخاء بعد أن كان في غاية الفقر عندما بدأ دعوته. وهو متزوج من عدة نساء بعضهن من بنات أعرق العائلات في المنطقة. وفي معليا أحاطت بي فتيات ذوات حسن باهر، وعلى رؤوسهن غطاء يدعى (الصمْدة)، أغرب ما فيه صف من النقود القديمة يمتد من أعلى الرأس الى الخدين وحتى الذقن. وكانت جراءة هؤلاء الفتيات غريبة بين النساء انطلاقاً من التحفظ البالغ الذي يسود حياة أمثالهن في القرى الأخرى. ولا بد أن هذه الصمدة تزن ستة أرطال (انكليزية) ويُقال أن بعضها يزن عشرة أرطال. وإلى الجنوب من ترشيحا مزار الشيخ مجاهد.

مضيت من هناك إلى قرية جت وفيها آثار قديمة، ومنها مضيت إلى يرقا وسكانها من الدروز مثلها مثل جت. وبعد مسيرة ساعتين وصلت إلى بوابة عكا.

عكـــــا

جئت إلى عكا عبر الطريق الداخلية وليس عن طريق الساحل التي تمرّ بقرية الناقورة، وبالخان الذي يحمل اسمها. وتسير طريق الساحل من خان الناقورة إلى قرية الزيب. وهناك أشجار نخيل وأعداد كبيرة من خلايا النحل. ويستطيع المرء أن يشاهد القناة العظيمة التي يأتي فيها الماء من كابري إلى عكا. ويقول الناس أن الجزار باشا هو الذي أنشأ القناة القديمة، وأن نابليون أمر بتخريبها. ولكن كلا القولين غير صحيح، فالقناة أُنشئت منذ زمن بعيد، ونابليون لم يكن يخرب منشآت كهذه. أما القناة الجديدة فقد أنشأها سليمان باشا قبل خمسين سنة فقط. وغير بعيد من هنا يقوم قصر عبدالله باشا (البهجة) الذي ابتاعه مؤخراً صديقنا جمال بمبلغ ستين ألف قرش على الرغم مما حل به من خراب.

وكنا بعد مرورنا بالرميش قد جئنا إلى منطقة تكسوها الغابات الكثيفة، حيث تكثر قطعان الماعز والاغنام. وقيل لي أن الحيوانات البرية والمفترسة تكثر هنا ومن بينها فهود وذئاب ووعول برية وغزلان. وبعد مسافة تصل الطريق إلى قلعة جدين التي جدد ظاهر العمر بناءها قبل نحو

مائة سنة. وقد تبين لنا أن أحداً لم يعتن بهذه القلعة حتى دبّ الخراب فيها مثلها في ذلك مثل غيرها من قلاع سوريا وقصورها، حتى أصبح الكثير منها أماكن يلجأ اليها البدو ومعهم قطعان ماشيتهم.

أما السهل الواقع بين ترشيحا ومعليا فوافر الخصوبة تزدهر فيه زراعة الحبوب.

وأسرعنا بالمسير نحو عكا، حتى ندخل اليها في الوقت المناسب، لأن بوابتها تُغلق عند مغيب الشمس ولا تُفتح بعد ذلك لأي سبب من الأسباب حتى صباح اليوم التالي. إن عكا ذات تاريخ عريق، وتعود تسميتهاالحالية إلى فرسان الصليبيين، وكانت آخر المواقع التي سلموها إلى سلطان مصر سنة ١٢٩١، وبتسليمها انتهى آخر موقع للافرنج في فلسطين. وقد حاصرها ابراهيم باشا لمدة ستة أشهر، ثم زرتها بعد استيلائه عليها مباشرة وشاهدت الدمار الشامل الذي حل بها. ولكن ابراهيم عمد في الحال إلى العمل في اعادة تعميرها وتحصينها، وظل مستمراً في ذلك طوال المدة التي قضاها في سوريا. ولم تمض الا عشر سنوات حتى قصفها الاسطول البريطاني بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٨٤٠ وهدم حصونها. ولم يلبث حتى استؤنف العمل في بناء الحصون والأسوار مرة أخرى، حتى أصبحت الآن أقوى مما كانت عليه قبلاً. ولكن ما يزال في داخل المدينة خراب كبير. وللمدينة بوابة واحدة من ناحية البر، وهناك بوابة أخرى تؤدي إلى السفن الراسية في الميناء. وعند غروب الشمس يتم اغلاق البوابتين. وأبنية المدينة الحديثة تقوم فوق الركام الذي خلفته الأجيال المتعاقبة خلال حياتها الطويلة المليئة بالحروب والدمار وإعادة البناء. ولكن أهمية عكا أخذت تتضاءل، بعد أن بدأت السفن ترسو في حيفا، لأن الماء في خليج عكا غير عميق، حتى أن عدداً من التجار نقلوا مكاتب عملهم إلى حيفا.

من حيفا إلى طبريا

مضينا من عكا إلى حيفا، ومررنا في أثناء ذلك بنهر النعماني (النعامين) الصغير الذي تبدأ منابعه من شفا عمرو، وتُعرف تلك المنابع

هناك باسم الكرداني. وقد لاحظنا في أثناء سيرنا أن الناس الذين يصادفوننا كانوا يحملون أسلحة، وقد زال استغرابنا عندما قيل لنا أن حوادث سلب كثيرة تقع هنا. وبعد مسافة وصلنا إلى نهر المقطّع (قيشون) وشاهدت كرماً من أشجار النخيل هي أجمل ما شاهدت من نوعها في سوريا.

لقد تحسنت حيفا كثيراً منذ زيارتي الأولى لها قبل ثلاثة وعشرين عاماً. وبما أن البواخر التي تسافر بين بيروت ويافا تتوقف هنا، فلا بد أن تزداد أهميتها مع مضي الزمن. ولم يكن قصدنا التوقف في حيفا بل ان نصعد إلى جبل الكرمل المطل عليها حيث نزور الدير هناك ونرتاح عند رهبانه الكرمليين. فالدير مزيج من فندق ومكان للعبادة. اتجهنا بعد ذلك (١٤ آذار) إلى شفا عمرو، وشاهدنا الكثير من أشجار اللوز وقد تفتحت أزهارها، كما ألفينا الأرض كاسية بالنباتات ذات الأزهار الرائعة بألوانها وعطورها. ولكننا لاحظنا أن الفلاحين كانوا أكثر تعاسة من فلاحي لبنان. ولا شك أن هذا ناشىء عن الظلم الذي يقع عليهم من قبل البدو، وعلى أيدي هؤلاء الذين يتولون مسؤولية زراعة الأرض. الفلاح العامل لا يبقى له الا القليل القليل. فصاحب الأرض يقدم للفلاح سلفة من المال يستعين بها على تدبير أموره المعاشية مقابل نسبة من المحصول تتراوح ما بين ٣٠ و ٥٠ بالمائة. هذا النوع من الاستغلال كان من جملة البلايا التي طالما عانت البلاد منها. إن المزارع يملك صلاحيات واسعة تؤيدها الحكومة، فهو يأخذ كل ما يستطيع حتى يستردّ أمواله مع الفوائد عليها أيضاً. لذلك ليس غريباً أن يتحول الواحد من هؤلاء الفلاحين المساكين، نتيجة للمظالم المستمرة التي تحل به، إلى شخص نكد الطباع، سيء الأوضاع، لا يتعامل مع الآخرين بالامانة المعتادة. وما دام أن ظالميهم لا يعاملونهم بالاحترام والرحمة فإنهم بدورهم يتصرفون بقسوة تجاه كل من يقع أو ما يقع تحت أيديهم.

إن نظام جمع الضرائب يزيد من عدد الأسياد الصغار الذين يأكلون الشعب كما يأكلون الخبز. وهناك دعاء متداول يستعمله الرجل ضد اعدائه، فيقول «الله يكثّر مشايخهم». ولا شك أن كثرة الشيوخ تزيد من مصائب أي جماعة من الناس. والانسان يحتاج إلى قوة ملاحظة عميقة جداً وطويلة كي

يدرك مدى الضرر الذي يلحقه هؤلاء الأسياد بعامة الشعب. والواقع أن الملاكين والشيوخ والبكوات والأمراء هم أنفسهم، وبصورة عامة فقراء جائعون طماعون قساة. أما الباشوات الذين ترسلهم العاصمة الى المناطق البعيدة من بلاد الدولة، فيحل كل واحد منهم على المنطقة المخصصة له كما يحل السيل العرم على الأرض، بحيث يجرف كل شيء يجده في طريقه. وقد أدّى جشع هؤلاء إلى أن مناطق واسعة كانت في السابق خصيبة كثيرة الغلال والخيرات، أصبحت الآن أرضاً يباباً لا ينبت فيها الزرع ولا يقيم فيها الانسان.

وأهل هذه البلاد يمقتون الربا والمرابين أشد ما يكون المقت، وهذا على الأرجح ناشىء عن اختباراتهم المأساوية في هذا المجال. والناس هنا ـ مسلمون ومسيحيون ـ يعتبرون أخذ الفائدة خطيئة. ولكن على الرغم من كراهية الناس للمرابين وأعمالهم فإن الربا شائع ومنتشر. فكل من يجد شخصاً يقرضه يستقرض، وكل من يملك مالاً يقرضه. ونسبة الفائدة كبيرة: النسبة الدارجة هي ٢٥٪ ولكنني أعرف حالات ارتفعت فيها نسبة الفائدة إلى مائة بالمائة. فلا عجب أن يصبح هؤلاء الفلاحون قساة وغير أمناء. وكيف تبقى لديهم أمانة ورحمة وهم يتعرضون طوال حياتهم للقسوة وقلة الأمانة؟ ومن هنا يمكن تفسير القسوة التي يعامل بها الفلاح ثوره الصغير في أثناء عملية الحراثة، اذ تراه يخز جلده بطرف منساسه الحاد، كأنه يجد لذة في تعذيب الحيوان المسكين.

لشفا عمرو مظهر مهيب بقلعتها الكبيرة وحجارتها البيضاء. اما عدد سكانها فيقارب ألفي نسمة، وهم خليط من الدروز والمسلمين والمسيحيين واليهود. وإلى جانب البلدة غابة من شجر البلوط تُعتبر من أكبر الغابات في البلاد.

ومضينا إلى الجليل، إلى قرية مجد الكروم، وهناك شاهدنا قطيعاً كبيراً من الأغنام. منذ بضعة أشهر سارت هذه الأغنام من سهول الفرات، وها هي الآن تتجه نحو عكا ومدن الساحل الأخرى. الشرق هو أرض الأغنام.

كل سنة يُؤتى بأعداد كبيرة من هذه الأغنام من جهات الشمال. في سنة ١٨٥٣ كانت طريق الداخل غير مأمونة، فجيء بالأغنام عن طريق الساحل. وخلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول كان خط الشاطىء كله مغطى بها. إنها تأتي من شمالي سوريا ومن العراق، وهي تسير ببطء وبحركة متناسقة، ولكن أعدادها تتناقص على الطريق بسبب البيع. لا بد أن يكون العدد في غاية الضخامة عندما تبدأ القطعان رحلتها من بوادي الفرات البعيدة. حقاً ان السهول الشمالية تعج بالاغنام، ولذلك تراها تنتج ما يكفي لسد حاجة البلاد كلها.

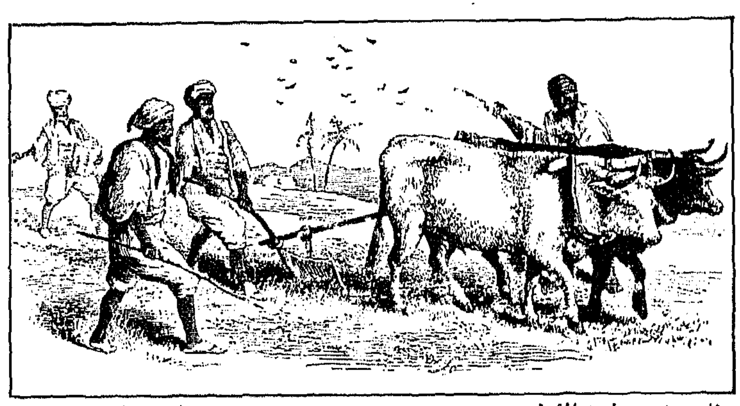
مررنا بالرامة بين أشجار الزيتون الكثيرة. هذه التلال الخضراء حافلة بخيام البدو في هذا الفصل، ومن المشاهد الرائعة منظر الرجال وهم يصرخون وراء قطعانهم ويحاولون لملمة جماهم المنتشرة هنا وهناك. وعندما وصلنا إلى قرية المغار استقبلنا صديقنا (ج) مرحّباً: أهلاً، أهلاً وسهلاً. لقد كتب لي أخي أنكم قادمون، ولكنكم تأخرتم. ودعانا الصديق إلى منزله ولكننا اعتذرنا وآثرنا أن ننصب خيمتنا ونبيت فيها.

بالقرب من هنا تقع قرية عيلبون، وقرية دير حنا التي توجد فيها قلعة أبناء ظاهر العمر والتي ما يزال الناس يقيمون فيها.

من الجدير بالذكر أنني توقفت سنة ١٨٤٨ بالقرب من عين التينة لتناول طعام الغداء، وأشعل خادمي النار لكي يصنع لي فنجان قهوة. وفي أثناء ذلك جاء رجل من بين الحصادين القريبين من موضعنا، ووقف ينتظر دون أن ينطق بكلمة واحدة. وعندما غادرنا موضعنا عمد إلى اطفاء النار بعناية تامة. ثم علمت أنه جاء خصيصاً لكي يطفىء النار لئلاّ يسري اللهب بين الأعشاب ويحدث حريقاً كبيراً. وقد جاء في كتاب الرحّالة بيركهارت أنه ذهب مع أحد الأدلاّء من طبريا إلى مغائر وادي الحمام، وان ذلك الدليل كان على الدوام يوبخه على عدم مبالاته وهو ينفض الرماد من غليونه. ثم يضيف بيركهارت قوله «إن البدو الذين يقطنون وادي الأردن ينفذون حكم الاعدام في أي شخص يتسبب في اشعال النار في الحشائش الجافة، حتى لو

أن ذلك كان دون قصد، وقد عقدوا فيها بينهم اتفاقاً بأن لا يشعل أحد النار في زروع اعدائه، حتى لو كانت الحرب بينهم في أشد الاستعار».

هؤلاء الفلاحون الذين نراهم من أهل المغار تمتد أراضيهم مسافة ثمانية أميال وهي مسافة يعتبرونها بعيدة عن القرية، لذلك يعمدون إلى سوق ثيرانهم أمامهم، ويحملون فرشهم وأوانيهم وطعامهم ومحاريثهم وحبوب البذار على ظهور الحمير، ويقضون أياماً في العراء حتى يفرغ كل واحد من حراثة أرضه وزراعتها. إنهم لا يحملون معهم الا القليل من الطعام: ارغفة خبز، وحب زيتون، وبعض اللبن المجمد. وعندما يستبد بهم الجوع تراهم يجلسون بالقرب من نبع الماء ويأكلون. وإذا تعبوا أو شعروا بالرغبة في النوم فإن الواحد منهم يلتف بعباءته وينام راضياً. أما في الليل فإنهم يلجأون إلى احدى المغائر وهناك يشعلون النار ويحمصون خبزهم، وإذا كان أحدهم قد اصطاد طائراً أو سمكة فإنه يشويها على النار. ولكن التدخين هو أهم متعة عندهم، فتراهم يجلسون ويتبادلون الأحاديث والنكات البسيطة، وبذلك كله يشعرون أنهم سعداء. أما أكثر ما يبعث الخوف في نفوسهم فهو مجيء البدو الغلاظ الذين يقيمون وراء بحيرة طبريا. وإذا حدث شيء من هذا فإنهم يحملون كل ما يكون لديهم من سلاح ويستعدون لملاقاتهم كأنهم سيذهبون فعلاً إلى الحرب.



مزارعون يحرثون الأرض (عن كتاب تومسون)

ومن عاداتهم أنه إذا وصل رجل غريب إلى قرية أو إلى مضارب البدو، فإن الأهلين يدعونه واحداً بعد آخر لكي يتناول الطعام معهم. وهم يراعون هذه العادة بكثير من التشدد، ويكرهون الشخص الذي يخفق في القيام بها. وقد اتخذ المبشرون قراراً بأن لا يتقبلوا الدعوات على هذه الطريقة، لما تنطوي عليه من مضار، خصوصاً أنهم جاءوا لكي يدعوا الناس إلى التوبة.

وتكثر أشجار التين هنا. ومن عاداتهم بهذا الشأن أن عابر السبيل يستطيع أن يلتقط حبات التين الناضجة عن الأشجار المحاذية للطريق، خاصة إذا لم يكن هناك سياج حولها في محاذاة الدرب. وبعد عيد الصليب الذي يقع في شهر أيلول يصبح كل ما تبقّى على أشجار التين من ثمر مباحاً لعامة الناس، فيُسمح للفقراء بأن يدخلوا إلى الكروم ويلتقطوا ما يجدونه فيها من ثمار.

لم تستغرق المسافة من عين التينة إلى الطابغة على شاطىء بحيرة طبريا، سوى ربع ساعة. هنا ينابيع ماء غزيرة، وتنمو أشجار الدفلى بكثرة، حتى أن بعضها يرتفع عشرين قدماً. أما أزهارها الجميلة فتبعث البهجة في النفس. ولا أشك في أن تل حوم (القريبة من الطابغة) هي كفر ناحوم التي ذكرها الانجيل. أما الطابغة فقد كانت على الأرجح ضاحية من ضواحيها. ولا بد أن تكون كلمة (طابغة) من كلمة (دباغة)، إذ من المعروف أن مصانع للفخار ودبغ الجلود كانت تقوم هنا عند النبع في الزمن القديم.

مضينا من هنا باتجاه مجرى نهر الأردن الى الشمال من بحيرة طبريا، وقد شاهدت هنا قطعان كثيرة من المواشي والجمال والأبقار التي جاءت من أرض الجولان الباردة لقضاء فصل الشتاء.

وبسبب حرارة الطقس في هذه المنطقة الواطئة فانك ترى الأعشاب قد نمت وأزدهرت في شهر كانون الثاني. ولقرب الجبال العالية من هذا الوادي

ترى الرعاة يستطيعون الانتقال من منطقة صيفية الى منطقة شتوية في غضون ساعة واحدة. ولكن في شهر أيار تتحرك قطعان الماشية إلى المناطق العالية والباردة إلى الشرق من نهر الأردن.

هنا شاهدت الجواميس تسبح في المستنقعات. ومن الملاحظ أن عدداً من الانهار في سوريا تتحوّل إلى مستنقعات في أثناء سيرها: فأنهار دمشق تجري كلها إلى مستنقعات وأرض سبخة، ونهر العاصي يزحف بين المستنقعات من ربلة الى انطاكية، ونهر الأردن يحول الأرض إلى مستنقعات من بانياس إلى طبريا، ونهر المقطّع والنعامين يجدان طريقهما إلى خليج عكا من خلال مستنقعات عميقة الغور، وكذلك شأن نهر الزرقاء (او التمساح) في قيصرية، وقل مثل هذا عن أبو زابورة والقناة والفالج والعوجا بين حيفا ويافا.

إلى الشرق من طبريا

ونعبر المخاضة الكثيرة الحجارة، ويتأرجح البغل وهو يعبر الماء وعلى ظهره فراشنا ومتاعنا. ونمر بأرض البطيحة التي ترويها المياه، وهي ذات خصوبة وافرة. هنا جداول ماء لا تنضب في أيام الصيف. وأنا أؤكد ما رواه بيركهارت من أن موسم الخيار والليمون يأتي في البطيحة أبكر من غيره في جميع هذه المناطق. وقد حدث أنني زرت هذه الناحية في أوائل الربيع ومعي دليل من صفد جاء لكي يحمل على بهائمه الخضار والفواكه إلى السوق في بلدته. وبالفعل ابتعنا بعض الخيار من البستاني لكي نأكله في المساء (٢٣ آذار).

ومضينا إلى موقع سماقة ومنها إلى جويزة حيث قضينا ليلتنا بالقرب من بيت شعر الأمير حسين الفضل، الزعيم الأكبر لكل العرب في تلك الناحية من الجولان. انه شاب هادىء الطبع متواضع، قليل الكلام، ولكنه مخلص وصادق ـ وهي صفات استثنائية في هذه البلاد، وخاصة لمن يكون في مثل مقامه ومكانته. وهو يقول أن اسرته تعود في أصلها إلى النبي محمد. وترى كبار شيوخ الجولان وامرائه يقبّلون يده اعترافاً بمنزلته الرفيعة.

واستقبلنا الأمير بحفاوة، وتم تحميص القهوة، وأمر بشاة فذُبحت وتم طبخها بسرعة أمام خيمتنا، ثم بُسطت مائدة الطعام بعد أن تم اعداده بسرعة في حضور الأمير.

لم يكن هناك أكثر من ثلاثين بيت شعر، ودهشت إذ علمت أن معظم هؤلاء عبيد للأمير. لقد كان هؤلاء كما كان أسلافهم من اتباع أسرته منذ عدة أجيال. ومع مرور الزمن أصبحت ملامح وجوههم أشبه بملامح وجوه العرب، مع أن البدو الأصلاء لا يصاهرونهم. وقد حدثني عن هذه الأمور كبير خدم الأمير الذي رافقنا في اليوم التالي في زيارة المنطقة المحيطة بالموقع. وقد سألته: هل يمكن للأمير أن يبيعكم؟ وكان جوابه: يبيعنا؟ استغفر الله! حقاً إن هؤلاء أتباع للأمير، ولكنهم في الوقت نفسه رجال الحرب الذين يلتفّون حوله في وقت الحاجة. وبدا لي أنهم متعلقون بالأمير وباسم اسرته، وتعتمد سلامتهم وهيبتهم عليه. بل أن أحد هؤلاء يقوم بادارة أعمال الأمير، ويتمتع بصلاحيات واسعة في أداء مهامه. وقد علمت أن جميع عرب الحولة والجولان يخشون كبير الأعوان هذا ويتودّدون اليه.

في مساء ذلك اليوم أخذت قطعان الماشية تعود من المراعي لتهجع في موقع جويزة. كان المشهد حافلاً بالحركة والحيوية. ولا سيّما عندما انطلقت العجول والجداء والخراف الصغيرة من حظائرها لكي تلتقي بامهاتها وترضع من أثدائها. وبعد فترة من الزمن تلاشت الضوضاء وساد الهدوء في تلك المضارب، الا الكلاب التي ظلت تنبح طوال الليل. من المفترض أن يحول وجود هذه الكلاب اليقظة دون قيام اللصوص باستلاب ما يستطيعون القاء أيديهم عليه.

في أثناء الليل أصبح الطقس بارداً، ولا عجب في ذلك، إذ اننا الآن في أراضي الجولان المرتفعة. وعند الصباح غادرنا موضعنا ومعنا دليل انتدبه الأمير لمرافقتنا، ورسالة منه وجهها إلى الشيخ فرج. وبعد مسيرة طويلة وصلنا إلى خربة القنيطرة [غير بلدة القنيطرة]، غير بعيد عن خرائب سحم الجولان، ثم إلى خربة الأربعين، ومنها إلى وادي سقوفية حيث وجدنا



المحماسة وجرن القهوة والمهباش والأباريق عنوان الضيافة عندالبدو

(عن كتاب روبنسون ليس)

الشيخ فرج، فنصبنا خيمتنا قريباً من خيمته بعد أن أنهكنا التعب. لم نجد الشيخ بل وجدنا أخاه الذي وبخ دليلنا لأنه جاء بالضيوف في وقت متأخر من المساء بحيث يصعب القيام بتكريمهم كما يجب، خصوصاً وأن قطعان الشياه كانت في مواقع بعيدة. وقد أكدّتُ له اننا نملك ما يكفينا من الزاد ولا نحتاج الا لبعض العلف لخيولنا. ولم يلبث حتى جيء بالعلف الذي طلبناه.

لاحظت في جميع المضارب التي مررنا بها أن خيمة الشيخ تتميز عن غيرها برمح طويل مغروس في الأرض أمامها.

إن البدو يتناولون وجبة العشاء عند مغيب الشمس، وتكون في العادة وجبة ثقيلة ولذلك تراهم يشربون الكثير من الماء بعدها.

أذكر من الحوادث التي شاهدناها خلال مسيرتنا الطويلة في ذلك اليوم، أن فتاة صغيرة في نحو الثانية عشرة من عمرها كانت ترافقنا. انها ابنة دليلنا وكان يجيء بها إلى عريسها في مضارب الشيخ فرج، وقيل لنا أنه دفع الف قرش (تساوي ٤٠ دولاراً يومذاك) مهراً لها. ولم يكن يرافق الفتاة الصغيرة غير حمار صغير الحجم، كانت تلاحقه باستمرار لئلّا يخرج عن الطريق، دون أن تكل أو تمل. لقد أهمني أمر هذه الفتاة الشجاعة، وصلّيتُ في أعماق قلبي أن تجد في زوجها الذي لم تره حتى الآن، رفيقاً طيباً. وكنت لاحظت أن الصبية عندما غادرت خيمة أمها في جويزة كانت تضع في قدميها جزمة من الجلد الأحمر، ولكنها لم تلبث حتى خلعتها ووضعتها تحت حزامها، ثم أخذت تسير طوال الطريق الوعرة من الصباح حتى مغيب الشمس بقدميها العاريتين. ان بناتنا لا يفعلن شيئاً من هذا في يوم زواجهن.

أمضى الشيخ فرج الأمسية في خيمتنا وأعجبنا منه سلوكه الرصين وذكاؤه. لقد شكا بمرارة من الأسلوب الذي تتبعه الحكومة، إذ أن محصلي الضرائب يسرقون البدو وينهبونهم دون رحمة، وقال ان البدو مضطرون للنهب بدورهم. قال هذا على سبيل الاعتذار بعد أن بدا واضحاً أن رجاله مشغولون دائماً بالهجوم على الآخرين أو بالدفاع عن أنفسهم في وجه هجمات الآخرين. وكان مما قاله: إنني أعيش يوماً بعد يوم بفضل هذا

السيف. قال هذا وهو يخبط بيده على السيف الذي كان يضعه إلى جانبه. واعترف فرج أنه لولا الدليل الذي أرسله الأمير معي ومرافقته لي، لما كان بالامكان وصولي الى خيمته بسلامة، وأنني دون مساعدته هو لن أتمكن غداً من زيارة الشاطىء الشرقي للبحيرة. والحقيقة انني اقتنعت، بناء على مجمل اختباراتي، بصحة أقواله تلك.

وادي سمخ

بعد مسيرة نحو أربعة أميال في وادي سمخ، شاهدنا فوقنا أسوار قصر بردويل المتصدعة. وهذا هو الإسم الذي يطلقه العرب على قلعة بلدوين ملك الصليبيين الشهير. ثم مررنا بخرائب موقع قال لي البدو أن اسمه كرزا، وأنا اعتقد أنه هو جرجسة الذي يذكر الانجيل أن اعجوبة اخراج الأرواح الشريرة من الرجلين حدثت فيه. فإذا صحّ هذا، بطل الإدعاء القائل بأن تلك العجيبة حدثت في جدارا (ام قيس)، لأن جدارا بعيدة عن بحيرة طبريا، بينما تدل النصوص التي أوردتها الأناجيل على ان المكان الذي حدثت فيه الأعجوبة كان قريباً من شاطىء البحيرة. أما جدارا فتبعد عن الشاطىء مسافة ثلاث ساعات.

تُعتبر هذه المنطقة من أكثر المناطق خطراً. وكان من حسن الحظ أن الشيخ فرج أعطاني رسالة توصية إلى الشيخ محمود، الذي كان يخيّم على رأس قبيلة كبيرة جنوبي قلعة الحصن، كما أنه زوّدنا بثلاثة من فرسانه لحمايتنا. وبالفعل مررنا بسلام، وأدركنا مدى حسن حظنا عندما التقينا على حين غرة بجماعة من البدو على ظهور خيولهم وهم مسلحون بحرابهم الطويلة. وأسرع أحد رفاقنا خبباً على حصانه وقال لهؤلاء: اننا تحت حماية الشيخ فرج. وتذمر البدو وهم يتفحصون بأنظارهم بهائمنا وأحمالها، ولكنهم لم يجرؤوا على مسّنا بأي أذى. ان أمثال هؤلاء الغزاة هم الذين يتسبّبون فيما نراه من عدم وجود العمران في هذه البلاد الجميلة. وقد علمنا ان هذه الجماعة التي لقيتنا من أفراد قبيلة الذياب. ولم ألبث حتى وصلت إلى مضاربهم وأعطيت الرسالة إلى شيخهم، فقابلني بالترحاب وألحّ علي في ان

أقضي ليلتي في ضيافته. وعندما أيقن من اعتزامي مواصلة السير، ذهب إلى شق الحريم وجاء بأرغفة خبز وصحن فيه دبس وجلس إلى جانبي، وغمس قطعة خبز بالدبس وأعطاها لي، بل أنه دعا رفاقي جميعاً للاشتراك في تناول الطعام. كان ذلك ذا أهمية، أفصح عنها بقوله: «نحن الآن اخوان، فبيننا خبز وملح، وتستطيعون أن تتنقلوا حيثما شئتم في هذه المنطقة، ولسوف ادافع عنكم حتى ولو فقدت حياتي في سبيل ذلك». هذا هو عهد الأخوّة الذي يقطعه العرب بعضهم لبعض، وهو عهد لا يجوز نسيانه أو التنكر له. وهم دائماً يستنكرون تصرف الافرنجي المتحضر لأنه لا يحفظ عهد الخبز والملح.

وعلى ذكر الملح يمكن القول أن ملح الطعام الذي يستعملونه في هذه البلاد ليس ملحاً نظيفاً يتم استخراجه من الماء بعد غليه، بل انهم يجمعونه من الأراضي السبخة على طول الشاطىء أو من بحيرات الملح في داخلية البلاد، عندما تجف في فصل الصيف. وأنا أعرف تاجراً استورد كمية كبيرة من الملح من جزيرة قبرص.

قبل أن نستأنف سيرنا ذهبت لتوديع أخينا الجديد محمود، وقد سار الشيخ إلى جانبنا بعض المسافة وأرسل معنا اثنين من الرجال ليرشدونا إلى سمخ. وكان أحد هذين ثرثاراً فسألته: لماذا لا يزرعون وادي الأردن الخصيب بدل أن يقوموا بشن الغارات؟ فقلب شفتيه ازدراء وهتف قائلاً: ماذا؟ البدوي يحرث بالمحراث؟ استغفر الله!! الغزو مهنتنا وليس الفلاحة. وفيما بعد أظهر هذا عدم رضاه عن الهدية التي قدمتها له، وقال بصراحة انه يتمنى أن يلتقي بنا في وادي منظور (وادي المناظرة) ليأخذ منا ما يريد. وبهذه المناسبة أعرب عن استغرابي لأن أشخاصاً متعلمين يدافعون بفصاحة عن هؤلاء البدو. لقد وقع بيركهارت تحت تأثيرهم وأبدى اعجابه بصفاتهم، مع أنه لا بدّ أن يكون قد عرف الكثير من عيوبهم ونقائصهم.

في أثناء اقامتنا في وادي سمخ، التي استمرت ثلاثة أيام زرنا موقع قلعة الحصن. وهي (جمالا القديمة) وتفحصنا آثارها. ان البدو تخامرهم

الشكوك في زيارات الرحّالين للمواقع الأثرية، اعتقاداً منهم أن هناك كنوزاً من المال والجواهر تحت هذه الآثار، وان الرحالين يملكون أسرار مخابئها، وأنهم يقصدون أن يتفحصوها في النهار لكي يعودوا خلسة في أثناء الليل ويستخرجوها. وهم يروون الحكايات الكثيرة عن هذه الكنوز وعن الجان الذين يحرسونها، حتى أن قصص الف ليلة وليلة تصبح باهتة ازاء القصص المثيرة التي يروونها بهذا الشأن. ومن المرجح أن هذا الاعتقاد هو الذي يكمن وراء الشكوك التي تساور البدو في حقيقة غايات السياح والرحالين، ويحول دون ارشادهم إلى بعض الأماكن التاريخية المهمة. فهم لا يستطيعون أن يستوعبوا أو يهضموا فكرة قيام الرحّالين بتكبد المشاق وانفاق الأموال لمجرد مشاهدة أكوام من الحجارة القديمة!

والآن دعني ألقي نظرة على ما حولنا من مواقع. فهناك النقيب إلى الشمال، وهناك فيق إلى الشرق، وهي قرية كبيرة على رأس الجبل، تضم نحو مائتي عائلة ابتنوا لانفسهم بيوتاً من حجارة المدينة القديمة. أما إلى الجنوب فتقع قرية كفر حارب. وهناك أيضاً خان العقبة. وها نحن في طريقنا إلى سمخ، القرية الوحيدة المأهولة في أرض الدلتا الخصيبة التي تكونت بين البحيرة ونهري الأردن واليرموك. ان القرية تضم نحو مائتي بيت بُنيت في محاذاة بعضها البعض، وجميع سكانها مسلمون، وفيها بيت لنزول الغرباء يسمونه (المنزول).

تقع جدارا (أم قيس) على رأس الجبل إلى الجنوب من وادي اليرموك العظيم. أما حماماتها الشهيرة (الحمة) فتقع بالقرب من مجرى النهر. وقبل فترة زمنية قصيرة أُقيمت سوق كبيرة عند هذه الحمامات، وما يزال الناس يتحدثون عن الأوقات السعيدة التي قضوها هناك.

فيما مضى كانت الدرب الكبيرة التي تأتي من الغرب إلى منطقة بيريا والديكابوليس وما بعدهما، تعبر نهر الأردن فوق هذا الجسر الذي يدعونه جسر القناطر، وهي تسمية تتعلق بالقناطر العالية التي يمتد الجسر فوقها، والتي يبدو أنها لم تكن تقل عن عشر قناطر، ولكن جوانب أكثرها أصبحت

الآن مهدمة. والجسر الوحيد الصالح للعبور في الوقت الحاضر هو جسر المجامع، الذي يبعد نحو سبعة أميال عن البحيرة. وفي فصل الربيع المنصرم قضيت ليلة ويوماً هناك مع عقيلة آغا. ويلتقي اليرموك بالأردن على بعد ميل تقريباً شمالي المجامع، حيث يوجد جسر منيع من الحجارة. وغير بعيد من هناك موقع قديم يُدعى (الدَهْمَيّة). وإذا كان المسيح قد زار جرش وبيلّا وجدارا، فمن المحتمل أن يكون قد عاد عن طريق الدلهمية.

أما تعرّجات نهر الأردن بعد خروجه من البحيرة فتبعث على العجب. انه يسير اولاً إلى الشمال ثم إلى الغرب ثم إلى الجنوب الغربي وأخيراً باتجاه الجنوب.

وعلى بعد ثلاثة أميال تقريباً تقوم قرية كبيرة على تل قرب النهر. إنها تدعى العبيدية، وهي ذات أراض مزروعة جيداً. أما إلى الجنوب منها فالوادي كله مُشاع للبدو، إذ لا توجد قرية واحدة من هناك حتى أريحا. ولكن هناك خرائب بناء يدعى طواحين السكر، وليس من المستبعد أن نبات قصب السكر كان يُزرع هنا ويُعصر بعد ذلك في الطاحونة (المعصرة).

أخيراً وصلنا إلى حمامات طبريا التي يأتي اليها ذوو الأوجاع والعاهات، حتى أن الشخص المعافى قد لا تطاوعه نفسه على النزول إلى بركة الماء الساخنة مع هؤلاء الناس. وكنت قد زرت هذا المكان سنة ١٨٣٣ عندما كان ابراهيم باشا ينشيء هذه الأبنية، ومن حسن الحظ انها لم تتأثر أو تتصدع بفعل الزلزال الذي حدث سنة ١٨٣٧.

لم نلبث حتى وصلنا إلى بلدة طبريا التي يعتبرها اليهود واحدة من مدنهم الأربع المقدسة. والبلدة الحالية تقع على شاطىء البحيرة، وهي محاطة بسور، تمت تقويته بعدد من الأبراج. ولكن زلزال سنة ١٨٣٧ أدّى إلى سقوط جوانب كبيرة من السور، ثم لم يجر اصلاحه منذ ذلك الحين. ولا توجد في سوريا بلدة تماثل طبريا في كثرة أوساخها. وهي في الصيف شديدة الحرارة وتكثر فيها الهوام والحشرات، ولذلك لا يقبل الناس على الإقامة فيها. ولكن على الرغم من كل هذا يقيم فيها نحو ألفي شخص أكثرهم من

اليهود، وقد جاء بعضهم أصلاً للاستشفاء من أمراض أبدانهم وجاء آخرون بحثاً عن شفاء نفوسهم.

تمتد الطريق من طبريا إلى الناصرة على مسافة ست ساعات. وقد اتجهنا شمالاً فوق الشاطىء الصخري إلى المجدل. وهنا كنا شاهدنا الجراد الذي غزا البلاد سنة ١٨٤٥ وأكل الأخضر واليابس. ويذكر بيركهارت الذي زار هذه المنطقة سنة ١٨١٢ أن جميع بدو شبه الجزيرة وسكان مدن نجد والحجاز اعتادوا أن يأكلوا الجراد، بل يقول أنه شاهد في المدينة والطائف دكاكين لبيع الجراد حيث تُباع (بعد تجفيفها) بالمكيال. والمجدل قرية صغيرة فيها نحو عشرة بيوت واطئة ومتلاصقة. إنها قرية مريم المجدلية، ولكن الأرض المحيطة بها تموج بمزروعات القمح والشعير الخصيبة. ثم دخلنا إلى وادي الحمام الكبير الذي أخذ اسمه من طيور الحمام الوافرة العدد التي تعيش في الصخور والشقيف الذي يعلو فوقها. وهذه التحصينات والأسوار التي تحيط بالمغائر تدعى الآن قلعة أبو معن، ولكن في الزمن القديم كانت تُعرف باسم اربيلا، وهو اسم قرية تبعد قليلاً عن الشقيف وتدعى خرائبها (اربد) [وهي غير اربد حاضرة محافظة الشمال في الأردن].

ونصل إلى حطين فنرى أشجار صبّار عملاقة تحيط بها. وقد شاهدت مثلها في لوبيه إلى الجنوب وفي الشجرة التي تقع بين لوبيه وجبل طابور. ان هذا الصبار يؤلف أسواراً منيعة حول الكثير من قرى الجليل، لأن الانسان أو الحيوان لا يستطيع أن يتسلقها، كما أن النار لا تقوى على التهامها. تقع القرية في سفح تلال (قرون) حطين، وهي تلال اشتهرت بسبب المعركة التي لحقت فيها الهزيمة المنكرة بالصليبيين، سنة ١١٨٧ على يد صلاح الدين العظيم. وان رؤية قرني حطين لتدل على سوء تدبير قادة الصليبيين، الذين سمحوا لأنفسهم بالتراجع إلى هذه التلال العارية لكي يموتوا بسبب قلة الماء، بينما كان نبع الماء الغزير في السفح لا يبعد أكثر من رمية السهم عن المكان الذي احتشدوا فيه.

الناصـــرة

من حطين مضينا إلى قرية ترعان التي تقع على طرف سهل البطوف. ومن هناك إلى الناصرة، أقرب بلدة إلى قلوب المسيحيين بعد القدس. لقد شهدت الناصرة نمواً في الحجم وازدياداً في الأهمية خلال السنوات المائة الأخيرة حتى أصبحت البلدة الرئيسية في هذه المنطقة. ولا بدّ أن سكانها الآن يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة. ويعود نمو الناصرة في هذه الفترة إلى اعتداءات البدو القادمين من وراء الأردن، تلك الاعتداءات التي جعلت الإقامة في بيسان وقرى مرج ابن عامر محفوفة بالأخطار. ففي الفترة الأخيرة خلت أكثر القرى من سكانها، وما تزال أعمال التخريب هذه مستمرة. وهكذا يرحل القرويون من السهول إلى الناصرة وجنين، بل يرحل بعضهم إلى قرى الساحل. ولكن الناصرة ستبقى دائماً مكاناً مقدساً بالنسبة للعالم المسيحي كله، لأن المسيح عليه السلام قضى الجزء الأكبر من حياته فيها.

تجولت في البلدة ثم توقفت عند عين البشارة، وحاولت أن ابتاع قطعة من قطع النقود القديمة التي تضع الفتيات رصائع منها على جباههن وخدودهن، ولكنني لم أنجح في محاولتي لأنهن رفضن التخلي عن أي قطعة من تلك النقود مقابل أي ثمن. ويتحدث معظم الرحالين عن جمال فتيات الناصرة، ومعهم الحق في ذلك. ولكن هؤلاء الفتيات بدون لي أكثر جرأة مما كنت اتوقع.

قمنا بترتيبات لإرسال خيامنا إلى قرية سولم، على أن نلحق بها عن طريق جبل طابور. ومضينا إلى الجبل عن طريق غابة البلوط الكبيرة الواقعة بينه وبين قرية الشجرة، وهو مغطى من جهته الشمالية بهذه الأشجار وبأشجار البطم. وعند وصولنا إلى القمة ألفينا هناك بقايا مدينة قديمة ذات أسوار وتحصينات، وبقايا الأديرة والكنائس التي أنشأها الصليبيون. والذي يقف على قمة الجبل يشاهد منظراً بديعاً لمرج ابن عامر بل لفلسطين الوسطى كلها.

عين الماء في الناصرة

(عن كتاب ليتش)

بعد أن أمعنت النظر فيما يحيط بي، عدت أدراجي وأنا أقصد الذهاب إلى قرية سولَم حيث سبقتنا خيامنا. وقد حدث مرة انني أردت المضي من هنا إلى خان التجار، على درب أخرى، ولكنني لم أفلح. ان الطريق إلى الخان تمر من وسط الغابة وتستغرق أكثر من ساعة. والوادي الذي تقوم فيه الخانات يُدعى (مِعْدي). والواقع أنه كان هنا خانان: أحدهما على تلة وله ابراج ذات ثمانية أضلاع على كل زاوية من زواياه، وهو مزيج من القلعة ونزل للمسافرين. أما الآخر ففي الوادي، وهو أكبر حجماً ويضم لواوين ومخازن ونبع ماء في داخل السور، كما أنه يضم غرفاً لاقامة المسافرين وخزن البضائع. والموقع مهجور الآن ولا يقيم فيه أحد، ولكن تُقام في الخانين سوق عظيمة كل يوم اثنين. وفي أثناء ذلك يعج المكان بالناس، حيث يستطيع المرء أن يلاحظ عادات السوريين وتقاليدهم وأزياء ملابسهم، ويتعرّف على نوعية الانتاج السوري. هنا يحتشد آلاف الأشخاص من جميع أرجاء البلاد، للتجارة والبيع والشراء. هنا ترى رزم القطن التي جيء بها من نابلس وترى القمح والشعير والسمسم الذي جيء به من الحولة وحوران ومرج ابن عامر. أما من جهات عجلون والجولان والمناطق المحيطة بهما فتجيء قطعان الماشية والخيول والبهائم كما يُجلب اللبن والسمن والعسل، وحاجات مماثلة أخرى. وفي هذه السوق ترى الدجاج والبيض والتين والزبيب والتفاح والليمون والعنب، وكل أنواع الفواكه والخضار، كل منها في موسمه. وإنك لترى البائعين يعرضون بضائعهم التي تجذب الإنتباه: فالصائغ يعرض الخواتم والأقراط، والخياط يعرض ملابس جاهزة والاسكافي يعرض الأحذية والاخفاف ذوات الأشكال والألوان المختلفة. وهنا البيطار مع معدّاته يعمل طوال ساعات اليوم، وكذلك السرّاج، وغيرهما من أصحاب المهن السائدة في هذه البلاد. والصخب هنا كبير لا ينقطع، فكل انسان يدلل على بضاعته بأعلى صوته، والحمير تنهق، والكلاب تنبح والدجاج تقوقي. كل انسان وحيوان يضيف قسطاً إلى الضجة الهائلة، كأنما تشهد ملهاة يقوم فيها كل ممثل بالدور الذي أسنده لنفسه وهو مبتهج كل الابتهاج لحسن أدائه.

وللناس أسباب عديدة في عقد هذه التجمعات، ذلك أن كل رجل

وامرأة وطفل ورث عن آبائه رغبة قوية في ممارسة التجارة، فإنت تراهم يتحدثون عن أوضاع السوق من سعر الخيار إلى سعر القطن، إلى ثمن جواد جاء به صاحبه من حوران ولا يقل ثمنه عن خمسة آلاف دولار. أضف إلى كل هذا ان كل عربي سياسي، فترى جماعات من الناس حول أطراف السوق يبحثون اتجاهات الدول المتحالفة ويناقشون آخر فرمان أصدره السلطان، أو الضريبة التي فرضها أميرهم عليهم قبل مدة قصيرة. ثم ان هذه الأسواق توفر فرصة رائعة للقيل والقال، وللحديث عن الفضائح، فالأصدقاء يلتقون ويتبادلون الحديث عن أنباء الزيجات والولادات والوفيات والأحداث والحوادث الأخرى. وتوفر هذه الأسواق ما توفره الصحف من أنباء وآراء، إذ أن سوقاً مماثلة تُعقد كل يوم من أيام الأسبوع ضمن دائرة قطرها أربعون ميلاً.

هذا ما يحدث في خان التجار كل يوم اثنين من كل اسبوع، ولكنك لن ترى انساناً واحداً يتخلف هنا بعد غروب الشمس. كلهم يعودون إلى منازلهم، أو يحلّون ضيوفاً في القرى المجاورة. وقد زرت هذه السوق ذات يوم ثم مضيت شرقاً إلى جسر المجامع بحثاً عن عقيلة آغا، مروراً بقرية معذر وبعدها بقرية حدثة، وهي قرية كبيرة يكثر فيها النحل. هذه المنطقة كانت حتى وقت قريب مأهولة بعدد كبير من السكان. وعلى مسافة ميل أو أكثر توجد عولم، وهي قرية كبيرة مهجورة، فيها مياه عذبة وأشجار تين ضخمة ما تزال تعطي ثمارها، ذلك أن البدو كانوا نهبوا القرية وخربوها قبل ثلاث سنوات فقط، كما فعلوا بقرية سيرين المجاورة [أي سنة ١٨٥٤]. وبعد أن تجولت ثلاث ساعات في هذه المنطقة التي هجرها سكانها انحدرت نحو وادي الأردن، تاركاً وادي الشرار بيني وبين كوكب الهوى (وهي قلعة بلفوار الصليبية ذات الموقع الممتاز). كان الانحدار سحيقاً. وبعد أن سرت بعض المسافة وصلت إلى موقع يدما، وفيه آثار كثيرة. وكان الغور يمور بالحياة، إذ تنتصب فيه خيام البدو، هنا وهناك، وتسرح فيه قطعان الماشية.

عقيلة الحاسي

مع غروب الشمس نصبتُ خيمتي بالقرب من خيمة عقيلة آغا، في

وسط عدد كبير من بيوت الشعر. وفي صباح اليوم التالي بينما كنت أدخن النرجيلة أمام خيمتي، فوجئت بنمر كبير الحجم يطارد جماعةً من الكلاب في السهل. وبعد دورة واسعة، ترك النمر الكلاب وقفز فوق طرف خيمتي ثم عاد لمطاردة الكلاب. وبعد دقيقة عاد ثانية فقفز على ظهر الخيمة وألقى بنفسه هناك. اضطربت حقاً، ولكنني احتفظت برباطة جأشي، فلم يلبث النمر حتى قفز وانبطح قريباً من قدمي. وبعد قليل جاء رجل لكي يأخذه فزعق النمر بشراسة، ولم يتمكن الرجل من الإمساك به الا بعد ان جاء له بشريحة من اللحم. كان هذا نمراً أليفاً رباه الآغا لصيد الغزلان. وقد أخبرني الآغا أن حيوان النمر يحتاج إلى سبع سنوات حتى يبلغ أشده، كما يحتاج إلى تدريب مستمر حتى يصبح صائداً ماهراً.

تنفست الصعداء عندما ابتعد النمر عني. ولكن لم يمض طويل وقت حتى شاهدته مرة ثانية في ظروف مختلفة كل الاختلاف. فبعد بضعة أشهر كنت مسافراً من يافا إلى بيروت، وعند وصول السفينة إلى حيفا رأيت قارباً يحمل قفصاً كبيراً ويتجه به نحونا. كان النمر اياه في داخل القفص وهو في طريقه إلى باريس، إذ كان الآغا قد أهداه إلى الأمبراطور (نابليون الثالث)، عن طريق قنصل فرنسا في بيروت. كان الحيوان المسكين هائجاً، وقد استطاع أن يفلت من القفص ويهاجم أحد الركاب. ولم يستطع البحارة أن يسيطروا عليه الا بعد أن ألقوا فوقه أحد الأشرعة وأرغموه على العودة إلى قفصه. إن الكتب القديمة تروي أن هذه المنطقة كانت تحفل بالدببة والأسود، ولكن في الوقت الراهن لم يبق أي منها. اما النمور فما تزال تعيش هنا بكثرة.

ولا يشعر المرء بالأمان في هذه المنطقة، لأن البدو في غور الأردن وفي الجهات التي لا يسود فيها القانون شرقي النهر، يقومون بغارات متعددة حتى المنطقة السهلية وينهبون كل ما تقع أيديهم عليه. ومررنا حول منحدرات جبل الدوحي في طريقنا إلى سولم، واستغرقت مسيرتنا من طابور إلى عين دور ساعة من الزمن، وما تزال أمامنا مسيرة ساعة أخرى. وهناك عدة مغائر يقيم فيها الناس مع مواشيهم. والناس هنا يذبحون الشاة ويطبخون

لحمها مباشرة بعد ذلك. وإذا زرت عقيلة آغا في خيمته المنصوبة في الوادي تحتنا خبرت ذلك بنفسك، إذ سترى أنهم يأتون بعجل أو شاة ويذبحونها ويضعون لحمها في القدر الضخمة التي تشتعل تحتها النار، فلا يمضي طويل وقت حتى ترى اللحم يظهر ثانية في باطية ضخمة من النحاس، فوق تل من سميد البرغل أو من الأرز واللبن. وفي ولاية سنسناتي (أمريكا) حيث أقيم، يدخل الحيوان من ممرّ ضيق على قدميه، ثم يخرج من الطرف الآخر قطعاً جاهزة للأكل. أما في مضارب الآغا فالعجل أو الشاة يسير نحو القدر، ثم لا يلبث حتى يعود والبخار يتصاعد منه جاهزاً ليأكله الناس. ولا بد أن نذكر أن ذبح الشاة أو العجل أو الجدي على شرف الضيف، تقليد ثابت من تقاليد الضيافة عند البدو. وهم ينظرون باحتقار إلى الشخص الذي لا يكرم ضيفه بذبيحة.

على أن البدو ما يزالون يشنّون الغزوات على هذه الأودية وينهبون محاصيلها، بل يصل الأمر في بعض الأحيان إلى حد ازهاق الأرواح.

وغادرنا سولم إلى بيسان التي تُعتبر موقعاً حصيناً، وفيها مياه وافرة. ثم وصلنا إلى جنين البلدة الرئيسية بين الناصرة ونابلس، وتضم نحو ألفي نسمة أكثريتهم الساحقة مسلمون، وفيها حاكم ومركز جمارك. وأهل جنين خشنون وثوريون، تراهم دائماً يحاربون بعضهم البعض أو يحاربون جيرانهم. وفي هذه الناحية ثلاث عائلات رئيسية تتولّى اذكاء الصراع بحيث تبقى المنطقة كلها في نزاعات مستديمة تتخللها أعمال سفك دماء. وهذه الأسر هي: آل عبدالهادي، آل طوقان في نابلس وعرّابة، وآل جرّار في جنين. وها هم يحاربون بعضهم البعض في الوقت الحاضر بين جنين ونابلس.

من جنين إلى السنديانة

ها نحن في جنين في اليوم الأول من شهر نيسان. هنا صخب وجلبة عظيمان، فقد بدا لي أن جماعات مختلفة مرت من وسط البلدة مساء أمس

وهم من بدو الغور وجبل عجلون. لقد جاء بهم آل جرار وآل طوقان لكي يساعدوهم في القتال ضد آل عبداهادي. وقد وقعت مناوشة في أثناء الليل بالقرب من جَبَع مع أنصار آل عبدالهادي في عرّابة. ويقول أهل جنين، وهم من حزب آل جرّار، ان الهزيمة لحقت بآل عبدالهادي. ولكن الاشتباكات ما تزال مستمرة وما زال سكان القرى الصغيرة يهاجرون منها. وإذا ألقيت نظرة على الدروب في الجبال المقابلة، فانك ستشاهد نساء وأطفالاً يسيرون مسرعين وهم يحملون أثاثهم على الحمير والبغال والجمال. لن الأمن ما يزال يسود في هذا الموضع لأن عقيلة آغا الذي ينزل في مرج ابن عامر، يرفض أن يشترك في القتال. وقد حدث ذات يوم أنني مررت بهذا السهل، وكان هناك قتال، فاغتصب أحد اللصوص جوادي. ولن أنسى أبداً الأسلوب الهادىء الذي استعاد فيه رفيقنا (وهو من أقارب الآغا) الجواد، ذلك انه أنذر جماعة النّهابين قائلاً انهم إذا مسّوا أي شخص في حمايته فلن يكون بينه وبينهم خبز وملح في هذا الجانب من الأردن. ان مثل هذا التأكيد سيوفر لنا الحماية هذا اليوم. ولكن لا بد لنا من القيام بالالتفاف طويلاً حول الأماكن التي يتقاتل فيها هؤلاء الناس. انهم منقسمون على بعضهم البعض: فنصف أهل السيلة ـ مثلاً ـ مع آل عبدالهادي، والنصف الآخر في صف آل جرار. وانت تستطيع أن ترى التماعات بنادقهم في هذه اللحظة وهم يطلقون النار من منازلهم ضد بعضهم البعض.

ان النسوة اللائي يحطن بنا حانقات أشد الحنق على آل عبدالهادي، فقد أطلق أنصارهم قبل فترة قريبة النار على قرية في ناحية الروحة [قرب يعبد] فقتلوا بعض الأشخاص وأحرقوا بيوتهم ونهبوا أبقارهم ومواشيهم. وقد أقسمت هؤلاء النسوة أنه إذا وقع واحد من أبناء عائلة عبدالهادي في أيديهن فسوف يشوينه في النار المتلظية. وهذا ما يجعل التجوال في هذه المنطقة حافلاً بالأخطار.

وهكذا عدنا أدراجنا لكي نبتعد عن أماكن الاشتباكات. وشاهدنا بلدة السيلة تحيط بها أشجار الزيتون، وشاهدنا كذلك اللجّون وهو الإسم

الحديث لموقع (مجيدّو) الذي دارت فيه معارك طاحنة منذ أقدم عصور التاريخ.

كنت سافرت مرّات في السابق من جنين إلى نابلس، على الطريق المباشرة التي تمر أولاً ببلدة كبيرة اسمها قباطية، والتلال المحيطة بهذا الموقع مكسوة بأشجار الزيتون اليانعة. ومن المهم أن نذكر أن الطريق الرئيسية من جلعاد (البلقاء) إلى مصر ما تزال تمر من تل دوثان القريب من هنا. وهذه القوافل تمر بالقرب من غور بيسان، عن طريق زرعين واللجّون، وتدخل إلى منطقة نابلس بالقرب من دوثان (دوثيم)، ومن هناك تتجه إلى الرملة ثم إلى غزة ومنها إلى مصر. وإلى الشمال من بيسان خان كبير يُدعى خان الأحمر، وهو يمثل محطة مهمة على هذه الطريق. انها الطريق ذاتها التي تذكر التوراة أن الاسماعيليين كانوا يجيئون عليها من جلعاد وجمالهم محملة بالبهارات والمر والبلسم، في طريقها إلى مصر. والقرى المهمة في جبل نابلس هي عرّابة المركز الأصلي لآل عبدالهادي، وقرية أم الفحم. وعرّابة بلدة كبيرة تستطيع أن تخرج ألف بارودة، كما يقول أهل البلاد.

نابلس

ونصعد من قباطية مع تلال صخرية ثم ننحدر إلى سهل صانور، وهي قرية تقوم بالقرب منها قلعة (صانور) التي يقيم فيها أناس خشنوا الطباع مستعدون دائماً للثورة ضد الحكومة. بعدها نصل إلى جَبَع وهي قرية كبيرة ذات موقع حصين على جبهة الجبل. وهذه الناحية مأهولة بكثافة وأراضيها وافرة الخصب. وأخيراً نصل إلى آثار سبسطية، وإلى جانبها قرية تحمل ذلك الإسم، وأهل هذه القرية خشنون بل خطرون. وتبعد نابلس عن سبسطية مسيرة ساعتين. ووادي نابلس جميل لا يضاهيه في خصوبته وجماله الطبيعي واد آخر في فلسطين كلها، وسبب هذا يعود إلى النبع الغزير الماء الذي يمر من وسطه. هذه المنطقة كلها مزروعة بالقرى، والسهول مكسوة بالأعشاب والمزروعات، والتلال المستديرة مغطّاة بكروم الزيتون والتين والرمان وأنواع الأشجار الأخرى. والرحالون بصورة عامة يقصدون

إلى حي السامريين المرتفع نوعاً ما، والذي يستطيع الزائر أن يلقي منه نظرة على البلدة كلها. ونابلس بلدة قديمة غريبة الطابع: شوارعها ضيقة مسقوفة، يصعب على الانسان أن يمر فيها في فصل الشتاء بسبب المياه التي تتدفق على أرصفتها. ولا أعرف مدينة أخرى تشبهها الا (بروسه) في تركيا. ثم أن المدينتين تتشابهان في أن أشجار التوت والبرتقال والرمان وغيرها تنمو ملتصقة بالبيوت، حتى أن أزهارها ذات الرائحة الزكية تبعث في الهواء عطراً لذيذاً خلال شهري نيسان وأيار. هنا ترى البلابل تصدح على الأغصان مع آلاف الطيور الأخرى التي تنضم إلى جوقة الموسيقى. والأهلون يؤكدون أن واديهم أكثر الأودية انغاماً موسيقية في فلسطين، وفي الواقع لا أستطيع أن أنفي ذلك.

إذا صحّ أن نابلس تحتل موضع شكيم، فإنها تكون واحدة من أقدم مدن العالم. ولا غرابة في ذلك، لأن ميزاتها الطبيعية وجمالها العظيم ومياهها الوافرة تؤهلها لأن تكون مدينة مزدهرة. أما السامريون فيدعون أن ملكي صادق قابل ابراهيم (الخليل) في الموضع الذي أقاموا فيه هيكلهم وليس في القدس، وان ابراهيم أراد أن يقدم ابنه اسحق ذبيحة فداء على جبل جرزيم وليس على جبل موريا (في القدس). ولكنني أشك في كل هذا على الرغم من التقاليد السامرية الكثيرة التي رواها يعقوب الشلبي شيخ السامريين في نابلس. ولا يزيد عدد هؤلاء السامريين في العالم كله على مائتي شخص. وهم شعب غريب يتمسكون بشريعتهم تماماً. ومع أن كبير كهنتهم سمح لي بتقليب صفحات كتابهم القديم، الا انني لا اعتقد بصحة أساطيرهم حوله.

وإذا عدنا إلى مرج ابن عامر أمكننا أن نناقش الفكرة التي طلع بها مهندس فرنسي وخلاصتها أن يتم شق قناة للسفن من خليج عكا إلى خليج العقبة مروراً بوادي الأردن والبحر الميت ووادي عربة. ان هذا المهندس لا يحسب حساباً إلى أن مياه البحر سوف تملأ الغور بالمياه من جسر بنات يعقوب حتى خليج العقبة، بحيث تصبح طبريا على عمق ٦٠٠ قدم تحت سطح الماء.

ونصل إلى الفولة والعفولة فنجدهما مهجورتين، بينما كانتا مأهولتين بالسكان عندما مررت بهما لأول مرة منذ خمسة وعشرين عاماً. ويعود السبب إلى البدو الذين اعتادوا أن ينصبوا خيامهم بالقرب من احدى القرى، ويتركوا جمالهم وأغنامهم ترعى في الحقول وتأكل المزروعات، وإذا بقي شيء للأهلين بعد ذلك أرغمهم البدو على أن يقدموا لهم نسبة عالية من المحصول بزعم أنهم يوفرون الحماية لهم. وتختفي من القرية الأغنام والأبقار، حتى الخيول، ونتيجة لهذا يبدأ الأهلون بالرحيل عن القرية. ولا يعدم البدو أن يجدوا سبباً لنشوب النزاع، كأن يُصاب أحد الناس بجرح أو يُقتل، وعندئذ يبادرون إلى نهب القرية وإحراقها. ولكن على الرغم من كل هذا فإن اجزاء من مرج ابن عامر ما تزال تجد من يزرعها بالحبوب.

ثم اتجهتُ من نابلس جنوباً إلى قيصرية ومن هناك باتجاه يافا. لقد تركتُ بلاد الفينيقيين الأقدمين إلى بلاد الفلسطينيين الأوائل. ومضينا إلى قرية أم خالد المشهورة بانتاج البطيخ أكثر من أية قرية أخرى في فلسطين. وهذا البطيخ تنقل الزوارق كميات كبيرة منه إلى بيروت والبلدان الأخرى على الساحل.° وقد أخبرنا المزارعون أنهم لم يزرعوا البطيخ في حقولهم البعيدة خوفاً من البدو.

يافــــا

أخيراً وصلنا إلى يافا التي تُعتبر من أقدم مدن العالم، . ولكن تاريخها الطويل مكتوب في أغلب الأحيان بحروف من الدماء. فمن النادر أن تجد مدينة أخرى عانت مثلما عانت يافا من النهب والسلب والحريق. فكم من مرة هُدمت وكم من مرة أُعيد بناؤها وتعميرها. وفي الحقبة الأخيرة أُبتليت يافا بالطاعون. وفي عام ١٨٣٤ أمضيت فيها أربعين يوماً بينما كان يحاصرها أهل الجبال الثائرون ضد ابراهيم باشا. وقال لي القنصل الأمريكي أن القراصنة سيطروا على الشاطىء قبل مئة سنة فهجرها أهلها ورحلوا إلى اللد والرملة. ثم أرسلت الدولة اليها عدداً قليلاً من الجنود لكي يقيموا فيها ويخبروا التجار في الرملة عند وصول احدى السفن إلى الميناء. ونحن نعرف

أن صور كانت مهجورة في تلك الفترة أيضاً بسبب القراصنة. ولكن عندما جاء بونابرت استعادت يافا بعض الأهمية وأخذت تنمو منذ ذلك الحين. وقبل خمسة وعشرين عاماً كان عدد سكان المدينة والبيارات المحيطة بها يقارب ستة آلاف نسمة، أما الآن فلا يقل عددهم عن خمسة عشر ألفاً. وازدهرت التجارة أيضاً فيها مع نموها. وأسباب نمو يافا تعود إلى أنها الميناء التي ينزل فيها حجّاج بيت المقدس من مسيحيين ويهود. أضف إلى ذلك وجود مصانع صابون كبيرة فيها وفي الرملة واللد ونابلس والقدس. ومعظم هذا الصابون يُصدّر عن طريق يافا إلى جميع المدن الساحلية، وإلى مصر، حتى إلى آسيا الصغرى عن طريق طرسوس. كما أن حجم تجارة الفواكه كبير. وفي المدة الأخيرة تم تصدير شحنات كبيرة من القمح إلى أوروبا بواسطة السفن. وتزدهر هنا أيضاً زراعة شجر توت الحرير على طول نهر العوجا والكروم المحيطة بالمدينة. هذا مع العلم بأن الميناء غير ملائمة وغير مأمونة، حتى أن انزال البضائع من السفن يواجه مصاعب ويكون خطراً في بعض الأحيان.

اشتهرت يافا في العصر الحديث ببياراتها وكرومها ذات الثمار اللذيذة الطعم. وهي بيارات واسعة جداً ومزدهرة ومربحة. ولكن استمرار هذه البيارات يعتمد على توافر الماء. ويبدو أن السهل كله يمتد فوق نهر عريض تسير مياهه تحت الرمال باتجاه البحر. هناك ألف ناعورة فارسية تعمل ليل نهار في أراضي الفلسطينيين القدماء من هنا حتى غزة وربما إلى أبعد من ذلك جنوباً. وهذه النواعير تلائم الغاية المتوخاة تماماً فهي بسيطة الصنع ورخيصة التكاليف ويمكن اصلاحها بسرعة وتشغيلها بسهولة. وهي تنشل كمية كبيرة من الماء. لقد بُذلتْ جهود متعددة لادخال المضخات الحديثة في هذا المجال، ولكن هذه المضخات لا تلبث حتى يصيبها عطل فلا تجد من يستطيع اصلاحها، فيضطر أصحابها إلى القائها جانباً والعودة إلى الناعورة. وتقوم البهائم بتشغيل النواعير على آبار يتراوح عمقها من عشرة أقدام إلى أربعين قدماً.

وهناك أنواع أخرى من نواعير الماء في هذه البلاد، ولكن الشادوف

الذي يستعمله المصريون غير معروف هنا.

وفواكه يافا تماثل فواكه صيدا مع بعض الاختلافات. ففي يافا أفضل أنواع الرمان، وبرتقال يافا يبقى مدة أطول على الأشجار، ولذلك يمكن تصديره بواسطة السفن إلى مناطق بعيدة. وفي شهري آذار ونيسان ترى أشجار يافا وقد تفتحت أزهارها، بحيث يعبق الجو كله بالروائح العطرة المنعشة. وهنا يخرج الأهلون إلى البيارات ويجلسون تحت ظلال الشجر. وعندئذ ترى هذا يرتشف القهوة، وذاك يدخن الأرجيلة، وآخر يغني أو يتحدث أو يستمتع باغفاءة. ويبقى الناس على هذه الحال حتى مغيب الشمس فيعودون إلى منازلهم.

هل هذه البيارات تجارة مربحة؟ صديقنا مراد يقول أن البيارة التي تكلف ١٠٠ ألف قرش تنتج سنوياً ما يساوي ١٥ ألف قرش، تذهب خمسة آلاف منها نفقات للري والحراثة والزراعة والتزبيل، فيبقى للمالك عشرة آلاف قرش، وهو ربح جيد واستثمار معقول.

سرت مرات في شارع يافا الرئيسي، وهي سوق لم أشاهد سوقاً أخرى أكثر ازدحاماً منها، حتى انني كنت أضطر أن أشق طريقي بصعوبة بين جمهور متعدد المشارب والأجناس، من مواطنين مشغولين وبدو مشعثّين وحجّاج أجانب وجمال وخيول وبغال وبهائم. أما خارج البوابة فترى جمهوراً صاخباً آخر. وإلى الجنوب من المدينة تقوم مدابغ الجلد، لأن لها رائحة كريهة وغير صحية. وقد شاهدتُ خارج الأسوار أيضاً مصنعاً للفخار، فوقفت أراقب الفخاري بشغف واهتمام، ولكن الجرار التي يصنعونها هنا رقيقة سرعان ما تنكسر.

وبناء سبيل الماء بالقرب من البوابة هو البناء الوحيد في المدينة الذي يتمتع بشيء من جمال الفن الاسلامي. ولطالما جئت إلى هنا لكي ارتوي من الماء البارد، وأستمتع بمنظر الناس وأزيائهم المختلفة الألوان والأشكال.

وهذه البوابة الوحيدة مكان ذو أهمية بالنسبة للمدينة، وخاصة عندما

يحتشد الناس بالقرب منها في ساعات المساء. لقد شاهدتُ الحاكم والقاضي ومع كل منهما أعوانه، وهما يجلسان هنا ويفصلان في القضايا ويصدران الأحكام. وبما أن المدينة محاطة بسور وخندق، وليس لها الا هذه البوابة، فكل انسان مضطر إلى الخروج أو الدخول منها، وهذا سبب وجود الجمهور الحاشد الذي يزدحم عندها.

وإذا أردت الخروج من يافا فإنك تحتاج إلى ثلاث ساعات حتى تصل إلى رأس العوجا أو إلى اللد، كما تحتاج إلى ثلاثة أرباع الساعة بعد ذلك حتى تصل إلى الرملة. يا له من سهل واسع يبدو أن الفلاحين الذين يعملون فيه من أصل مصري. وفي خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة قام أشخاص من بيروت وغرسوا هنا في هذه الأرض الخصيبة الكثير من أشجار التوت، وبهذا ازدهرت صناعة الحرير الطبيعي. أما إلى الشمال وعلى مسافة ساعة فتقع جلجولية (ربما جلجال القديمة)، غير بعيد عن كفر سابا.

اللـد والرملـــة

واقتربنا من قرية اللد، حيث تقوم الكنيسة الشهيرة. ولا يزيد عدد سكان هذه القرية المزدهرة على الفي نسمة، وهي محاطة ببساتين الزيتون والتين والرمان والتوت والجميز، وأراضيها وافرة الخصب. ومن الواضح أن السكان نشيطون وهم يعملون على غرس الأشجار في الأراضي التي تمتد من هنا إلى الرملة. ونادراً ما شاهدت منظراً ريفياً زراعياً أجمل من منظر هذه الناحية في أوائل فصل الحصاد. كان هناك مئات من الحصادين واللقاطين والرجّادين، من رجال ونساء وأطفال، يعملون بنشاط ومرح منذ طلوع الشمس. وكانت مزروعات القمح والشعير تنمو بين أشجار الزيتون. فالرجال يحصدون والنساء يلتقطن السنابل أو يرشدن الجمال المحملة، والأطفال يلعبون أو يراقبون قطعان الماشية التي كانت ترعى في الأرض الحصيد. ولكن الوصف يعجز عن ايفاء هذه اللوحة الطبيعية حقها من الحيوية والجمال.

وفي اللد ترى بقايا كثير من الأبنية القديمة، كما ترى مصانع صابون واسعة أصبحت مهجورة في الوقت الراهن. ويبدو أن هذه المصانع أُنشئت عندما هجر يافا أهلها وجاءوا إلى هنا، حينما كانت تجارة سوريا وفلسطين تُنقل على الطرق الداخلية. في تلك الفترة كانت القوافل الكبيرة تأتي من حلب عبر سهل البقاع، ثم مع وادي التيم إلى خان المنية (قرب طبريا)، ومن بغداد ودمشق عبر الجولان عن طريق جسر بنات يعقوب إلى خان المنية ذاته، ومن حوران عن طريق بيسان وزرعين. كل هذه الخطوط كانت تلتقي بالقرب من اللجون، ومن هناك تتجه إلى مصر على طريق الرملة وغزة. في تلك الأيام كانت الحاجة تقتضي وجود سلسلة طويلة من القلاع والخانات. ولكن بعد أن تم تنظيف البحر من القراصنة، أخذت السفن تقدم وسائل أرخص لنقل البضائع، ونشأ عن ذلك التخلي عن نظام القوافل والخانات. أخذت التجارة تبحث عن أقرب الموانىء على الساحل، ومن هناك أصبحت البضائع تُنقل إلى المدن الداخلية. وهكذا هُجرت الطرق الكبيرة، وأخذت الخانات تتصدع وتتهاوى بسبب الإهمال. وبسبب تبدل طرق التجارة تضاءلت أهمية بعض البلدان الداخلية ومن جملتها اللد والرملة، بينما أخذت مدن الساحل تتسع وتزدهر.

وتجولت في هذه القرية ـ اللد ـ فرأيت امرأتين أمام باب منزلهما تديران بأيديهما رحى وُضعت فوق بساط من الخيش. ففي هذه الناحية لا توجد الطواحين التي تديرها مياه الجداول، ولذلك سنرى هذه الطواحين اليدوية في كل قرية وفي مضارب البدو وهي تعمل نهاراً وأحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل. هذه الرحى تمثل في الذهن أرغفة الخبز الساخنة والترحيب الحار عندما يكون المرء جائعاً متعباً. وهذا العمل تقوم به النساء، وأحياناً الخدم أو العبيد، وأحياناً أسرى الحروب، وهو عمل مرهق وممل.

هذه أشجار التوت الشامي التي يغرسها الأهلون للافادة من ثمارها، وليس لكي تعيش دودة القز على أوراقها. وإذا مررت من هنا في أواسط أيار شاهدت هذه الأشجار تنوء بحمولتها من التوت. وتوجد هنا من هذه الأشجار أعداد أكبر بكثير مما شاهدت في أي مكان آخر. وقل الشيء نفسه

عن أشجار الكمثرى التي تكثر وتزدهر حول هذه القرى.

وإلى الغرب من الرملة يوجد عدد كبير من البرك الصغيرة المفتوحة ذات القناطر. ومن الطبيعي وجود هذه البرك لأن الرملة كانت تضم خانات كبيرة من أجل توفير الإقامة للقوافل العظيمة التي كانت تعبر من هنا في طريقها إلى مصر، مما يستدعي وجود كميات كافية من الماء. وفي الرملة مئذنة كبيرة تشبه البرج وعليها كتابة تحمل تاريخ سنة ٧١٠ للهجرة (١٣١٠ للميلاد).

وقبل ثلاث وعشرين سنة كانت هذه البلاد كلها تقوم بثورة ضد ابراهيم باشا وأبيه محمد علي باشا.

والرملة أكبر من اللد ويبلغ عدد سكانها نحو ٣٥٠٠ شخص أكثرهم مسيحيون. وفي البلدة عدد من المنازل الجيدة البناء وكنائس وأديرة للحجاج، وبعض مصانع الصابون الكبيرة. ويرى المرء بالقرب من مصانع الصابون أكواماً من الرماد الأخضر الذي تلفظه تلك المصانع، وهذا يدل على ازدهار صناعة الصابون طوال عدة قرون. وانك لترى أكواماً مماثلة في القدس وغزة، وأماكن أخرى عديدة، ولكن أعظمها في ادلب. ويُستدل من ضخامة هذه الأكوام ان (القلي) الذي يُستعمل في صناعة الصابون، ينطوي على مواد أخرى (غير الصودا) تترسّب ثم تُطرح جانباً. ويحصل أصحاب المصانع على القلي من البدو القاطنين في أطراف الصحراء، وهو ينتج عن احتراق نبات الحمض (الحرض) الذي ينمو في تلك السهول الجدباء. وفي أثناء الاحتراق يختلط به التراب والرماد، ومن هنا تخرج الفضلات في أثناء صنع الصابون. ولا بدّ أن هذه الأكوام تكدست من الرسوبات، وأخذت مئات وربما آلاف السنين حتى أصبحت بهذه الضخامة. ولكن لا بدّ من القول أن هذه الأكوام تلحق الضرر بالأهلين، اذ أنها تزيد من حرارة الجو الملتهب بطبيعته، ويملأ غبارها المؤذي للعيون الفضاء عند أقلّ هبّة هواء. فلا عجب أن يكثر العميان أو مرضى العيون في هذه البلدة. وقد راقبت الرجال ذات يوم في الشارع فألفيت أن حوالي نصفهم يعانون من أدواء في

عيونهم. أما النساء فلا يستطيع أحد أن يراقبهن بسبب التشدد في الحجاب هنا. لقد أقمت في أحد المنازل شهراً دون أن أشاهد وجه امرأة من نساء أصحابه. وفي كل مرة كنت أريد الدخول إلى المنزل أو الخروج منه، كان يسبقني خادم أو واحد من الأبناء وهو يصرخ: الطريق، الطريق، فتسارع النساء إلى الاختفاء.

من اسدود إلى غزة

وبدأنا مسيرتنا باتجاه اسدود بين أشجار الزيتون. وكنا نشاهد إلى الشرق الطريق المتجهة إلى القدس، والتي تمر باللطرون عند مدخل وادي علي. ولم نلبث حتى وصلنا إلى يبنا، وهي بلدة عامرة، وبالقرب منها وادي حنين، وتل اسمه روبين يعلو فيه مقام لأحد الأولياء. وفي يبنا نحو ثلاثة آلاف نسمة يعملون في الزراعة، وأراضيها واسعة وفيرة الخصب وتنتج محصولاً وفيراً. وعندما مررت من هنا قبل عامين شاهدت مئات الرجال والنساء والأطفال يحصدون ويلتقطون السنابل، وينقلون أغمار القمح إلى بيادرهم الكبيرة. كانت هناك أسراب من الجمال تحمل على ظهورها حزماً من القمح أضخم بكثير من حجم الجمال، وهي تسير حتى تصل إلى البيادر التي تماثل التلال.

كانت البيادر تحيط بالبلدة من جميع الجهات، ويتم الدَرْس هنا بواسطة النورج الذي يجره حصان أو ثوران، ويقف الدّراس على اللوح أو يجلس حسبما يحلو له. وغير بعيد من هنا تقوم قرية الحمامة التي يملك أهلها الأراضي المجاورة. أما المسميّة فتبعد مسيرة ساعتين إلى الشرق عن اسدود. وأرجو أن نصل فنجد خيمتنا منصوبة تحت ظلال الأشجار قرب الخان المتهدم غربي اسدود.

تحيط باسدود بيارات واسعة وكروم كمثرى، ولكن رمال الشاطىء تصل حتى جدران منازلها. لقد كانت اسدود عاصمة الفلسطينيين القديمة، ولكن معظم منازل البلدة الحديثة بُنيت من الآجر الطيني وبعضها من

الحجارة. اما أهلها فخشنون مشاكسون، حتى سرّني أن انجو من فضولهم الشديد. وتكثر أشجار الصبّار والجميز في القرية، وقد شاهدت نياقاً تسحب الماء من آبار عميقة بواسطة النواعير. ويبدو السهل إلى الشرق منها واسعاً وفير الخصوبة. ولا يفوتني أن أذكر التل الاصطناعي الكبير إلى الشرق منها، وهو في اعتقادي تلك القلعة المنيعة التي قضى فرعون مصر ٢٩ عاماً في اخضاعها. كان ذلك أطول حصار عانت منه أية مدينة، والحروب التي دارت حولها عبر العصور تدل على مدى أهميتها. وتكثر القرى في سهولها الشرقية، فهناك خلدة على طرف وادي الصرار، ثم المسمية وهي القرية الزراعية الكبيرة التي تزدحم بيوتها المصنوعة من الآجر إلى جانب بعضها البعض. وقضيت ليلة إلى جانب القرية، وقد أدهشني أن الحياة دبت في القرية منذ طلوع أضواء الصباح الأولى، حتى بدت كأنها خلية نحل، ورأيت أهلها يخرجون منها زرافات زرافات وأمامهم الجمال والخيول والبغال والحمير والأبقار والشياه والماعز، حتى الدجاج. كان الصخب عنيفاً. وكانت تلك الجماعات تتجه هنا وهناك، ولم تلبث حتى غابت في السهل الواسع وراء الضباب الكثيف.

وغادرنا المسمية إلى يازور فألفينا منازلها أفضل بناء من تلك وأشجارها أكثر عدداً، مع أنها أقل سكاناً. وكان الضباب قد انقشع فشاهدنا السهل كله يموج بالناس: الرجال يحصدون والنساء يلتقطن السنابل ويجمعن الأغمار، بينما كان الأولاد يرافقون قطعان الماشية وراء اللاقطات. وبدا الناس في أمزجة رائقة يستمتعون ببرودة الصباح، وسمعنا غناء وأهازيج، وأحاديث لا تنقطع، ونكات وضحكات عالية وطويلة.

ويضع الحصادون غمور القمح وراءهم، وهذه يتم شدّها حتى تصبح حزمتين كبيرتين متقابلتين ثم يأتي الجمل فينيخ بينهما، وبعد أن يتم ربطهما على الشداد، يشير الرجاد إلى ذلك الحيوان المسالم فينهض متجهاً نحو البيدر إلى جانب القرية. وعند الوصول إلى هناك ينيخ الحيوان الصبور مرة أخرى فيتم فك الحمولة عن ظهره. وهكذا يقضي اليوم بطوله على هذا المنوال. وتستمر تلك العملية عدة أسابيع لأن موسم الحصاد في سوريا يمتد

عدة أشهر. وفي سهل فلسطين هذا يمتد موسم الحصاد من نيسان إلى حزيران. وهذا يتيح المجال لأهل القرى الجبلية كي يساعدوا مزارعي السهول، لأن مزروعات الجبال تنضج في وقت متأخر (كانت زيارة الرحّالة هذه في منتصف نيسان). وكنت شاهدت عدداً من نصارى بيت لحم يعملون في المسمية، وقد حدثني أحدهم فقال انه وزوجته يحصلان على اجور، بينما يُسمح لأولاده بالتقاط السنابل المتساقطة وراء الحصادين.

وفي هذا السهل ترى منازل كثيرة قد بُنيت من الآجر المصنوع من الطين بعد خلطه بالتبن. ولكن حال هذه المنازل ليست كما يتمنى الإنسان، إذ تراها واطئة ولا نوافذ لها ولا يدخل اليها الضوء، وهي مرصوصة بعضها إلى جانب بعض بصورة غير صحية، وبذلك يُحرم المرء من الإنفراد أو الاستمتاع بالعزلة، أو الابتعاد عن الصخب الذي يثيره الانسان والحيوان معاً. ثم أنك لا ترى هنا ما يقيك من حرارة الشمس اللاهبة أو من سحب الغبار. ولكن يجب القول أن الناس يبدون راضين عن أحوالهم. كما أن لديهم بعض الترتيبات الجماعية، فالساقية تسحب الماء لمنفعة الجميع. وفي المسمية شاهدت ساقية تجرها أربعة بغال قوية، وهي تعمل ليل نهار، وكان الماء بارداً عذباً.

غادرنا اسدود باتجاه غزة، وكانت بيت داراس أول قرية نمرّ بها على يسارنا، وبعدها جوليس، وإلى الشرق منها قَسطينة، وهذه القرى الثلاث غنية بمزروعاتها. بعد ذلك مررنا بقرية حمامي على ساحل البحر وهي قرية عامرة، ثم إلى عسقلان الجديدة غير بعيد عن آثار المدينة القديمة المغروسة بالأشجار المثمرة. وتشتهر عسقلان بتفاحها الذي هو أكبر وأفضل تفاح شاهدته في هذه البلاد. وعندما كنت هنا في شهر حزيران شاهدت قافلة تحمل التفاح في طريقها إلى القدس. وتنمو أشجار الكبّاد هنا، وثمارها كبيرة تزن الواحدة منها عدة أرطال (انكليزية). وينمو شجر الجميز هنا أيضاً، والاهلون يجمعون ثماره ويأخذونها في سلال إلى غزة.

ثم اتجهنا إلى المجدل التي تكثر فيها أشجار الزيتون العالية، وهي بلدة

كبيرة فيها جامع ومئذنة وبعض المنازل الحسنة البناء. وفي البلدة حاكم وقاض، وتُعتبر حاضرة الناحية المحيطة بعسقلان. أما القرية التالية جنوباً فهي دير سنيد. وهناك قرى أخرى اشتهرت بخضرها وفواكهها التي تموّن أسواق غزة. وتُعتبر قرية جبلة ضاحية لغزة، وفيها يُصنع الصابون من معظم الزيت الذي تنتجه أشجار الزيتون الكثيرة.

وأخيراً نصل إلى غزة إذ تبدو أولاً لأنظارنا أشجار النخيل العالية ومآذن المساجد. سوف نبحث عن مكان اقامة في أحد الخانات، حتى نبتعد عن ازعاج أهلها الخشني الطباع. ولكن ماذا بشأن عدد السكان؟ الناس يؤكدون أن سكان غزة أكثر عدداً من سكان القدس، ومن المرجح أن يكون عددهم ما بين ١٦ و١٨ الف نسمة، بينهم نحو ٧٠٠ شخص من المسيحيين. وتتألف غزة من خمسة أحياء، وكانت المدينة في الأصل على التل حيث توجد دار الحاكم والمساجد والخانات ومعظم المنازل المبنية من الحجر. وإلى الجنوب الغربي من المدينة توجد أبنية المحجر الصحي. وللمسجد مئذنة ضخمة، وهو يُعرف باسم دير حنا. وفي غزة مزاران لاثنين من الأولياء: عجلون والشيخ حسين. وآبار غزة عميقة يبلغ عمق بعضها ١٥٠ قدماً، ولكن الأهلين يمتدحون عذوبة الماء. ويقول الجميع أن المدينة ذات موقع صحي، وتكثر العصافير وطيور الحمام فيها. ولغزة تجارة واسعة مع قبائل البدو ولكن الصناعة الرئيسية في المدينة هي صناعة الصابون، الذي يُصدّر عبر الصحراء إلى القاهرة. وهم لا يصدرونه بواسطة السفن لأن ماء البحر يفسده. وتبلغ أجرة القنطار (نحو ٥٥٠ رطلاً انكليزياً) على ظهور الجمال أربعة دولارات ونصف الدولار، مع أن الرحلة تستغرق خمسة عشر يوماً. وفي الفترة الأخيرة نشأت مع أوروبا تجارة واسعة في القمح والشعير والسمسم، وأكثرها يتم شحنه من يافا.

تُعتبر غزة من أقدم مدن العالم، وقد سُجن فيها شمشون وأُجبر على الطحن بالطاحونة وبالفعل شاهدت الطواحين تعمل في أثناء تجوالي في المدينة حتى ساعة متأخرة من الليل. ويعود سبب ذلك إلى أنه لا توجد جداول ماء لتحريك الطواحين الكبيرة بالقرب من غزة، كما لا توجد هنا طواحين هواء

أو بخار. وهكذا توجد الطاحونة اليدوية في كل منزل.

هنا صخب وضجيج في الشارع، وقد قيل لي أن هذا ناشىء عن زفّة الابن البكر لحاكم المدينة. وصعدنا إلى سطح الخان لكي نتفرج على هذا الموكب الشرقي. ان لعب الجريد هو أكثر المشاهد اثارة، ولكن لا بد أنهم قاموا بذلك في السهل خارج المدينة، لأن جيادهم اللاهثة كانت ما تزال مغطاة بالزبد. وأكثر الناس الذين يجيدون لعب الجريد في سوريا هم شيوخ وأمراء لبنان وجبل الشيخ. وشاهدنا في مقدمة الموكب موسيقيين يرتدون ملابس غريبة ويغنون ألحاناً أبعد ما تكون عن التناغم والانسجام، وبعد هؤلاء جاءت جماعة ترقص بالسيوف، وكانت سيوفهم المصنوعة في دمشق تلتمع حول رؤوسهم بسرعة خطرة، بينما كان كل واحد من هؤلاء يحمل بيده الأخرى ترساً يحمي به نفسه من ضربات السيف. ثم أعقب هؤلاء موكب من فرسان البدو على ظهور خيولهم وهم يحملون رماحاً طويلة. ذلك أن غزة تقوم على حافة الصحراء، والحاكم يرى من أصالة الرأي أن يساير هؤلاء الشيوخ ويدعوهم لحضور عرس ابنه. وأخيراً يأتي الحاكم وحاشيته والعريس واصدقاؤه يبدو عليهم جميعاً المرح والحبور ويرتدون ملابس زاهية طويلة من الحرير. هذا نموذج من حياة الطبقة العالية في غزة. وهم يقضون الليلة بطولها في وليمة يغنون ويرقصون: الرجال في الساحة السماوية المفتوحة والنساء في الجانب المخصص للحريم. انها لفرصة عظيمة بالنسبة للصبايا كي يظهرن ابداعهن في الرقص.

بيت جبرين والخليل

بعد هذا اعتزمنا أن نواصل سيرنا من غزة إلى بيت جبرين. فيا لها من مناظر جميلة متماثلة بدت فيها مزروعات القمح كأنما هي بحر واسع لا نهاية له. من المؤسف أن الأرض لم تعد ملكاً للمزارع الذي يمكن أن يعتني بها ويجعل منها جنات غنّاء، بل هي ملك للحكومة. إنك لا تجد انساناً يزرع الأشجار المثمرة في أرض لا يملكها. ولو أن الحكومة أعطت لهؤلاء الفلاحين سندات تمليك لتحسنت أحوال البلاد والعباد وكثُرت القرى والدساكر،

وازدهرت زراعة الدوالي والزيتون والبرتقال. ولكن هذا كله يحتاج أيضاً إلى كبح جماح البدو ومنعهم من الاعتداء على الأراضي المزروعة.

هذه المنطقة ذات أرض خصيبة، مثل أفضل الأراضي في أمريكا بل أفضل منها. فهي تعطي كل سنة وبسخاء محصولاً وفيراً دون أن تحظى بعناية كافية من حراثة عميقة أو تزبيل. ولنذكر أن هذا السهل العظيم الاتساع ما يزال يُستغل منذ أربعين قرناً من الزمن. وبعد أن خرجنا من بين كروم الزيتون العظيمة الاتساع شمالي غزة، شاهدنا قرية بيت حانون الى يسارنا، ثم قرية دمرة. وهذا السهل كله خال من القرى. ومررنا بوادي سمسم العظيم الذي يخلو من الماء الا في فصل الشتاء.

والناس في بيت جبرين ومحيطها يحملون أسلحة من بنادق ومسدسات وسيوف وخناجر، وهم يقولون أن هذه الأسلحة تتيح لهم مجال الدفاع عن أنفسهم في وجه اعتداءات البدو. وترى الذي لا يملك سلاحاً نارياً يحمل في يده عصا غليظة (نبّوت). وفي بيت جبرين بقايا قلعة ضخمة وعدد كبير من الكهوف.

وسرنا نحو الخليل (١٩ نيسان) فبدت لنا ذات موقع جميل في وادي ممره. وبدا لنا أن المنازل أُنشئت على طراز حسن، فهي تتألف على العموم من طابقين، ولها قباب مستوية مثل المنازل التي شاهدناها في يافا والرملة والقدس. ويعود السبب إلى أن عوارض الخشب قليلة جداً ومرتفعة الثمن، ولذلك لا يتمكن أكثر الناس من انشاء سقوف مستوية. والخشب الذي يستعملونه في هذه البلاد يأتي من لبنان عن طريق البحر إلى يافا، ومن هناك تحمله الجمال إلى مدن الداخل. وهكذا ترى غرف المنازل كلها ذات قباب حتى لو كان هناك طابق ثان أو ثالث. أما السطوح فتكون مستوية ويحدث ذلك عن طريق رفع الجدران الخارجية حتى تتساوى مع رأس القبة.

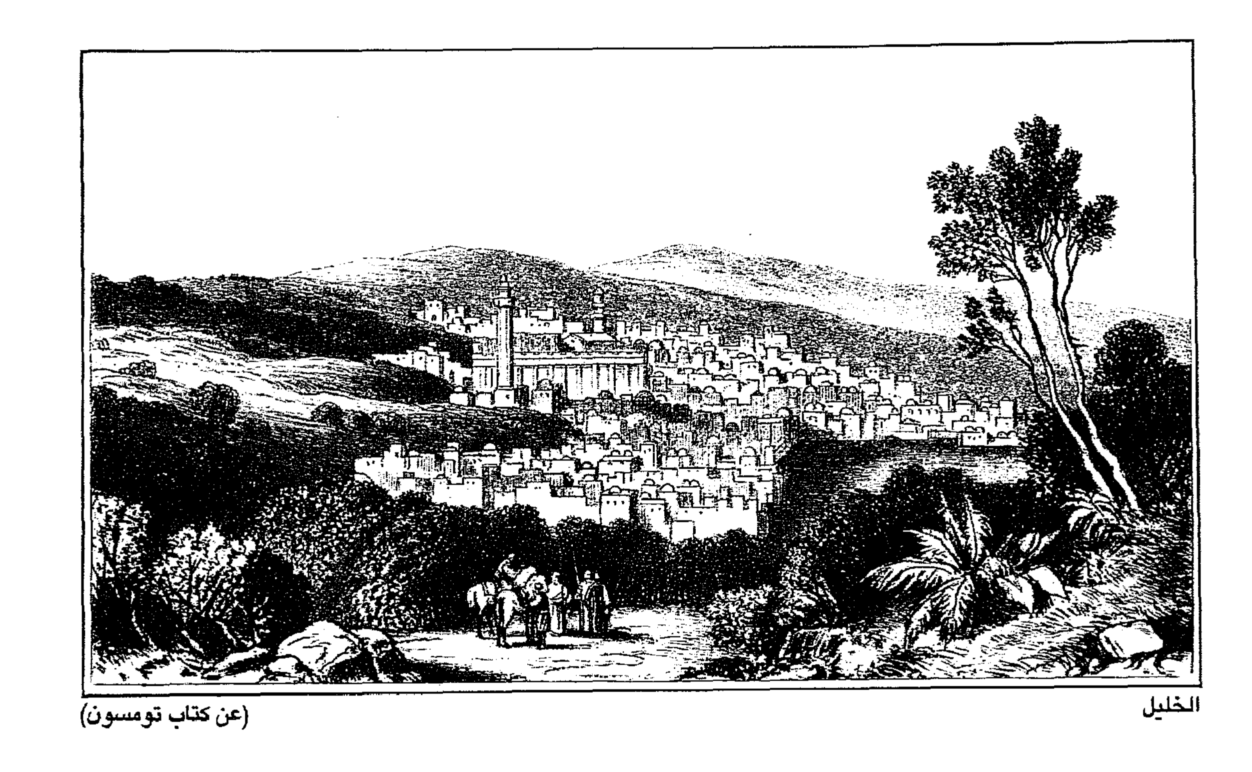
يتراوح عدد سكان الخليل ما بين سبعة آلاف وثمانية آلاف نسمة. وفي البلدة نحو ٧٠٠ يهودي والبقية مسلمون. ولا يوجد مسيحيون هنا سواء في البلدة أو القرى المحيطة بها. وفي الخليل برك واسعة تمتلىء بماء المطر

في فصل الشتاء، وترى الناس صاعدين نازلين على الدرج الذي يؤدي إلى الماء لكي يملأوا قِرَبهم الجلدية ويحملوها على ظهورهم. وتشتهر الخليل بعنبها، وبالتأكيد لا توجد في فلسطين كلها كروم عنب بهذا الاتساع، أو تلقى عناية مثلما تلقى هنا. انها تغطي منحدرات التلال على مسافة واسعة إلى الغرب والشمال الغربي من البلدة. وبما أن المسلمين لا يصنعون النبيذ، فإن الكميات التي تفيض عن حاجة الأسواق تحوّل إلى زبيب أو يصنعون الدبس منها. وإلى جانب أشجار الدوالي تجد الكثير من أشجار التين والزيتون، بالإضافة إلى أشجار فواكه أخرى.

وتنفرد الخليل بصناعة الزجاج، وقد دخلت إلى احدى الغرف التي يُصنع الزجاج فيها فشاهدت ثلاثة أفران أو أربعة وفي داخلها الزجاج السائل. ورأيت الرجال يصنعون الأساور لتزويد أسواق القدس بها. والعملية في غاية البساطة. أما الألوان المختلفة التي نراها فيُصبغ بها سائل الزجاج قبل سكبه. وهم يصنعون هنا كميات كبيرة من أواني القناديل التي تستعمل في هذه البلاد وفي مصر.

والخليل مدينة قديمة يقدسها المسلمون واليهود. وقد حدث مساء يوم أمس (٢٠ نيسان) أنني كنت أتجول في أطراف البلدة، فمررت بجماعة يجلسون حول باطية كبيرة ويستمتعون بطعام العشاء، ودعوني لمشاركتهم بتوكيد شديد قائلين: تفضل. فجلست بينهم وتناولت رغيفاً وأخذت أصنع قطعة على مثال الملاعق مثلما كانوا يفعلون، ثم أغرف من مَرَق العدس الذي كان في الباطية، وكان مذاق الطعام لذيذاً جداً. وعندئذ تذكرت وتصورت درجة الاغراء الذي وقع عيسو تحت تأثيره عندما باع بكوريته إلى يعقوب بأكلة عدس. كما يجدر بي أن أذكر أن أبناء الجاليات الإفرنجية الذين يولدون في هذه البلاد يغرمون بأكل حساء العدس هذا ويجدونه لذيذ الطعم والرائحة.

من المحتمل أن يكون هؤلاء الرجال هم الذين صنعوا هذه الحساء بأيديهم. وقد حدث كثيراً انني رأيت أشخاصاً أغنياء ووجهاء يقومون بمثل



الخليل (عن كتاب تومسون)

هذا العمل. وأكثر ما يحدث هذا بين أعراب البادية. وقد أُتيحت لي الفرصة أن أرى كبار شيوخ العَنَزَة وبني صخر وشيوخ قبائل بدوية أخرى يتصرفون مثلما يتصرف أقل أتباعهم منزلة، فلا يتميزون عنهم بنوع الملابس ولا يترفعون عن الاشتراك بأي عمل يعرض لهم. وفي الواقع هناك تقليد صارم يتطلب من هؤلاء الشيوخ أن يكونوا السباقين إلى مواجهة المشاق والشدائد التي تواجههم وتواجه اتباعهم. ولا بد أن كل من سافر كثيراً في هذه البلاد قد ساقته عصا الترحال إلى بئر ماء في وقدة الظهيرة، وهو محاط بأعداد كبيرة من الشياه تنتظر دورها كي ترتوي بالماء. لقد شاهدت ذات يوم منظراً كهذا في سهول سوريا الشمالية، فكان الرجال ذوو الملامح العابسة ينشلون الماء بالدلاء الجلدية، فيتقدم قطيع وراء قطيع لكي يرتوي ثم يتراجع إلى الخلف. وبعد أن انتهى الرجال من مهمتهم شاهدتُ عدداً من النساء والفتيات يأتين بأغنامهن وينشلن الماء لها بالطريقة عينها. وشاهدت مراراً آبار ماء أُقفلت فوهاتها بقلاع ضخمة من الحجارة. وهذا يحدث في الصحارى القاحلة، وليس في هذه البلاد، لأن الماء ليس قليلاً هنا إلى هذا الحد. وفي العادة ترى فوق فوهة البئر لوحاً كبيراً من الحجر فُتحت في وسطه كوّة يمكن للدلو أو الجرة أن تدخل وتخرج منها. انهم يضعون فوق هذه الكوّة حجراً ضخماً يحتاج إلى رجلين أو ثلاثة لازاحته عن موضعه. ولكن هذا العمل الاحتياطي لا يحدث في الجهات التي تكثر فيها المياه. وقد شاهدت آباراً أُحكم اغلاق فوهاتها بالطين والكلس. وهذه آبار يحتفظ أصحابها بمائها إلى الأوقات التي يشتد فيها الظمأ ويجف ماء الينابيع القريبة. وفي بعض الأحيان ترى نساء القرى يذهبن إلى الأودية حيث ينابيع الماء وهن يحملن الملابس المتسخة والأواني النحاسية والحطب، هناك يشعلن النار حتى يسخن الماء ويقمن بغسل تلك الملابس. كما ترى الأهلين في معظم القرى ينتخبون شاة أو أكثر من شاة، ويربونها ويطعمونها باهتمام كبير حتى تسمن من أجل ان يستعملوا لحمها وشحمها في فصل الشتاء، وهم لا يكتفون باطعامها من أوراق الدوالي والتوت فقط بل يأخذونها الى نبع الماء ويغسلون صوفها جيداً بالماء.

واعتزمنا أخيراً أن نغادر الخليل باتجاه الشمال الشرقي. وقد شاهدنا

في أثناء سيرنا بركة الماء الكبيرة، ومررنا من بين كروم العنب الواسعة، حيث أُقيمت هناك بيوت وأبراج غشيمة. والذي يزور هذه المنطقة في شهر تشرين الأول يجد ان المدينة قد هجرها معظم أهلها لكي يقيموا في الكروم ويقطفوا العنب. كل عائلة تقيم في الكرم الذي تملكه تحت عريشة عنب أو شجرة تين كبيرة. أما البيوت فلحفظ الأمتعة والأواني والزبيب. وهم يبيعون معظم المحصول في موسمه، وما يتبقى يحفظونه زبيباً أو يعصرونه دبساً. أما الأبراج التي تراها على رؤوس التلال، فيقيم فيها النواطير ليشرفوا منها على المساحة المغروسة بالدوالي كلها. وجاء أحدهم نحونا لكي يسألنا من نكون وما نبتغي في سيرنا بين الكروم، فطلبنا منه أن يرافقنا إلى شجرة البلوط التي كنا نراها على مبعدة. وهؤلاء النواطير لا يسمحون لأحد بالاعتداء على الكروم. وقد حدث أكثر من مرة في جبال لبنان أن أحد هؤلاء النواطير كان ينحدر من موضعه المرتفع إلى حيث أكون ماراً، وهو يحمل قطف عنب أو أكثر فيعطيني اياه، دون ثمن، ثم يرافقني متلطفاً حتى نهاية الكرم داعياً لي بالسلامة. ولكن اذا حاول أحد أن يأخذ من عنب الكروم دون اذن، فمهمة الناطور أن يمنعه بالقوة. وتحدث أحياناً اشتباكات يؤدي بعضها إلى سفك دماء.

ووصلنا أخيراً إلى البلوطة الشهيرة، ومنذ اللمحة الأولى أدركنا أنه لا علاقة لها بابراهيم الخليل أو بأي شخص آخر عاش في هذه البلاد قبل الف سنة. وعندنا في لبنان بلوط أضخم من هذه بمرتين، مع أن محيط ساق هذه يبلغ ستة وعشرين قدماً ومحيط فروعها وأغصانها يبلغ ٩٣ قدماً. والبلوطة في موقع جميل بالقرب من رأس وادي سبته على بعد ميلين تقريباً إلى الشمال الغربي من المدينة.

وأستأنفنا مسيرتنا باتجاه الشمال الشرقي، حيث تواعدنا مع رفاقنا على أن ينتظرونا عند نبع وخرائب (بلد النصارى)، حيث كان الماء في زمن قديم يجري من هنا إلى الخليل. ومضينا في دربنا، وكانت قرية حلحول إلى الشرق منا، ثم إلى قرية قفين المهجورة وإلى الغرب منها قرية بيت أُمّر. ووصلنا إلى البرك (برك سليمان)، وهي ثلاث برك كبيرة حقاً كان الماء يسيل منها في قناة

إلى القدس. وطالت بنا الطريق بعد أن مررنا بوأدي ارطاس وجبل الفريديس. وحل المساء ولم نصل إلى دير مار سابا الا بعد موهن من الليل. وهذا الدير الشرقي أغرب وأعجب دير شاهدته في حياتي، ولا بد للمرء أن يشاهده بنفسه حتى يرى موقعه المدهش. وفي الصباح تسلقت الى قمة البرج الجنوبي، ومن هناك شاهدت منظراً مهيباً: البيداء الواسعة والبحر الميت، ووراءه المنحدرات السحيقة لجبال مؤاب، وتحتنا وادي قدرون، وفجوته العجيبة التي يطلقون عليها هنا اسم (وادي النار). وبعد قليل أخذنا ننحدر مع الدرب الملتوية تحت حرارة شمس شديدة وفي أرض جرداء على مسافة سبع ساعات. وقد حاولت أن أظلّل رأسي من حرارة الشمس المتقدة تحت شجرة رَتَم قميئة، ولكنني لم أنتفع من ذلك كثيراً. أما نهر الأردن فلم أر ماءه الا بعد أن وقفت على حافته، ولم أكن أحسب أنه نهر صغير إلى هذا الحد، وعجبت من أن بعض أناشيدنا الدينية تتحدث عن «ضفاف الأردن العاصفة»! هنا يرى المرء عكس ما توقع، فسهل أريحا الذي نشأنا على الفكرة التقليدية التي تقول أنه وافر الخصوبة، لم أجد فيه من طرف النهر حتى عين حجلة سوى الرمال الملتهبة والنباتات الشوكية القزمة والسحليات السوداء البشعة.

أريحـــــا

لقد هجر معظم الأهلين هذا السهل في الوقت الحاضر، حتى أن أهالي أريحا القلائل غادروها لكي يعملوا في أماكن أخرى. ومع اننا ما نزال في شهر نيسان الا أن المزروعات هنا حصدها أصحابها بسبب الحرارة الزائدة التي أنضجتها قبل غيرها. وفي زيارتي الأولى كانت الحياة تدب في الوادي كله، إذ كنت واحداً من بضعة آلاف حاج جاءوا من مختلف أرجاء العالم ليستحموا في هذا النهر المقدس. وها أنا أنقل عن مذكرات كنت كتبتها آنذاك ما يلي:

غادرنا القدس في ١٦ نيسان ١٨٣٣ والحراس أمامنا وكذلك عَلَم الحجيج الأبيض وعَلَم النبي الأخضر. كان الجميع في حالة ابتهاج، إذ خرج

أهل القدس جميعهم رجالاً ونساء ومن جميع الأعمار واصطفوا على جانبي الطريق التي يسلكها موكب الحجاج. وخرجنا باحتفال مهيب من باب الاسباط إلى العيزرية ومنها باتجاه أريحا. لم نشاهد في طريقنا الا بقايا خان قديم (الخان الأحمر) يقال أن السامري (في المثل الشهير في الانجيل) أحضر اليهودي الجريح اليه. وغير بعيد من هنا كان سائح انكليزي قد قُتل وسُرق متاعه سنة ١٨٢٠. وبعد رحلة مضنية وصلنا إلى قرية أريحا، ولجأنا إلى ظلال شجرات تين كانت تقوم حول قصر الشيخ. انه البيت الوحيد المعقول في القرية، وفيما عداه يوجد ما بين اربعين إلى خمسين بيتاً من الأصح أن نسميها أكواخاً. ويدلّك على الفارق في الطقس اننا بينما كنا نرتجف من البرد في جبال القدس، أخذت الحرارة تشوي أبداننا في ظلال شجر التين في أريحا. وفي تلك الليلة التفّ كل واحد بعباءته وأخذ قسطاً من النوم. وفي صباح اليوم التالي أفقنا في وقت مبكر جداً ومضينا باتجاه النهر. كانت الساعة الرابعة صباحاً، وتقدمتنا كوكبة كبيرة من رجال الحرس وهم يحملون المشاعل على أعمدة طويلة، بينما كان يسير خيّالة مسلحون على جانبي الموكب وهم يروحون ويجيئون حولنا بالأسلوب العربي التقليدي. أما في المؤخرة فكان متصرف القدس ومعه رجال حرسه. ومن هنا ترى أننا كنا محاطين بأسباب الحماية من جميع الجهات. ولم تكن هذه الاحتياطات في غير محلها، إذ أن شخصاً مسكيناً من بولندا تخلّف عن الموكب لسبب ما، فهوجم وسُلبت ملابسه التي تغطي بدنه. واستغرقنا السرى ساعتين حتى وصلنا إلى النهر. وعندئذ اندفع الحجاج نحو الماء، بينما بقي الجنود على ظهور خيولهم الجميلة ينظرون الينا بعجب واستغراب. كان ماء النهر يجري بسرعة، حتى ان ثلاثة أشخاص غرقوا فيه (أحدهم من رجال الحرس). وربما كان غريباً أن أكثر من هؤلاء لم يكن مصيرهم الغرق، لأن بضعة آلاف انسان كانوا يستحمون في النهر في آن واحد. وقد مرّت هذه الحادثة المحزنة دون أن يتأثر بها الحجاج، أو يبدو منهم الاهتمام الذي يتوقعه الانسان. وبعد أن اغتسل الجميع في الماء، طلبت أنا وثلاثة من المسافرين الانكليز من المتصرف أن يأذن لنا بزيارة البحر الميت. فأرسل معنا عدداً من رجال الحرس، وحقّقنا أمنيتنا. وقضينا الليلة التالية في أريحا. وكان المنظر مدهشاً وغريباً إذ كنت

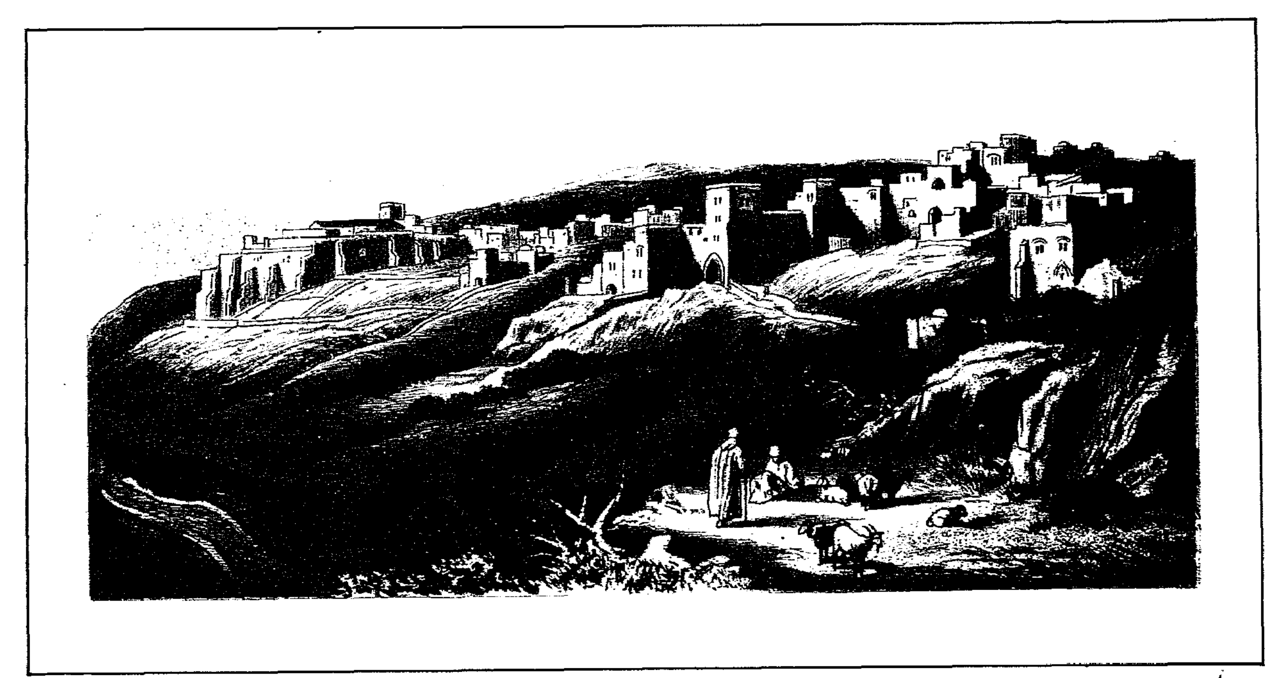
ترى فوق ذلك السهل رجالاً ونساء وأطفالاً من كل بلد من بلدان العالم، ومن كل لغة، وزي ولون: من أفريقيا السوداء إلى بولونيا البيضاء، ومن جميع الشيع والمذاهب. ولكن عند منتصف الليل قُرعت الطبول فنهضنا، ثم تحركنا صفوفاً صفوفاً في ضوء المشاعل، وكان الصخب بالغ العنف، بينما أخذ خط الحجيج يمتد بضعة أميال. وسرنا بين الوهاد والجنود يطلقون النار من بنادقهم، إلى أن بلغنا المدينة المقدسة بعيد طلوع الشمس ونحن نرتجف من برودة هواء الجبال.

في القدس وبيت لحم

قضيت أياماً في منزل صديق لنا في جبل الزيتون، وكنا نتجول في المدينة بكامل الحرية. والمدينة المقدسة محاطة بأسوار بناها (وعلى الأرجح أعاد بناءها) السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤٢ (٩٤٨ للهجرة)، ويتراوح عرض هذه الأسوار من ١٠ إلى ١٥ قدماً وارتفاعها من ٢٥ إلى ٤٠ قدماً، بحسب طبيعة الأرض وانخفاضها هنا وارتفاعها هناك. ولهذه الأسوار زوايا وأبراج ومواقع دفاعية وطلاقيات، ويبلغ طولها ٤٣٢٦ ياردة. وفي الوقت الحالي توجد للمدينة خمس بوابات: باب الخليل (أو يافا أو بيت لحم) من ناحية الجنوب وهو بالقرب من القلعة، باب دمشق (باب العمود) من ناحية الشمال، باب القديس استيفان (باب الأسباط) من الشرق، باب المغاربة الذي يؤدي إلى سلوان، وباب النبي داؤد من ناحية الغرب.

في يوم ١٠ أيار ذهبت لزيارة بيت لحم، وهي بلدة يبلغ عدد سكانها نحو أربعة آلاف نسمة أغلبيتهم الساحقة من الروم الأرثوذكس. وكان في البلدة حي للمسلمين، ولكن ابراهيم باشا هدمه بعد الثورة الكبيرة سنة ١٨٣٤. وقد شاهدت قطعاناً عديدة من الماعز والأغنام في التلال المحيطة بالبلدة، كما شاهدتُ الرجال يحصدون الشعير، والنساء والأولاد وراءهم يلتقطون السنابل المتساقطة. وعند المساء ترى امرأة تجلس إلى جانب الطريق وهي تخبط السنابل التي جمعتها بعصاً أو حجر.

وفي القدس عدد من برك الماء، فالبركة الكبيرة وتُدعى بركة الحمام



بيت لحم (عن كتاب تومسون)

وتقع إلى جنوب دير الروم الكبير، ثم بركة ماميلاّ خارج الأسوار، ويأتي الماء منها إلى المدينة بواسطة قناة صغيرة في باطن الأرض ويصب في بركة الحمام. وهناك بركة السلطان إلى الجنوب من باب الخليل. وقد زرت أيضاً بركة سلوان ونبع العذراء وألقيت نظرة على النفق الذي يربط بينهما. كما إن هناك عدة برك أخرى حول المدينة. ولا أنسى البركة الواقعة خارج باب الاسباط والتي قال دليلي أنها تدعى بركة (ستي مريم). وتوافر الماء مهم جداً بالنسبة للقدس، لذلك ترى في كل بيت وفي كل كنيسة ومسجد ودير بئر ماء أو أكثر من بئر لجمع الماء. والماء في هذه الآبار يكون نظيفاً بارداً وخالياً من الجراثيم. وذات مرة أستأجرت منزلاً في القدس فكان فيه ثلاثة آبار. وهذه الآبار الكثيرة هي التي كانت على الدوام تضمن استمرار الحياة في القدس، اذ يملأها الناس في أيام الشتاء لكي يستقوا منها في أيام الصيف. وفي أوقات الحصار كانت القدس تعاني من الجوع وليس من العطش. ولكن البرك المحيطة بالقدس جافة في الوقت الحاضر ولا ماء فيها، ويعود سبب ذلك إلى الإهمال.

وفي أثناء تجوالنا زرنا دير الصليب الذي يسميه الأهلون المصلّبة، إلى الغرب من المدينة، ثم مضينا إلى عين كارم، ومنها إلى قرية العنب. وفي أثناء ذلك مررنا بموقع قرية صوبا التي كان ابراهيم باشا قد أمر بتدميرها سنة ١٨٣٤. والموقع منيع فوق قمة جبل، وكانت القرية في الأصل محاطة بسور، وبقيت مدة طويلة في أيدي عائلة أبو غوش، كما قال لي رفاقي. وفي أول مرة جئت إلى القدس كانت صوبا في أيدي أحد أفراد تلك العائلة الشهيرة، وهذا ما كان يبعث الرعب في قلوب الحجاج.

وتسلقنا جبل النبي صموئيل في خلال ساعتين، ومن هناك كان المنظر عظيماً ورائعاً. ثم انحدرنا إلى قرية الجيب وهي دسكرة صغيرة يقيم فيها بضع مئات من المزارعين العابسين. وتتعرّج الطريق من الجيب إلى بيت عور حول رأس وادي يالو الكبير. هذه بيت عور الفوقا على رأس الجبل، أما بيت عور التحتا ففي الوادي تحتها وعلى مسافة ساعة منها، والطريق بينهما وعرة وصخرية.

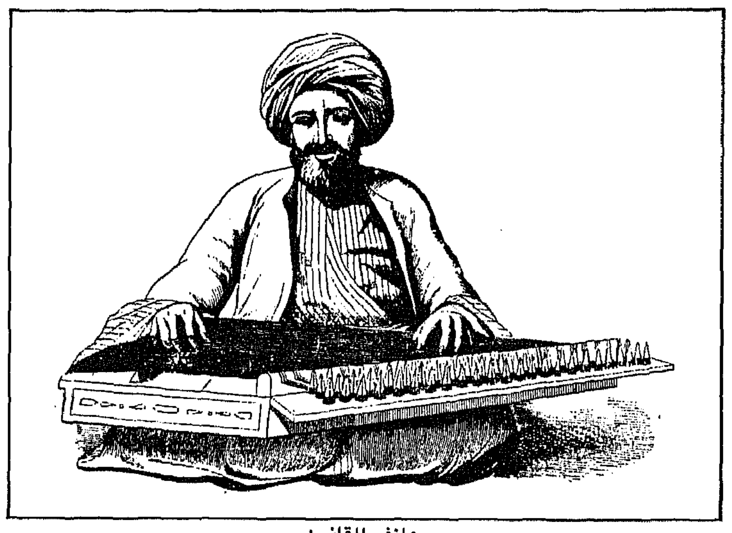
في أثناء اقامتي في جبل الزيتون دعاني دليلي السياحي لزيارة منزله في القدس، وقد سُررت لزيارة منزل شخص من مسيحيي هذه البلاد. كان الاستقبال ودياً لا تكلّف فيه، الأمر الذي بعث الدهشة في نفسي. وقدمت سيدات البيت شراباً وكعكاً وقهوة ونرجيلة، وهذا أمر سيثير الاعجاب حتماً في أي مجتمع في العالم. وقد تفرجت على البيت كله، وشرح لي أصحابه كل ما أثار فضولي. وكان في غرفة الاستقبال بساط يغطي الأرضية، وديوان واطىء يمتد على ثلاثة جوانب منها.



عازف العود

ويعشق الشرقيون الغناء، بل أن الأغاني تؤثر فيهم تأثيراً عظيماً. وقد أخذني دليلي ذات ليلة إلى مقهى لكي أتفرج وأستمع إلى حفلة موسيقية. كان عدد من الموسيقيين يجلسون على دكة عالية في مقدمة القاعة ويعزفون على آلاتهم الغريبة، يتخلّل ذلك غناء يتفجر صاخباً ويثير حماسة الجمهور المنهمك في التدخين واحتساء القهوة. أما الآلات التي كانت بين أيدي الموسيقيين فهي العود والكمان والطبل. وكان هناك موسيقار يجلس ويلعب

بقيثارة كبيرة يضمها إلى حضنه، هي القانون. وظهر على الدكة شخص أخذ يروي قصصاً ويطلق نكات يضحك لها النظارة، ثم أخذ هو نفسه يعزف على الكمان، كما عزف آخرون على القيثارة. وأكثر أدوات الموسيقى شعبية في هذه البلاد هي الدربكّة (الطبلة) والدف والصنّاجات التي يصاحبها التصفيق بالأيدي. وفي الأعراس والموالد والمناسبات السعيدة الأخرى، ترى أن هذه الأدوات هي الوسيلة الرئيسية لإقامة الأفراح والليالي الملاح. وفي تلك المناسبات ترى المحتفلين يضربون الدربكة، وينقرون الدف، ويخشخشون الصنّاجات، ويصفقون بأيديهم، بصورة متناغمة، دون كلل أو ملل، إلى ما بعد منتصف الليل بساعات.



عازف القانون

وأخيراً لا بدّ أن أذكر قرية العيزرية (بيت عنيا) الصغيرة ذات الموقع الجميل. إلى هنا كان المسيح يأتي ويحل في ضيافة صديقه العازر وأختيه مريم ومرثا، ولكي يريح جسمه المتعب. وذات يوم بينما كان المسيح بعيداً أرسلت اليه الاختان رسالة قصيرة: يا سيد هوذا الذي تحبه مريض. وبعد بضعة أيام جاء المسيح إلى بيت عنيا فوجد أن صديقه قد مات. وبكى المسيح على قبر العازر، ثم أحياه من الموت بقوة الله العلي.

الأرض المقدسة

تأليف : وليم هـ. دكسون

الأرض المقدســـة

تأليف : وليم هـ. دكسون

قام هذا الرحّالة البريطاني بزيارة إلى فلسطين سنة ١٨٦٥، ومن هناك أخذ يبعث رسائل إلى أهله يضمّنها مشاهداته وانطباعاته. وبعد عودته عمد إلى وضع محتويات تلك الرسائل في كتاب نُشر في ذلك العام نفسه. إن نقل مضمون هذا الكتاب للقرّاء من أبناء بلادنا، من الأهمية بمكان، فهو يعطينا صورة واضحة لما كانت عليه أوضاع بلادنا وأوضاع أهلها في تلك الحقبة من الزمن. ومثل هذا الكتاب لا يعرض صورة رحلة سياحية فحسب، بل يعطي صورة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والزراعية والطبيعية. ومهما قلنا عن أن الرحّالة الأجنبي لا يستطيع أن يكون دقيقاً في الكتابة عن مشاهداته، الا أن كتابته تعيننا دون شك على فهم الوضع السائد آنذاك. والنص الذي أقدّمه هنا للقارىء ليس ترجمة دقيقة كاملة، بل هو ترجمة للفقرات والمقاطع التي اعتقدت أنها تهم القارىء وتنطوي على فائدة له. والكتاب الذي نقلتُ عنه هذه الصفحات يقع في ٢٧٢ صفحة، أي أن عدد كلماته لا تقل عن ٨٥ ألفاً. وقد يتساءل القارىء: وماذا بشأن المادة التي لم أترجمها؟ وجوابي: ان هذا الرحّالة ـ مثله مثل أكثر الرحّالين ـ توسّع كثيراً في الرجوع إلى الكتابات الدينية ـ التوراة والانجيل ـ وأخذ يتحدث عما وقع هنا وهناك من أحداث روتها تلك الكتابات، مع مناقشات من عنده

عن كتاب William Hepworth Dixon: The Holy Land; Vol. 1; Leipzig, Bernard Bernhard Tauchnitz, 1865.

وآراء واستدلالات. من هنا فإن القارىء يجد زبدة المعلومات المفيدة التي يتضمنها الكتاب، فعسى أن ينتفع منها ويستمتع بقراءتها.

يافـــا

قبيل الفجر أقبلت سفينتنا على ميناء يافا. كان على ظهر السفينة شيوخ من العرب، وحجّاج من الأفرنج، وعبيد وتجّار يونان وكهنة أرمن. لم يلبث ضوء النهار حتى أشرق على البلدة. وشاهدنا علمين أو ثلاثة ترتفع في الهواء، وعدداً من الزوارق المختلفة الأحجام والأشكال أخذت تتجه نحونا يجدّف فيها بحارة عرب أشدّاء. بعد قليل أخذ الركاب ينتقلون من السفينة إلى الزوارق ومنها إلى البلدة. يحيط بيافا سور، ولها ميناء وسوق وفيها عدد من الأديرة. وفي البلدة مصنع صابون ولها بوابتان وفيها عشرة مدافع وثلاثة مساجد وستة قناصل وبيارات برتقال. إن ما يعرفه معظم الناس في بلاد الانكليز عن هذه البلاد ينبع في بداية البداية من كتابين: التوراة وألف ليلة وليلة. ومع ذلك فإن يافا المسلمة تبقى جديدة وغريبة بالنسبة للانسان الافرنجي. يافا هي الشرق الأصيل: الشوارع فيها أشبه ما تكون بالأنفاق، والرجال سمْر والنساء محجّبات. إنها مدينة ذات طابع قديم، لم يحدث عليها تبدّل منذ أقدم الأزمان. وعلى مرّ العصور، كان الدمار يلحق بها في أيام الحروب ثم يُعاد بناؤها في أيام السلم. على الرغم من كل ذلك بقيت محافظة على طابعها الأول منذ أيام سليمان وبومبي إلى أيام صلاح الدين ونابليون ومحمد علي والسلطان عبدالعزيز.

تقوم أبنية يافا على تلة وعلى لسان ناتىء تحيط به أمواج البحر، وترتفع المنازل واحدها فوق الآخر كأنها كوز الصنوبر. ومع أنها البلدة الرئيسية في منطقة غنية، فلا توجد فيها شوارع ولا مجاري مياه ولا أسواق أو متاجر. ومع أنها كانت دائماً بوابة القدس البحرية، فلا توجد لمينائها أرصفة أو منارات ولا رصيف لنزول الركاب، بل أنه لا توجد طريق تؤدي اليها. وعندما تصل سفينة إلى شاطئها فإنها تتوقف على بعد ميل أو أكثر من صخورها، ولكن ذلك لا يكون الا عند هدوء البحر، فإذا ما ثارت الأمواج تضطر السفن إلى البقاء على مسافة أبعد من الشاطىء. البحر المفتوح ليس

مفتوحاً بالنسبة ليافا. أما من الجانب الآخر فالحقول تتصل بالأسوار، والرمال تصل إلى البوابات. وينتشر السهل الواسع وراء السور. وهنا وهناك تقوم خيام البدو، كما تقوم التلال التي بقيت من ركام مدن قديمة ظهرت يوماً ما ثم اندثرت.

إلى الشرق من يافا تقع بلدة اللد، وبالقرب منها تقع بلدة الرملة. وفي الرملة بركة كبيرة ودير شهير ومئذنة رائعة لمسجدها الأبيض.

ليافا بوابة واحدة تُفتح في النهار وتُغلق في الليل. وفي النهار ترى ضاحية شرقية مقابل تلك البوابة، يتم فيها التبادل التجاري وفيها عدد من آبار الماء. هنالك ترى حشود الناس والألوان الزاهية. ولكن في أثناء الليل تصبح تلك الضاحية مكاناً للأشباح لا تتحرك فيها الا الوحوش والكلاب.

هذه البلدة الاسلامية حارة وحزينة وصامتة وبائسة. ولكن البوابة والسوق الخارجي ليسا كذلك. لبوابة القدس جمال ساحر: قوس عالية وبرج فخيم في وسط السور ونافورة اسلامية يتدفق منها الماء إلى حوض من المرمر، وفوقها نُقشت بماء الذهب آية من القرآن الكريم. وفي زاوية قريبة كتّاب فيه شيخ متقدم في السن يعمل على تعليم الصبية من أهل البلدة. أما الأجرة التي يتقاضاها فتتألف من قرش واحد في الأسبوع، وقطعة من قماش الموسلين الأبيض وزوج أخفاف يقدمها له المسجد مرة في السنة. وفي ساحة البوابة يجلس القاضي ليفصل في القضايا التي تُعرض عليه علانية أمام جمهور الناس. انك تراه يأمر بتغريم هذا أو بجلد ذاك. كل ذلك دون ضجة أو استثناءات أو محاولات للاستئناف. هنا تلاحظ أن الناس وجوههم عابسة، ربما بفعل حرارة الجو، بما في ذلك الجنود الذين يحافظون على الأمن والجباة الذين يجمعون الضرائب والغرامات.

يحيط بناحية السور التي تقوم فيها البوابة خندق عميق. وفي الأرض الواقعة بين الخندق وبيارات البرتقال تقوم الضاحية التجارية ذات السوق التجاري الذي يستمر على مدار السنة. ولكن أكثر أيام السوق ازدحاماً تكون في موسم حصاد الذرة وعندما تنضج الفواكه. هي سوق مفتوحة على

السهل الرملي، تنتشر فيها الأكشاك والسقائف والمظلات، بعضها يتألف من حُصُر فوق أعمدة خشبية، وبعضها عرائش من أغصان الشجر. وهناك بيت مصنوع من ألواح الخشب يُستعمل مقهى ومحلاً لاستبدال النقود. ولكن أكثر الأكشاك تتألف من بسط خيش مشدودة على أعمدة الخشب. وبالقرب من هناك البركة الكبيرة التي يستقي الناس منها. وفي هذه الأكشاك ترى التجار يشترون ويبيعون. هنا ترى حلاقاً يقص الشعر ويروي الحكايات، وهناك ترى المكارية ومختلف أصحاب الحاجات. هنا ترى شيوخاً من الصحراء وعبيداً من القاهرة والسودان، كلهم ذوو لحى وسيقان عارية. وهنا وهناك أكوام من ثمار الفواكه ذات الألوان الزاهية: العنب والبرتقال والبندورة والتفاح والتين والخوخ والموز والبلح والبطيخ.

البوابة الثانية ليافا هي بوابة الماء التي تواجه البحر. إنها ليست بضخامة بوابة القدس التي يستطيع الجمل أن يدخل منها وهو يحمل أكياس الذرة على سنامه، بل هي عبارة عن فتحة في السور. ومن هذه الفتحة يعبر كل ما يأتي من بلاد الغرب إلى فلسطين: من فرنسا وانكلترا، من مصر وتركيا، من ايطاليا واليونان. ومن هذه الفتحة يخرج كل ما تصدّره البلاد: الذرة والبرتقال والموز والزيتون.

لا توجد في يافا خيول أو عربات. واسطة النقل هي الجمل والبهيم. والناس على العموم يسيرون على أقدامهم ويحملون حاجاتهم على ظهورهم أو على ظهور الدواب. وقد ترى سيدة تذهب إلى السوق، فتدعو أحد الحمّالين ثم تتنقل من موضع إلى موضع وهي تبتاع ما تريد بينما يضع الحمّال ذلك في السلة: خبزاً ولحماً وعنباً وليموناً وما تشاء السيدة أن تبتاع غير ذلك. وعندما تفرغ السيدة من شراء ما تريد تعود والحمّال يسير وراءها حتى تبلغ منزلها.

أقمتُ في يافا أياماً أستعدّ للرحلة المقبلة. هنا التقيت بيعقوب الذي يعرف قليلاً من الانكليزية. وفي السوق المفتوح التقيتُ باسماعيل وسعيد. واتفقت مع هؤلاء الثلاثة على أن يرافقوني في الرحلة. ثم ابتعت (صابية)

المهرة العربية الأصيلة. أصبح سعيد مكاري الرحلة وهو أسود اللون من بلاد السودان. أما اسماعيل فعربي يتكلم الانكليزية وهو فتى في مطلع الشباب. ويعقوب عربي أيضاً ولكنه مسيحي، وبحكم مذهبه فإنه يفلت من الخدمة العسكرية الاجبارية. ذات يوم سألت يعقوب: ما هي آخر أخبار عقيلة آغا؟ كان جوابه: الأنباء سيئة يا سيدي. لقد مضى عقيلة إلى الشرق ثم اتجه إلى الجنوب. انه مثل الريح: اليوم في طبريا وغداً في البتراء، وبعد غد في السويس. الأتراك لا يستطيعون أن يقبضوا على الريح أو على عقيلة.

عند الضحى غادرنا يافا. كان معنا ثلاث أفراس وبغل، ومسدس جيد. وددتُ لو أزور ضريح (طابيتا)، ولكن منازل يافا القديمة كلها اندثرت، لقد دمّرها فسباسيان وبعده جودفري وبعدهما صلاح الدين وسلاطين مصر. وفي الزمن الذي أحرق الانكليز فيه جاندارك (سنة ١٤٣١م)، وصفها بروكير الفرنسي بأنها خاوية خالية لا يقوم على أطلالها سوى بعض العرائش.

ويقودنا يعقوب بين جماعات البائعين وتجار الفواكه وحائكي الحصر والرهبان والمكارية. ويبتسم هذا وذاك لنكات يعقوب، فنادراً ما يضحك أهل سوريا، مع أنهم يفاخرون بالفصاحة وحضور البديهة. وقضينا ساعة ونحن نسير على الرمال الحمراء المحرقة، وعلى يميننا ويسارنا بيارات البرتقال، إلى أن بلغنا يازور وهي قرية تتألف من ثلاثة أكواخ أو أربعة. ولكن منظر أشجار الليمون والتفاح والرمان التي تحيط بها يبعث البهجة في النفس. وتوقفت في الطريق لكي أسقي فرسي من بئر ماء هناك، ولكن صاحب البئر أشار إلي بأن أمضي في سبيلي حتى بيت دجن حيث يمكن أن أجد ناعورة يديرها جمل لاستخراج الماء. وواصلنا سيرنا حتى وصلنا إلى قرية بيت دجن، فألفينا أنها تكاد تكون مختبئة بين أشجار النخيل والزيتون. وبالفعل وجدنا في بيت دجن البئر والناعورة. انها تحمل اسم (داجون) الاله السمكة لفلسطين القديمة التي تقول الأساطير انها تحمل رأس انسان وذيل دلفين. وكانت لهذا الاله هياكل عظيمة في غزة واسدود.

بعد أن غادرنا بيت دجن لم نلبث أن وصلنا إلى الأرض المفتوحة،

وتركنا وراءنا البيارات. هنا شاهدنا قطعاناً كبيرة من الغنم والماعز والبقر والجمال وهي ترعى في السهل. وهنا أخذنا نشاهد جماعات من الرجال يسيرون على أقدامهم باتجاه القدس: يهود ومسيحيون ومسلمون، فالقدس مكان يقدسه الجميع. جاء هؤلاء من جميع أنحاء الأرض: جائعين، عطاشا، في الحرّ الشديد والبرد القارس، لا يحمل أحدهم معه طعاماً أو شراباً، ولا يملك محفظة نقود. انهم الحجّاج الحقيقيون. تراهم يجرّون خطى أقدامهم في حرّ النهار وينامون تحت نجوم الليل. يسيرون عبر فيافي الصحراء وبين الأراضي المزروعة بالحبوب. يعيشون على ما يعطيه لهم المحسنون من كسرة خبز هنا إلى عنقود عنب أو قبضة عدس هناك. ونادراً ما يكون بينهم من يعرف كلمة من لغة أهل البلاد. وبالقرب من الرملة التقينا بجماعة من هؤلاء: بعضهم من السنغال والبعض الآخر من الملايو، وكان معهم زنجي من زنجبار. هؤلاء هم أتقياء الأرض، تراهم ناحلي الأبدان، متعبين، معاطفهم من جلود الحيوانات وثيابهم ممزقة. ولكن فلاحي سوريا الطيبين يحترمونهم، إذ يعتبرون أنهم يؤدون فريضة مقدسة. وقد يكون الفلاح فقيراً ولكنه لن يمتنع مطلقاً عن أن يتقاسم معهم قطعة الخبز التي لديه أو أن يسمح لهم بالمبيت في كوخه.

لم يكن أولئك الحجّاج رفاق دربنا الوحيدون، بل كنا نرى بين فترة وأخرى غباراً يثور، ورماحاً تلمع في ضوء الشمس وكوكبة من فرسان البدو على خيولهم يسيرون عبر السهل الهادىء. نراهم جماعات صغيرة، وهم يتجهون جنوباً نحو غزة واسدود، كأنما هم ماضون إلى موعد يرفعون فيه راية القتال.

خُيّل الينا من نظراتهم المستطلعة وشفاههم الحازمة، أنهم من رجال عقيلة أو من احدى القبائل المتحالفة مع الهنادى الذين يطيعون زعيمهم. وأردنا أن نعرف منهم أخبار عقيلة، فسأل يعقوب أحدهم فعلم منه أن قبولي باشا في طبريا وان عقيلة ليس هناك. «لا أحد يعرف أين عقيلة، ولكن هناك حرائق ونهب في كل مكان».

وصلنا إلى بوابات الرملة: بلدة تحيط بها الآبار الجافة والجبّانات. واتجهنا إلى الدير وطرقنا طويلاً على بوابته. وبعد ساعة فُتحت كوّة في البوابة ودار حديث. وعندما اطمأن الرهبان الينا وعرفوا اننا نملك محافظ نقود، سمعنا صوت مزلاج ثقيل وصليل سلسلة من المعدن، ثم فُتحت البوابة نصف فتحة، فدخلنا ودوابنا إلى ساحة واسعة تظللها شجرة نخيل باسقة، ثم أُغلقت البوابة بسرعة وراءنا.

في الرملـــــة

استقبلنا كاهن متقدم في السن وقادنا إلى غرفة معتمة فيها كومة من الحبوب وأعداد كبيرة من الذباب، فأخذنا نخلع أحذيتنا ونرتّب أوضاعنا، ولم يلبث الكاهن حتى جاءنا بشيء من شراب الليمون وبعض القهوة. وبعد أن أخذنا قسطاً من الراحة خرجنا نتجول في هذه البلدة المسلمة، بين أشجار الكمثرى، إلى أن وصلنا إلى سور الخان القديم الذي تنتصب بالقرب منه المئذنة الشهيرة للمسجد الأبيض، والتي تنافس في جمالها قبّة الصخرة الذائعة الصيت.

تمر من تحت هذه المئذنة طريق القوافل العظيمة التي تمتد من القاهرة إلى دمشق، وهي الطريق التي تعبر عليها جميع التجارة البرية بين مصر وبلاد فارس على ظهور الجمال. وعلى الرغم من أهمية هذه الطريق فإنها غير ممهدة أو مرصوفة. فالطرق العظيمة يتم انشاؤها عادة في عهود السلم. كان اليونان والرومان هم الذين شقّوا الطرق الكبيرة الممهدة، ولكن في سوريا ما يزال الناس يفكرون بعقلية البداوة. ذات يوم قال ثريّا باشا: ولماذا نمهّد الأرض الصخرية الوعرة من يافا إلى القدس؟ أمن أجل أن يرسل الروس مدافعهم الثقيلة إلى القدس؟ أما الحصان فيُعتبر هنا آلة حرب وليس حيوان نقل. هنا ترى رجال الدين يركبون على الحمير والباشوات على البغال. ذات يوم التقيت بالسر عسكر في دمشق وهو يركب بغلاً في البادية. وابراهيم باشا قائد الخيالة المندفع قطع المسافات من القاهرة إلى قونية على ظهر حمار.

في الرملة ترتدي النساء السراويل، مثلهن في ذلك مثل النساء في جميع أنحاء سوريا. أما الرجال فيرتدون الثوب الطويل.

وأخيراً عدنا إلى الدير وتناولنا طعام العشاء. كان هناك أفراد من شعوب شتى، وكانت هناك قصص وحكايات عديدة. وعلى مائدة الطعام ذُكر عقيلة آغا ـ الشيخ الجليلي ـ في أكثر من حكاية. ولكن أكثر تلك الحكايات تأثيراً كانت تلك التي رواها رئيس دير يوناني. لقد غادر ديره في القدس عند الفجر في طريقه إلى يافا واستانبول، ذلك إن طبيب الدير لقي حتفه، وهو ينوي البحث عن طبيب آخر يحل محله. كان ذلك الطبيب قد أمضى عشرين عاماً في فلسطين، عرفه أهل البلاد في اثنائها وعرفهم بدوره. وذات يوم اعتزم أن يزور صديقاً له يقيم على بعد بضعة أميال، ولم يدخل في ذهنه أن الصراع في الجليل بين قبولي وعقيلة يمكن أن يملأ نفسه بالخوف. حقاً لقد نصحه أصدقاؤه بأن يأخذ حذره، ولكنه ابتسم وغادر القدس عن طريق باب العمود في طريقه إلى نابلس. في اليوم التالي عُثر عليه ميتاً وقد سُلبت أكثر ملابسه. كان اللصوص قد اقتسموا كل ما كان يحمل من نقود وأخذوا حصانه وملابسه، ثم أوثقوا يديه وتركوه على قارعة الطريق. وعاد الرجل نحو القدس في رحلة مضنية، ولكنه فارق الحياة ظهر اليوم التالي قبل أن يصل اليها.

بعد العشاء أخذنا نستعد للنوم. كان علينا أن نسرج خيولنا في الساعة الواحدة وأن تتحرك القافلة في الساعة الثانية، بعد منتصف الليل، من أجل أن نصل إلى القباب (وهي أشد المواقع خطراً في الطريق) في ظلام الليل، وأن نبلغ اللطرون (مودين القديمة) مع طلوع الفجر. وبعد غروب الشمس بنصف ساعة كانت الرملة كلها تخلد للنوم. كان هناك صمت شامل لا يتخلله الا نباح الكلاب.

في الطريق الى اللطرون

في نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل ودعنا الراهب انجيلو، الذي أخذ يضع النقود في جيبه ويدعو الله أن نصل إلى القدس سالمين. بعد

خروجنا وجدنا أن القافلة تضم نحو سبعين - بين انسان وحيوان. وعندما غادرنا الرملة من بوابتها الشرقية، كانت الكلاب بموسيقاها الوحشية في وداعنا كما كانت في استقبالنا. ومضينا نستنشق نسيم الليل البارد المنعش حتى وصلنا إلى القباب. كان يعقوب يسير في المقدمة. وعلى حين غرّة صرخ قائلاً: خيالة!. وضعنا أيدينا على مسدساتنا وأخذنا نترقّب، ولم نلبث حتى شاهدنا خمسة خيالة يطلّون علينا وهم يرفعون رماحهم الطويلة. وتبادلنا الأسئلة والأجوبة فعرفنا أنهم من بدو العنزة، وأنهم في طريقهم إلى غزة. أخبرونا أن الخليل ثائرة ضد الحكومة وأن جميع القبائل وراء الأردن تحمل سلاحها كذلك ضد الحكومة.

أقبلنا على اللطرون مع خيوط الفجر الأولى. هذه التلة تسيطر على باب الوادي، أي على المدخل الرئيسي الى جبال القدس. لقد جعلتها الطبيعة عبر العصور موقعاً دفاعياً أو مخبأ للصوص وقطاع الطرق. ومع مضي الزمن تبدل اسمها من مودين إلى اللطرون، كما تبدل اسم بيت عنيا إلى العيزرية وقرية العنب إلى ابو غوش.

وادي علي (باب الواد)

كان هدفنا أن نتفادى المرور باللطرون، اذ قيل لنا أن أهلها ليسوا سوى عصابة من قساة اللصوص. لذلك سرنا بهدوء مع كتف التلة متجهين إلى وادي علي قبل أن يخرج القرويون برماحهم وبنادقهم ذات الفتيل. وصلنا إلى بناء ضخم قديم يطلق عليه العرب اسم دير أيوب. وفي باب الوادي كوخ لأحد الفلاحين يوفر للمسافرين مكان استراحة وفنجان قهوة وغليون دخان، بل يوفر أيضاً كرسياً يجلس المرء عليه. لهذا الكوخ جدار من الحجارة الغشيمة يحول دون دخول الذئاب والثعالب التي كثيراً ما تظهر في السهل. وهناك وجار مسقوف خاص بالنساء والأطفال. شاهدنا عدداً من الأشخاص يفترشون الأرض، وكان هناك شخص يغلي القهوة، وآخر يصنع شراب الليمون. وأخذنا جرعة من الماء نروي بها ظمأنا. ولكن لم تفلح قروشنا ولا عباراتنا المعسولة في اقناع هؤلاء الفلاحين بأن يعطوا دلو ماء

لفرسي (صابية) مع أن دموعها كانت تنهلّ حارّة على صفحة وجهها من شدة الظمأ. قيل لنا أن البئر القريبة جفّ ماؤها. وأنهم يحملون الماء في القِرَب الجلدية من مسافة تستغرق المرء ساعتين.

في كل مكان من بلاد الشرق، وبين جميع طبقات الناس، ترى الرجل يرعى جواده وناقته وبهيمته رعاية أفضل مما تلقاه هذه الحيوانات في أي بلاد من بلاد المسيحيين. وفي سوريا يُعتبر الحيوان الأليف عضواً من أعضاء الأسرة، يعتني به أصحابه عناية فائقة. وإذا ما رأيت في القاهرة رجلاً يضرب كلباً، فكن على ثقة من أنه رجل افرنجي. ولكن الماء في فلسطين قليل جداً حتى كثيراً ما يقتصر الانتفاع به على الانسان. أضف إلى ذلك أن هذا العام كان قليل الأمطار. وهكذا بقيت فرسي تعاني من العطش، أما أنا فتبلغت بكسرة من الخبز أحضرتها معي من الرملة، وبقطعة من الليمون وفنجان من القهوة. ثم غادرت أنا ورفاقي الخان في باب الوادي متجهين نحو حلق الجبل.

أطلق أهل البلاد اسم أحد الأولياء على هذا الوادي. هنا لا توجد طريق. يمكن القول أن هناك درباً لمسافة ميل أو أكثر، على جانبيها بعض النباتات وقطع أرض مزروعة بالذرة، تبدو وكأنها تسرّبت من السهل ومن بين التلال لتستقر هنا. وترى هنا أشجار زيتون قديمة، وكذلك نباتات الآس والغار، وهي تنمو بين الصخور وترتفع فوقها، كما ترى أشجار بلوط قميئة. ونمضي عبر اخدود حفرته السيول. ثم نمر بصعوبة في محاذاة صخور عظيمة ومضائق صنعتها عناصر الطبيعة والزمن الطويل.

وتقوم هنا وهناك أبراج صغيرة للمراقبة أنشأها الأتراك قبل نحو عشر سنوات، في مواقع تشرف على الوادي. ولكننا لم نر جنوداً في هذه الأبراج. وبدا لنا كأن أولئك الجنود تمّ استدعاؤهم إمّا للدفاع عن ثريا باشا متصرف القدس، وإمّا لتعزيز الكتائب التي كُلّفت بمهمة مطاردة عقيلة آغا. وفي طريقنا مررنا بعدد من الجمال، وبدوي يرافقه ابنه، ورجل دين يهودي على حمار، كما التقينا بجماعة من الحجّاج في طريق عودتهم إلى بلادهم. ولكن

المكان يزداد وحشة في أثناء تصعيدنا مع الوادي، فلا يرى المرء منزلاً أو بستان شجر أو طاحونة ماء. أجل انك ترى آثار دير قديم أو بقايا مسجد على هذه التلعة أو تلك، ولكن لا شيء غير نباتات الشوك والقطلب. ونلتفت ونحن على سروجنا نحو الغرب فنرى البحر منبسطاً أمام أنظارنا، البحر العزيز الذي يذكّر المرء ببلاده.

ثم نصل الى بيت فجوّل، وهي عبارة عن خرائب عربية تقوم على رأس تلة مرتفعة، وبالقرب منها في الناحية اليمنى قرية ساريس الصغيرة وفيها بئر ماء وبستان. وبعد أن نجتاز هذه القرية نلاحظ اننا اجتزنا مضيق وادي علي وأخذنا نسير على أقدامنا فوق كتف الوادي الشديد الانحدار. ونرى أمامنا قمتين: صوبا إلى اليمين وبيت نقبة إلى اليسار. ونتطلع تحتنا فنرى الوادي واسعاً منبسطاً. وتبدو لنا فجأة قرية ذات اسم شاعري هي قرية العنب، وهي قرية صغيرة بُنيت منازلها من الحجارة. وفي القرية أشجار عنب وتين كثيرة ومسجد ونبع ماء وبقايا كنيسة. وبدا أن القرية أفاقت لتوّها من النوم، فهناك ناقة تسير على طريق، وشيخ يصلي على سطح منزل، وفتاة تحمل الماء من بئر. ومع ذلك فإن هذه القرية الجميلة كانت المقر الجبلي لرجل العصابات الشهير أبو غوش.

وترى أمام بقايا الكنيسة ساحة يحيط بها جدار من الحجارة الغشيمة على شكل مربع وتنمو في داخله بضع أشجار قديمة. انه واحد من الخانات التي تقوم على جوانب الطرق حيث يجلس الحاج ساعة من الزمن يرتاح جواده في أثنائها ويتبلّغ هو بوجبة طعام بسيطة. وقبل أن يبسط اسماعيل سجادة على الأرض، رأينا الفتيات يأتين بجرار الماء وشيخاً يدخن غليونه جاء يطلب الاتاوة المعتادة. ان قروشاً قليلة تكفي، لأن الشيخ لم يعد ذلك الأمير الذي يتزعم الف رجل محارب، فيشن الحرب على جيرانه ويتقاضى إتاوةً من باشا القدس. لقد تحطمت قوة أبو غوش وأصبح اسمه المرعب ذكرى من ذكريات الماضي. ومع ذلك رأينا من الحكمة، ونحن نعبر الوادي الموحش حيث يحمل كل رجل بندقيته، أن نكون على وئام مع الشيخ عن طريق الاستجابة لمطالبه.

وبينما كان اسماعيل يعدّ طعام الافطار قمت بجولة في دروب القرية، وتذكرت أنها كانت في زمن الكنعانيين بلدة مقدسة وشهيرة (مدينة بعل) وكان فيها أحد آلهة الكنعانيين. وفيما بعد أصبح اسمها (مدينة الغابات). ولكن بعد ثلاثة آلاف سنة، أي في عصرنا الحديث، أصبحت قرية العنب تُعرف باسم ذلك السلاّب المعروف: أبو غوش.

بعد الافطار استأنفنا السير، بينما كان الشيخ يلوّح لنا بيديه، كأنما يحلم بما كانت عليه الحال قبل عشر سنوات، حينما لم يكن بمقدور أي افرنجي أن يغادر الخان قبل تفتيش أخراجه [جمع خُرج]، وربما تخفيف أحمالها.

بدأنا نسير مصعّدين، وأمامنا (صوبا) على قمة عالية، تتوجها قلعة كان محمد علي قد خرّبها ثم أعاد أبو غوش بناءها. وبينما كنا نقطع تلعة أخرى أكثر ارتفاعاً شاهدنا على يميننا خرائب قلعة القسطل الصليبية، ثم هبطنا في واد لا يلبث أن يتصل بوادي بيت حنينا الكبير. هناك شاهدنا عدداً من البساتين الصغيرة تزهو أشجارها بالثمار اليانعة من تفاح وعنب ورمان، وتبين لنا أن في هذه البساتين مياهاً وافرة. وعلى مقربة من هناك قرية قالونيا التي كانت في الأصل محطة رومانية. هنا تبدّت تباشير الحياة مرة أخرى، فالفلاحون ينشئون البيوت والنساء يلتقطن حبوب الزيتون، والأطفال يجوسون بين الأشجار، والوادي الخصيب يموج كله بالنشاط والحياة. انه من أجمل المواقع في منطقة القدس الجبلية.

القــدس

غادرنا الوادي وتركنا وراءنا أشجار التين والزيتون. وبعد قليل شاهدنا دير عين كارم على يميننا. كانت قمتا صوبا والنبي صموئيل ترتفعان فوق تلال المنطقة كلها. وتزداد الأرض وعورة، وتقل النباتات والأشجار: والصخور تمتد امامنا، حتى نشاهد أخيراً المدينة المقدسة. ثم تتعلّق أبصارنا بنخلة وحيدة ترتفع باسقةً بالقرب من بوابة بيت لحم [باب الخليل].



باشبوزق
(عن كتاب روبنسون ليس)

عند وصولنا إلى البوابة التقانا جمهور من الناس (عرب ويهود ويونان وأرمن) يسألوننا عن الأخبار: هل حقاً نُهبت الرملة؟ هل حقاً وصل بدو العْنَزَة إلى اللطرون؟ أهناك حركة في أبو غوش؟ وبدت على هؤلاء الدهشة حينما عرفوا اننا عبرنا الوادي دون أن ينهب أحد متاعنا. والحقيقة ان نهب أمتعة الإفرنج لم يعد أمراً هيّناً. فالافرنجي يحمل في العادة سلاحاً فتاكاً وهو يصيب الهدف بدقة. لذلك أصبح الأمر نوعاً من الرهان بين محفظة الإفرنجي ودم البدوي. وإذا ما استطاع البدوي أن يأخذ محفظة نقود الإفرنجي، فإن الأمر يكبر ويتفاعل، ذلك أن القنصل يراجع الباشا، والباشا يطلق رجاله الباشبوزق، وهؤلاء يلاحقون القبائل حتى يصلوا إلى خيامهم السوداء. وعندئذ تفرض الحكومة عدة أنواع من الغرامات، بل تضع يدها على الجمال والخيول. وهكذا أصبح نهب نقود الإفرنجي

وأمتعته، في السنوات الأخيرة، لعبة خطرة وغير مربحة[1].

وتتطاير الإشاعات هنا وهناك: يُقال أن ثورة نشبت في الخليل وأن أعمال سلب وقعت في منطقة نابلس، وحرائق في مرج ابن عامر. ويزعم الزاعمون أن التعامرة (وهم قبيلة تسيطر على المنطقة الجبلية من بيت لحم إلى البحر الميت) يتحركون. ويُقال أن جماعات من بدو العدوان أخذت تتقدم عبر وادي قدرون، وأن ثريا باشا أرسل جنوده إلى جهات الخليل، وأن طريق نابلس مقطوعة، وأن شهراً مضى دون أن تصل أنباء من الناصرة... واحتج يعقوب على فكرة نصب خيمتنا خارج أسوار المدينة، ولكنه أُرغم للمرة الأولى في حياته على أن يخضع للأمر الواقع.

يمكن وصف القدس بأنها تعيش في حالة حصار، لأن جميع المناطق المحيطة بها تخضع للأحكام العرفية. وبالحقيقة كيف يمكن لمدينة كهذه أن تحيا الا اذا كانت اليد التي تديرها تحمل سيفاً؟ فالأعداء دائماً على أبوابها. ما عليك الا أن تلقي نظرة من قبة هذا الجامع الصغير على جبل الزيتون. انك على سيف البرية الواسعة، وجهاً لوجه مع قاطني بيوت الشعر الذين لم يعرفوا قط الخضوع لسيطرة الحكومة، ولم تدخل في أذهانهم فكرة زراعة القمح والعدس. من هذه القبة تستطيع أن تشاهد أمواه البحر الميت وفيافي وادي الأردن، وسلسلة جبال مؤاب. وأنت تعرف أن البلاد الممتدة بين الأردن والفرات لا تعترف بقانون عدا قانون اليد الطويلة والسيف البتار. لم يحدث قط في هذه المناطق أن شعر ساكنو بيوت الشعر بالتعاطف مع ساكني القرى. ولم يحدث قط أن البدو كفّوا عن مهاجمة المزارعين: فهم يخرّبون منازلهم وينهبون حبوبهم ويفرضون الأتاوات على عدد رؤوسهم. هؤلاء البدو من عَنَزَة وشمَّر والموالي والعدوان، كلهم مسلحون وأصحاب خيول، وهم يصيبون الهدف بدقّة من على ظهور خيولهم ولا يباريهم أحد في القدرة على الطعن برماحهم. لم يحص عددهم سلطان، فالعَنَزَة عددهم كبير جداً،

---

١ ـ الباشبوزق: كلمة تركية كانت تُطلق على أفراد القوات العسكرية غير النظامية، أي قوات حفظ الأمن المحلية. والكلمة تتألف من مقطعين (باش) ومعناها (راس) و (بوزق) ومعناها (فارغ).

وبني صخر جيش قوي، وهؤلاء وأولئك يعلنون أنهم يستطيعون أن يحشدوا خمسين ألف مقاتل إذا ما دعاهم الخليفة لمحاربة الأجانب. هؤلاء العربان جميعاً تراهم دائماً على مقربةٍ من المدينة المقدسة. وانك لتجد للعدوان وكيلاً في أبو ديس، أما التعامرة فينصبون خيامهم في الأودية المحيطة بالأسوار.

نصبنا خيمتنا على جبل الزيتون بالقرب من كنيسة الصعود، ومن هناك أخذنا نتنقل في البلاد من الخليل إلى عين كارم إلى مار سابا إلى بيت لحم والنبي صموئيل. وفي كل مرة كنا نعود باشتياق إلى بيتنا المصنوع من خيوط الشعر، ولا نكاد نمل من الاستمتاع بالمناظر الجميلة في ذلك الجبل المقدس.

في الطريق إلى الخليل

بينما كنا نسير على الطريق الرئيسي من عين كارم إلى الخليل، لاحظنا عموداً من الغبار تلتمع من خلاله السيوف والرماح. توقفنا ننتظر وأيدينا على مسدساتنا، فلم يلبث الغبار حتى انشقّ عن كوكبة من خيالة الباشبوزق يتراوح عددهم من ثلاثين إلى أربعين، ولكن كان معهم خمسة خيول أو ستة، دون رجال. صرخ يعقوب يسألهم، ولكنهم لم يتوقفوا بل استمرّوا مسرعين في طريقهم نحو بيت لحم.

بعد فترة تردد استأنفنا السير حتى وصلنا إلى مكان اتضح لنا بسرعة أن عراكاً نشب فيه، فقد شاهدنا على الأرض جثتي شابين من البدو، كان أحدهما قد لفظ أنفاسه نتيجة لجرح عميق في رقبته، أما الثاني فكان دمه ما يزال ينزف. كانت آثار المعركة بادية على الأرض. وفيما نحن في حيرة من أمرنا وصلت كوكبة من الفرسان المسلحين بالرماح. سألونا من نكون، فأجابهم يعقوب واسماعيل بأنهما يرافقان اميراً انكليزياً هو ابن عم الملكة العظيمة، وصديق للعرب والمسلمين، وهو يريد الذهاب إلى الخليل لزيارة مغارة المكفيلة والصلاة تحت بلوطّة ابراهيم. ألقى شيخ الجماعة نظرة عابسة على الجثتين (كان الثاني قد أسلم الروح أيضاً) ثم أصدر أمراً لرفاقه، فجيء بجوادين حُمل الشابان عليهما، وعاد الجميع باتجاه الخليل.

ان أهل هذه المنطقة يعتبرون السلطان خليفةً للمسلمين، ولكنهم لا يلقون اعتباراً لقوانين السلطان الا بمقدار ما يعتبر أهل جنوى قوانين البابا. انهم قوم يعيشون في بيوت الشعر، ويتنقلون مع جمالهم ومواشيهم من واد إلى آخر بحثاً عن الكلأ. أما تعليمات السلطان فلا شأن لهم بها، ولا سيّما أنها تصل اليهم عن طريق ثريّا، الرجل الذي يعتبرونه غريباً عنهم ومتطفلاً على بلادهم.

في المدة الأخيرة أرسل ثريا إلى هؤلاء البدو خطاً سلطانيا (أمراً) ذا أهمية، يقضي بتجنيد عدد من الرجال، لأن السلطان الجديد عبدالعزيز اعتزم ان يجري اصلاحات في الدولة وأن يعمل على تعزيز الجيش ورفع مستواه. ومن بلغراد إلى بغداد، تحتّم على كل ولاية من ولايات الدولة أن تقدم عدداً معيّناً من الرجال في موعد معيّن. بالنسبة للبدو كانت فكرة الانخراط في سلك الجندية بغيضةً ممقوتة. ان البدوي بطبيعة حياته انسان طليق لا يتقيد بنظام، حتى المدينة تبدو له أشبه ما تكون بالسجن. وهكذا رفض البدو الاستجابة لأمر السلطان. وجاء الجنود يدقون طبولهم، ففر الشبان إلى البراري. ونُصبت خيام السلطان البيضاء بالقرب من برك الخليل، وارتفعت فوقها الراية الحمراء وفي وسطها الهلال. ومع ذلك فإن أحداً لم يتقدم للدخول في سلك الجندية.

ماذا يستطيع ثريا أن يفعل؟ لم يكن في مقدوره الا أن يعمل على تنفيذ أوامر السلطان. وفي أثناء تلك المشاكل وصلت أنباء مزعجة من الجليل تتحدث عن ثورة قام بها عقيلة آغا، وعن اضطرابات في الناصرة. واعتزم ثريا أن يعمل بحزم حتى لا يزداد الاضطراب في الناصرة ويتحول إلى ثورة عربية، فأرسل سرية من رجال الباشبوزق مع أوامر بمباغتة مضارب الشيخ في الليل، والطلب اليه أن يأتي إلى سرايا الحكومة مع أولاده وأبناء أخيه. كانت الأوامر تقضي بجلب الشيخ إلى مقر ثريا سواء باللين أم بالقوة. وطبّق الجنود أمر المتصرف، وعندما وجد الشيخ نفسه في مواجهة الجنود، أبدى استعداده للذهاب، ولكنه طلب وثيقة الأمان، فأعطاه قائد الجنود وثيقة كان ثريا قد مهرها بتوقيعه. ولكن شيوخ البدو كانوا يطلبون وثيقة أمان موقعة

من قبل المتصرف ومن قبل أحد القناصل. ومع ذلك رأى الشيخ نفسه مضطراً للطاعة. ومضى هو وأبناؤه وأقاربه مع الجنود، ومعهم خيولهم وسلاحهم، إلى أن وصلوا إلى واد عميق يدعى وادي العرّوب، وهناك فوجىء الجنود في غلس الظلام بهجوم من بعض البدو عليهم. كان الهجوم مباغتاً، وقبل أن يفيق الجنود من دهشتهم، كان المهاجمون قد اختفوا، واختفى معهم ثلاثة من أسراهم الخمسة. ثم اكتشف الجنود أن ثلاثة منهم قد سقطوا. واعتزم القائد أن يستمر في سيره حتى لا يعود البدو للهجوم مرة ثانية. وفي أثناء الطريق يبدو أن الشابين الأسيرين حاولا الفرار، للافلات من المصير الذي كان ينتظرهما عند وصولهما إلى القدس، ولكن المحاولة انتهت بضربة سيف في عنق أولهما وبرصاصة في صدر الثاني. وهكذا سقط شابان بدويان عن سرجيهما على طريق الخليل.

بيت لحـــــم

في أثناء عودتنا من الخليل عرّجنا على دير اللاتين قرب بيت لحم لأخذ قسط من الراحة. هناك تبين لنا أن التلال العالية تحيط بالبلدة، فهناك دير مار الياس للروم، وهناك البساتين والكروم إلى الجنوب والشرق منها. هنا تترعرع أشجار التين والعنب والزيتون، وهنا جبل الفريديس. فلا غرابة أن تُعرف هذه البلدة في الزمن القديم باسم (افراتا) أي (موضع الفواكه)، ولا غرابة أن يُطلق عليها بعد ذلك اسم (بيت لحم). انها بقعة خضراء غنية في وسط برية قفراء. وهي بلدة تحفل بالذكريات الدينية، وأعظم تلك الذكريات مولد السيد المسيح فيها، عندما سمع الرعاة صوت جوقة من الملائكة يسبحون باسم الله قائلين «المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرّة».

خانات سوريـــا

الخان السوري لا يشبه فنادق أوروبا. انه قلعة وسوق تجارية، وملجأ للاحتماء من اللصوص، ومكان يقيك من الحر والغبار. فيه يجد المسافر ودابته مكان اقامة أميناً، وفيه يستطيع التاجر أن يبيع بضاعته، والحاج أن

يطفىء ظمأ جوفه. منذ أقدم الأزمان كان منزل الشيخ أو خيمته يقومان مقام الخان، بالنسبة للمسافرين وعابري السبيل، ولذلك كانت المضافة أفضل مكان في البلدة، وأكثر الأماكن أمناً في مضارب القبيلة، ذلك لأن الزعيم البدوي يتمتع بحق تشليح الغرباء الذين يمرون بالقرب من مضاربه، أو امتياز حمايتهم، ومنزله هو الوحيد الذي يقصد الضيوف اليه. ولكن كانت هناك دائماً أماكن كثيرة لا يستطيع المسافرون أن يجدوا فيها مضافة شيخ قرية أو زعيم قبيلة. ومن هنا جاءت فكرة انشاء الخانات. والخان في بعض الأحيان لا يزيد عن حضيرة مسيّجة ينزل فيها التجار والغرباء. وكلمة (خان) فارسية الأصل ومعناها: المبيت ليلة واحدة. وحيث لا يمكن وجود مضافة دائمة في أماكن معينة يمرّ بها المسافرون، عمد المحسنون العرب إلى انشاء الخانات: بالقرب من نبع ماء أو في ظلال عدد من الأشجار.

ومع مضي الزمن وازدياد قوة العرب وثرائهم أخذت تلك الحظائر تتطور، فأنشئت لها الأسيجة من الأشجار الشوكية أو أُقيمت حولها الجدران الحجرية. وهذا الطراز من الخانات البدائية التي يمكن للمرء أن يقضي ليلة فيها، يمكن مشاهدتها هذه الأيام في أنحاء عديدة من سوريا: في باب الوادي قرب اللطرون، وفي أريحا في سهول البحر الميت وفي قرية أبو غوش. ففي خان أبو غوش لا ترى سوى جدار من الحجارة الغشيمة، فلا بوابة ولا سقف. ولكن المسافر يعرف أنه يستطيع هنا أن يكون في أمان.

على أن هناك فرقاً بين هذا الطراز من الخانات وتلك التي أنشأها هارون الرشيد وصلاح الدين على جوانب الطرق السورية. فالخان الشرقي الأصيل بناء متين من الحجارة المنحوتة، يدخل اليه الناس من بوابة، ويصل اليه الماء في قناة، وتكون فيه نافورة، ويضم في داخله أعمدة وزوايا ولواوين، ويشرف على العناية به حارس دائم الإقامة فيه. والخان الشرقي يقيمه في العادة أمير أو شيخ، ولا بدّ أن يكون الرجل الذي يتصدّى لمهمة اقامته ذا ثروة كبيرة. لقد اشتهر هارون وصلاح الدين بأنهما أقاما أكبر عدد من الخانات. ان بناء الخان يُعتبر عملاً من أعمال الاحسان أو الرعاية الجماعية مثله مثل حفر بئر للماء أو انشاء بستان واسع. وفي إيامنا هذه

أصبح الخان سوقاً للتجارة أكثر منه فندقاً للاقامة.° خذ مثالاً على ذلك الخان الموجود في القاهرة والخان الموجود في بيروت. وفي المدن الكبيرة يمكن أن يكون انشاء الخان لغاية جني الأرباح. ولكن الخانات الكبيرة التي كانت تزدان بها طرق التجارة الرئيسية: بين دمشق وحلب، بين جدارا [أم قيس] وصيدا، بين القدس والاسكندرية - أُنشئت على سبيل الإحسان والمنفعة العامة، وليس لغايات الكسب، ولذلك كانت لها صفة تقديس واعتبار. حتى في أيام الحروب والدمار، كان هناك نوع من الاتفاق على عدم المساس بالخانات، على اعتبار أنها أوقاف عامة مثل مياه الينابيع والآبار، التي يحق لجميع الناس أن ينتفعوا بها. وفي أيام الحروب القديمة كان الخان يقوم بالدور الذي يقوم به المستشفى في الحروب الحديثة: فهو مكان يعتبر الجميع أنه يقوم بمهمة شريفة. ولذلك كان الملوك العظام يعتنون ببناء الخانات على أصول الفنون المعمارية السائدة في أيامهم. كانت للخان صفة تماثل صفة المحكمة في بلاد الشرق أو دار البلدية في بلاد الغرب. وكان طراز بناء الخان واتساعه يحملان الدليل على مدى قوة الزعيم الذي عمل على انشائه.

وفي المدن والقرى السورية المزدهرة، وحتى في براري الصحراء، حيثما تمر طرق التجارة والمواصلات، يكون الخان صرحاً واسعاً متين البناء ضخم الهيكل. وهناك بقايا خان كبير قرب الطريق التي تسير من جلجال إلى القدس، لا تقل مساحته عن مساحة كنيسة. وعندما يقوم شيخ كبير أو سلطان غني مثل صلاح الدين ببناء خان، فإنه ينشيء له سوراً مرتفعاً وساحة داخلية وسلسلة من اللواوين والأعمدة، مع بهو مفتوح حول جوانبه الأربعة. وفي بعض الأحيان يكون للخان برج مرتفع لمراقبة تحركات عصابات الأشرار. وغالباً ما تُلحق بالخان سقائف وأحواش جانبية تكون بمثابة اسطبلات للبهائم والجمال والبقر والماعز. وفي وسط الخان تكون هناك نافورة ماء، لأن الماء من الزم الضروريات في حياة الانسان العربي. وفي الخان ترى الجمال تنتظر من يفك عنها أحمالها، والكلاب تتهارش على عظمة، وترى بدو الصحراء يؤدون الصلاة والمسدسات معلقة بزنانيرهم. وفي الساحة ترى التجار يجلسون إلى جانب رزم بضائعهم: عنبر من بحر

البلطيق، وحلى ذهبية من القاهرة، وشالات حاكتها أنوال الهند، وبهارات من بلاد العرب السعيدة [اليمن] وعطور غالية الثمن من كروم مؤاب. وانك لترى الرجال وهم أنصاف عراة يغسلون أيديهم قبل أن يجلسوا لتناول الطعام. هنا حلاق يقص شعر أحد الناس، وهناك فلاح ينام في الظل. وفي الخان حركة دائبة ورجال كثيرون يدخلون ويخرجون. المصابون بدوار السفر يأتون ليشربوا، والمتعبون ليرتاحوا، ورجال الأعمال لكي يبيعوا ويبتاعوا. ولكنك لا تجد في الخان مضيفة تقول لك: نهارك سعيد، ولا طباخاً يعدّ لك وجبة الظهيرة. على كل رجل هنا أن يحمل معه طعامه وفراشه، وأن يعتني بفرسه أو ناقته، وأن يعدّ طعامه بنفسه، ويسحب ماءه، ويوقد ناره. وما دام أن الليوان الذي يضع فيه متاعه ويمدّ بساطه ـ عار من أي شيء، فلا بدّ للمسافر أن يحمل معه ابريقاً ومقلاة وجرة وصحناً، مع كيس من الأرز وعلبة القدح[1] وشمعة، وفنجان قهوة وكانون وموقد. وعندما يجد المسافر الخان مزدحماً بالحجاج أو المسافرين ـ كما يحدث في أيام الاحتفالات الدينية، أو عندما تتجمع القبائل لكي تشنّ الحرب أو تعقد الصلح ـ فقد يتعينّ عليه أن يلقي لحافه على النباتات الجافة في الخارج، وهو يشعر بالسعادة لأنه استطاع أن يؤمّن مربطاً لناقته وحماره.

ظلت هذه الخانات الأهلية ذات أهمية إلى زمن قريب عندما أُنشئت أديرة الروم واللاتين في البلاد المقدسة، فأخذت تتراجع ويقل عددها. فالرهبان القادمون من ايطاليا واسبانيا أو من اليونان وبلاد الاناضول، قد لا يرى الرجل الانكليزي انهم في غاية النظافة والوسامة، ولكنهم على أية حال يستطيعون أن يقدموا لك فراشاً تنام عليه، وملجأ تأمن فيه على نفسك من حراب البدو. وإذا اتخذت لنفسك عندهم مكان اقامة، فربما تجد غرفتك غير نظيفة أو مرتبة، وطعامك خشناً، ولكنك على الرغم من ذلك تجد ان سقفهم مرتفع وساحتهم باردة (في أيام الصيف) وبوابتهم متينة. وأنت على الأقل تستطيع أن تنام في هدوء واطمئنان، وان تحل زنارك وتخلع حذاءك

---

١ ـ قبل اختراع أعواد الكبريت، كان المسافر يحمل معه علبة معدنية تحتوي على صوفان وحجر قدح، لاشعال النار.

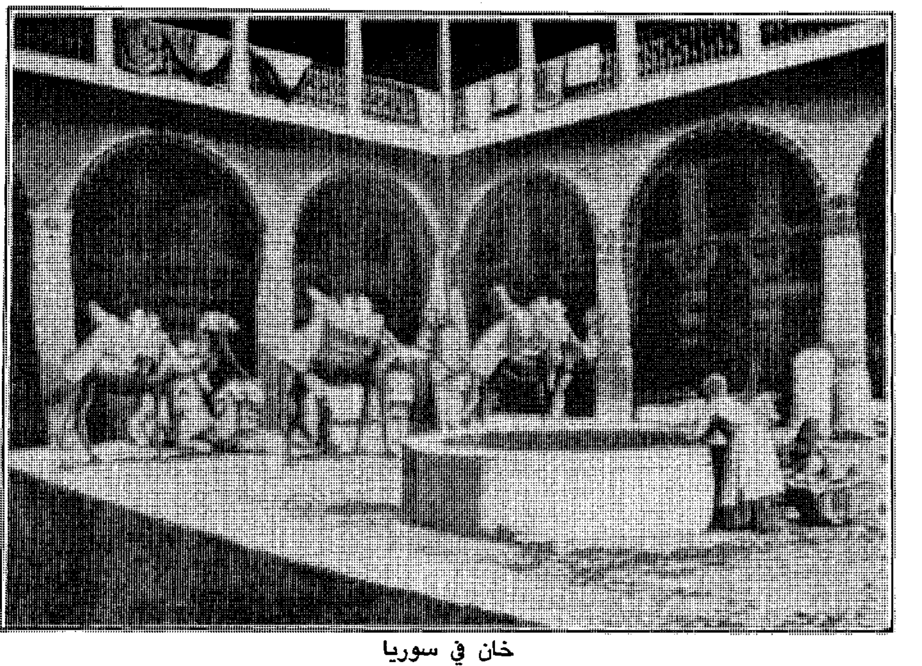
وتعلق سلاحك على جدار الدير. كذلك يمكن لدابتك أن تجد مذوداً وعلفاً ومراحاً. قد يبدو هذا بسيطاً، ولكن المسافر الذي أنهكه التعب، والذي تجاوز مرحلة الشعور الرومانتيكي بمتعة الحياة في خيمة في العراء - لا بدّ أن يجد راحة كبيرة في أن يلقي مسدسه جانباً ويخلد إلى النوم وهو مطمئن إلى أنه لن يصحو من نومه على عواء ثعلب أو صيحة بدوي.

لقد أخذت الخانات تتراجع ويلحق بها الإهمال منذ أن تُرك أمر العناية بها للتاجر والبدوي، حتى أن بعضها تهاوى وسقطت جدرانه. ولكن العديد منها ظلّ يقاوم عوادي الطبيعة ردحاً طويلاً من الزمن. ان بقايا أحد هذه الخانات، أو حتى ذكراها، ظلت تحيي في أذهان أبناء القبائل بعض المعرفة بأهم الأماكن القديمة والشهيرة. ولنذكر على سبيل المثال الخان الواقع عند جسر بنات يعقوب على نهر الأردن، والخان القائم عند بئر يوسف على طريق قيصرية فلبّي.

خان بيت لحم

ربما يتساءل المرء: هل كان في بيت لحم خان غير الخان الذي وُلد السيد المسيح في مغارة بالقرب منه؟ ان الذين سافروا على الطرق السورية ولاحظوا مواقع الخانات ومدى قوة جدرانها ومتانتها، لا يطلبون برهاناً على الافتراض القائل بأنه من غير المعقول أن يكون في بيت لحم أكثر من خان واحد، ذلك لأن بيت لحم كانت دائماً بلدة صغيرة، فلا يوجد أي سبب لانشاء أكثر من خان فيها.

انشئت هذه الخانات على مسافات، يبعد الواحد منها عن الآخر نحو سبعة أميال، أي ما يوازي مسيرة بطيئة ليوم واحد بالنسبة لمن يمشي على رجليه. لذلك كان هناك خان في بيت لحم باعتبارها المحطّة الأولى على طريق القدس الجنوبية. وانك لترى أيضاً بقايا خان قديم على طريق القدس الشرقية، وعلى نفس المسافة تقريباً، عند نبع (الحوض) الحالي. وفي منتصف المسافة بين القدس وأريحا كان هناك خان آخر، بل تكية، على قمة جبل وعر [الأرجح انه الخان الأحمر]، ولا بدّ أن يكون المسيح عليه السلام قد توقف



خان في سوريا

وتبدو في الصورة الساحة الوسطى التي تحيط بها اللواوين، والجمال وعليها أحمالها، وفي الوسط بئر الماء.

(عن كتاب فوردر - مغامرات بين العرب، المطبوع سنة ١٩٠٩)

مراراً هناك ليأخذ قسطاً من الراحة، ومن المرجح أن يكون ألقى ذلك المثل الانساني العظيم (مثل السامري الطيب) هناك. هكذا كانت القاعدة العامة في سوريا. ان خان تومان يبعد ثمانية أميال عن حلب، وخان المديرج يبعد نفس المسافة عن دمشق، وخان المنية يبعد سبعة أميال عن طبريا، على طريق دمشق، بينما يقع خان التجار على مسافة أبعد على طريق عكا. ولم يكن الخان بناية للمنفعة العمومية فحسب، جدرانه متينة وطراز معماره رفيع، ولكن الأرض التي يقوم عليها تصبح مع مرور الزمن ذات اعتبار واحترام، مثل أرض الوقف، لأن الخان أُنشىء لغايات الاحسان والمعروف وأصبح نوعاً من المزار الذي يجب المحافظة على سلامته ومكانته وهدوئه. ويظهر هذا الاعتبار في بلاد الشرق من حيث أن الناس لا يحاولون نقل حجارته للافادة منها في أية أبنية أخرى - حتى بعد ان يتهاوى الخان ويصبح خراباً. ولنذكر أن الخان يتمتع بصفة طول العمر مثله مثل المحكمة والمسجد، بل أنه يصبح بالنسبة لعامة الناس أكثر شهرة من كليهما.

وفيما يتعلق بخان بيت لحم، فاننا نعرف انه كان - بالإضافة إلى مولد السيد المسيح بالقرب منه - أبرز الخانات في منطقة القدس. ذلك انه كان أول محطة بالنسبة للمسافرين من القدس إلى مصر، وفيه كانت تتم جميع الترتيبات التمهيدية لرحلة القافلة، يهرع اليه جميع الذين تأخروا لسبب من الأسباب، وفيه يودّع الناس بعضهم بعضاً، ويتبادلون القبلات الأخيرة قبل بدء السفرة الطويلة. أجل، لقد كان خان بيت لحم نقطة التجمع ومركز الانطلاق لجميع الحجاج والتجار الذاهبين إلى الجنوب، وخان كهذا لا يمكن نسيانه في مائة سنة. وهذا هو الخان الذي كانت المغارة التي وُلد فيها المسيح جزءاً منه. يدل على ذلك قول الانجيل عن مريم العذراء «فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المذود، اذ لم يكن لهما موضع في النزل».

الكرمـــــل

يضرب أهل الجليل المثل ببرودة جبل الكرمل. ونسير بين خطوط معسكر تركي، ثم ننقل خطواتنا عبر شوارع حيفا الضيقة، ونواصل سيرنا

في غابة من شجر الزيتون تغطي سهلاً يفصل الجبل عن البحر. وأخيراً نصل إلى بداية درج حادّ الانحدار، نُحت في الصخر ولا يقل ارتفاعه عن ميل. ثم نصل إلى بوابة الدير على ظهر الجبل، فيرحب بنا اثنان من الرهبان وعشرة من الكلاب. وشاهدنا في ساحة الدير قطيعاً من الماعز جيء به ليبيت هنا، حتى لا يبقى عرضة للباحثين عن الغنائم من بني صخر والهنادى. وسيكون القطيع في أمان هنا حتى لو كانت سيطرة عقيلة تشمل الجبل والوادي.

من المستطاع الحيلولة دون دخول البدو إلى الدير، وذلك بواسطة البوابات والمزاليج، ولكن جنود قبولي باشا جميعهم لا يستطيعون منع البدو من نهب السهل المفتوح. ان قبولي والي صيدا، والذي كنا مررنا بمعسكره في وادي الناصرة، هو أحد الأمراء العظام في تركيا. انه شاعر وعالم وجندي، وواحد من رجال الدولة المسلمين الذين يلعبون ورق الشدة ويقرأون الرسائل والتقارير، ويهدفون إلى أن يكونوا مسلمين صالحين بالإيمان والممارسة العملية، هذا على الرغم من أن ثقافتهم افرنجية. ويجيد قبولي اللغة الفرنسية اجادة تامة ويعرف الكثير عن شؤون أوروبا ورجالاتها. لقد قضى زمناً في انكلترا وعرف طراز الحياة وأسلوب التعامل فيها. اننا نحمل فكرة خاطئة عن باشوات الدولة العثمانية في الوقت الحاضر. لقد التقيت بعدد من الباشوات والبكوات في تركيا وسوريا ومصر والجزر (يعني جزر بحر ايجه)، فألفيتهم جميعاً لطفاء ذوي معرفة طيبة ومعاملة حسنة. ومعظم الذين التقيت بهم من هؤلاء يحسنون الفرنسية أو الانكليزية، بل أن بعضهم يعرف الروسية أو الألمانية، وقلائل منهم فقط لا يحسنون اليونانية. ان لغتهم الأصلية هي التركية، وأكثرهم يعرف العربية لغة القرآن، والفارسية لغة الفردوسي.

قبائل البدو

ان التركي ما يزال يميل إلى السمنة، وما يزال فاتر الهمة، شاعرياً، مسرفاً في التدخين، محباً للفخفخة، ويرفع رأسه عالياً بين الناس ـ ولكنه

توقف الآن عن ابتياع العبيد والخصيان وعن التباهي بالجهل، وعن وصف أبناء الشعوب الأخرى بأنهم كافرون وكلاب. إن قبولي باشا في حقيقة الأمر تركي من المدرسة الحديثة. وعليه الآن أن يواجه في الجليل امتحاناً تظهر من خلاله فضائله ومدى السلطة التي يستطيع أن يفرضها.

ان القبائل التي تقطن في البادية السورية العظيمة، والتي تمتد من نهر الفرات الى نهر الأردن ـ العَنَزَة والموالي وشَمَّر وبني صخر والعدوان ـ لا تميل إلى الإقامة في مواقع معيّنة، مثلما تفعل قبائل سيناء ووادي النيل، بقصد حماية مراعيها وآبارها، بل تقوم بنوع من الدورة الفصلية، بحثاً عن الأماكن التي تنمو فيها الحشائش. وهذه القبائل تتنقل بجميع أفرادها ومعها خيامها وجمالها ومواشيها، إلى حيث تجد أسواقاً لما تريد أن تبيع من لبن أو ماشية، وإلى حيث تجد الكلأ. وتحل القبيلة في موضع فتبقى فيه حتى تنتهي مراعيه ومياهه، وعندئذ تتحرك إلى واد آخر وبعده آخر غيره. والبدو لا يتورعون عن الاعتداء على حقول أهل القرى وكرومهم ومراعيهم، ولا تكاد تمر ثلاثة أيام على اقتراب البدو من احدى القرى، حتى يجد الفلاحون أن مزروعاتهم قد ذهبت ومنازلهم وآبارهم أُفرغت من الماء. وفي كل سنة ترى الفلاح يفرّ من وجه هؤلاء، فيبقى الكرم دون زراعة ويبقى الحقل بوراً وتبقى البئر دون ماء. وتنبت الأشواك في الأرض بين الاشجار المثمرة، ولا يلبث السهل الخصيب حتى يصبح بادية قفراء.

ولكن البدوي لا يلبث حتى يبتعد عن الأرض التي كفّت عن العطاء، وهذا ما يغري الفلاح بالعودة ليزرع كرمه ويعيد بناء منزله من جديد. وتمضي مدة من الزمن ترى المزروعات خلالها قد أينعت والأشجار حملت ثمارها والآبار امتلأت بالماء. وعندئذ يعود البدو مرة أخرى. وها نحن نرى الآن ان غزوات البدو قد جعلت الفلاحين يهجرون أكثر من نصف أراضي مرج ابن عامر الخصيب، الذي يُعتبر حديقة سوريا.

وكما حدث في العصور السابقة، عندما كانت الحكومات القوية تبسط الأمن والطمأنينة، ثم تضعف فتسود الفوضى ـ فإن بني صخر عادوا إلى هذه

المناطق بعد أن انسحب ابراهيم باشا منها.

وتقف على ظهر دير جبل الكرمل فترى البحر والسهول منبسطة أمام ناظريك. هنا بلدة حيفا العربية، وهناك وراء الخليج تقع عكا بأسوارها البيضاء ومآذنها وأبراجها. أما وراء ذلك فتقع صور، ثم بلدة صيدا ـ أم قرطاجة ـ ثم جبال الأرز حيث يعيش الموارنة والدروز. ونتطلع إلى تحت، أمام حيفا، فنرى وهج النيران المشتعلة في المعسكر الاسلامي. وعلى بعد بضعة أميال، ينزل قبولي في وادي الناصرة، وهو مشغول الخاطر في كيفية ايقاف قبائل البدو التي أثارتها من جديد أعمال عقيلة آغا.

ونسمع يوماً بعد يوم أنباء أعمال الحرق والنهب والقتل في كل ناحية من أنحاء الجليل. حتى الناصرة تكاد تكون في حالة حصار. لقد أصدر قبولي أمراً بمنع أي افرنجي من التجوال في داخل البلاد، الا إذا كان في حراسة عشرة من رجال الأمن. بطبيعة الحال يتعينّ على السائح الأجنبي أن يقدم الطعام لهؤلاء العشرة، وإذا داهمهم خطر فعليه أيضاً أن يدافع عنهم. فهؤلاء الباشبوزق قد يكونون رفقةً مفيدة لرسام أو كاتب قصص: فهم ينشدون الأغاني ويتحدثون كثيراً عن الحروب وأعمال اللصوصية، وهم باختصار يقومون بأي شيء يمكن أن تطلبه منهم، باستثناء الدخول في قتال. انهم مثل جميع العرب يكرهون سفك الدماء. وقد يحدثونك باسهاب عن غباء الرجل الإفرنجي الذي يحاول الدفاع عن أخراجه إذا هاجمه اللصوص. إذا يعرّض نفسه بذلك لخطر الموت. وهذه المفرزة من الخيّالة يجب أن تسير أمامك، ليس لأن قبولي يعتقد أن هذا العدد القليل من رجال الباشبوزق يستطيعون صد هجمة من هجمات حراب العْنَزَة، فهو يعرف أنهم سيلوذون بالفرار عندما يسمعون أول طلقة من أحد المسدسات. ولكن قبولي يرسلهم من أجل المظاهر ولغاية أخرى في نفسه. ذلك أنه يعرف أن الرجل الافرنجي يعمد إلى الدفاع عن نفسه إذا ما هوجم، وقد ينتجُ عن ذلك أن تخترق صدره رصاصة أو طعنة رمح، ومن هنا فإن وجود رجال الأمن يساعده حتماً في التعرّف على القتلة وملاحقتهم وفرض الغرامات على قبائلهم.

عقيلة آغا الحاسي

من هو عقيلة آغا؟ الباشوات يقولون انه بدوي، وهو بالفعل كذلك إلى حدٍّ ما، ولكن البدو يقولون انه مملوك. انه بالتأكيد من وادي النيل.

حدث أن ابراهيم باشا، حينما أخذ على عاتقه احلال السلم والأمن في الجليل، بادر إلى زرع مجموعة قوية من عرب مصر على رؤوس الممرات فوق الناصرة وكفر كنّا، تلك الممرات التي تعبر منها عشائر العنزة وبني صخر، ابتداء من منطقة بحيرة طبريا إلى السهول الواسعة في مرج ابن عامر. كان هؤلاء البدو القادمون من بلاد الأهرام ذوي شجاعة وولاء، تسليحهم جيد وخيولهم أصيلة ويتألف رجالهم من ١٧٠٠ فارس، وقد برهنوا على أنهم قادرون على حماية أراضيهم الجديدة. ولم يلبث البدو السوريون حتى أخذوا يخشون حرابهم فأطلقوا عليهم لقب هنادى. أما عقيلة فقد كان أحد الشيوخ الشباب في هذه القبيلة المصرية.

كان الفتى يتمتع بشيء من العبقرية في شنّ الغارات وصنع المكائد، وهي الصفات التي جعلت من سيّده القديم محمد علي باشا واحداً من أمراء عصره المرموقين. ومن منطلق صفات الذكاء والجرأة وعدم التقيّد بما يجوز وما لا يجوز، يبدو أنه خدم في صغره مولاه المصري أولاً، ثم تركه فيما بعد. وحينما كان ابراهيم باشا يمسك بزمام الحكم في سوريا، ظل عقيلة أكثر اتباعه اخلاصاً وولاء له. ولكن عندما قام نابيير (قائد الاسطول البريطاني) بقصف عكا وأخرج المصريين منها، فإن عقيلة بادر إلى الانضمام للأتراك العائدين. لم تكن سوريا يومذاك تعرف الامن والنظام. وفي المنطقة التي تعينّ على قبيلته مراقبتها، كان الحق والقانون والسطوة في اليد القوية والذهن المتوقد. لم يكن في فلسطين قانون، حتى لقد كان كل انسان يخشى جاره المحاذي له. كانت هناك خلافات وانقسامات. أصحاب المواشي من البدو كانوا دائماً وأبداً يمقتون اخوانهم الفلاحين سكان القرى. كانت يد كل انسان ترتفع في وجه الآخر. وكان اتباع كل مذهب يكنّون العداء لأتباع المذاهب الأخرى.

في مجتمع كهذا تكون السلطة في يد الرجل القوي. الشيخ هو سيد القبيلة. الشيخ في خيمته هو الحاكم والقاضي. وعندما يكون الشيخ رجلاً جسوراً مثل عقيلة أو أبو غوش، فانه يستطيع توسيع منطقة نفوذه. والرجل الذي يتمتع بالعبقرية ربما يتدبر لنفسه تاجاً. وكل العالم يعرف كيف ان محمد علي استبدل قصراً في القاهرة بدكان في كافالا.

استقر عقيلة في التلال وراء الناصرة عبر الدروب التي اعتاد بدو العنزة أن يسلكوها، وسرعان ما صنع لنفسه اسماً يبعث على الخوف. لم تكن في فلسطين آنذاك سلطة تستطيع منع غارات البدو وغزواتهم. ان عربان العنزة فرسان أشداء، لديهم خيول قوية، وكانت الحاجة تدفعهم إلى نهب ما يجدونه أمامهم. ووقف عقيلة في وجه هؤلاء، واستطاع من خلال ذلك أن يستلفت أنظار رجال الدولة ويثير اهتمامهم. ونتيجة لحكمه الفعّال وعينيه النفاذتين في مراقبة الأحداث، اضطر البدو إلى الارتداد نحو نهر الأردن. ولم يلبث حتى ساد نوع من الأمن، وترعرعت زراعة الحبوب في مرج ابن عامر. ولكن عقيلة كان يدرك ان رجال الدولة لن يلقوا بالاً اليه إذا ما ساد الهدوء في الجليل سيادة شاملة. ومن هنا أخذ يسمح للبدو، بين فترة وأخرى، بأن يقوموا باغتنام بعض المنهوبات. وعلى الرغم من ذلك فإن المنطقة الجبلية استردّت ـ بفضل حكمه ـ أمنها ورخاءها، حتى ان عدة قرى من خارج منطقته أخذت تطلب حمايته. ولم يلبث أن بسط نفوذه على جزء كبير من أراضي الجليل.

ثم أخذ عقيلة يعقد حبال المودة مع المسيحيين، ويعمل على تسهيل أمور الأجانب، ويفوز بالحظوة لدى الانكليز والفرنسيين. وأدرك الباب العالي [قصر السلطان في استانبول] مدى نفعه، فزاد من نفوذه ووسّع دائرة سيطرته. حتى في لندن وباريس تردد اسم عقيلة، وتنافس امراء وملوك في اسباغ ألقاب الشرف على ذلك الشيخ الداهية. وقد رافق أمير ويلز عند مروره في منطقته، فأهداه الأمير مسدساً بديع الصنعة، وأرسل نابليون اليه وسام جوقة الشرف. أما السلطان عبدالمجيد فقد أنعم عليه برتبة آغا، وعيّنه

برتبة عقيد قائداً للقوة التي كانت تحت امرته، فأخذ رجاله يتقاضون رواتبهم من خزينة الدولة.[1]

ان الاعتبار الذي حظي به عقيلة أثار حسد الخصوم، حتى اتهمه البعض بأنه أصبح يعمل ما يريد الفرنسيون. ولكن المشاريع التي يُتّهم بها تدل على مدى خشيته أكثر مما تدل على الدسائس. ان اجراءاته الحازمة في الجليل أثارت خصومة بدو الفدعان وولْد علي وبني صخر عليه، بالإضافة إلى خصومة عشائر قبيلة عنزة الكبيرة. ولكن عقيلة استطاع بدهائه أن يحول هؤلاء الأعداء إلى أصدقاء، إذ أقنعهم ان له حظوة عند السلطان، وفي نفس الوقت سمح لهم أن يقوموا بغارات خاطفة على المناطق التي أخفقت في تقديم الهدايا له أو أثارت غضبه لسبب من الأسباب. ويُقال انه اتخذ لنفسه زوجة من عائلة زعيم كبير من زعماء سوريا. ويعزو أخصامه اليه انه حاول انشاء تحالف كبير من القبائل البدوية يكون تحت وصاية فرنسا.

ووجه السرّ عسكر إلى عقيلة دعوة كي يأتي لمقابلته في دمشق، ولكن عقيلة خشي من مكيدة فاعتذر بوجود اضطرابات في بلاده. وبالفعل أمر عقيلة عدداً من رجاله كي يقوموا بحوادث اخلال بالأمن، فحدث بعض التخوّف في حيفا وطالب القنصل الفرنسي ببقاء عقيلة في منطقته. كل هذا أثار غضب فؤاد باشا، الصدر الأعظم، فأمر بايقاف عقيلة عند حده، وأصدر قبولي باشا أمراً بالغاء رتبته في الجيش وبانهاء خدماته في الجليل.

عندئذ بدأت مراحل الصراع المعتاد في المناطق الوعرة، إذ عمدت عصابة من الخارجين على القانون باثارة الاضطراب في الجليل، وألقى بعض المجندين من الهنادى بأسلحتهم، وأعلن الذين ظلوا على اخلاصهم للسلطان أنهم لن يوجهوا رصاص بنادقهم ضد شيخهم عقيلة. أما بني صخر وولد علي فقد ابتهجوا بما حدث وبادروا إلى الانتشار في السهول. كل ليلة كانت النار تشب في احدى القرى، وكل يوم كانت حوادث سلب

---

١ ـ نشر مترجم هذا الكتاب بحثاً ضافياً عن عقيلة الحاسي في (المجلة الثقافية) التي تصدر عن الجامعة الأردنية، عمّان، العدد الثامن، ١٩٨٥، الصفحات ٤٠ ـ ٥٩.

تقع على الطرق. واضطرت القوافل المسافرة من عكا إلى داخلية البلاد أن تتوقف، ولم يستطع المرضى أن يذهبوا إلى حمامات طبريا. وامتنع القناصل عن اعطاء اذونات الحماية. ومن بيروت إلى دمشق، ومن دمشق الى الخليل، شعرت جميع البلاد بتفاعلات الثورة التي أشعلها عقيلة. والتمس قناصل الدول التي لا تحب تركيا ولا تريد أن ترى الهدوء سائداً في سوريا، من الحكومة أن تعيد عقيلة إلى مركزه. ولكن قبولي رأى أن الاستجابة لذلك الطلب سوف تُفسّر بأنها عبارة عن مكافأة عقيلة على الثورة التي قام بها ضد السلطان، فطلب من داؤد باشا حاكم لبنان، ان يهتم بأمر الدروز، ورجا سر عسكر دمشق ان يزوده بكتيبة فرسان من بانياس، مع اصدار الأوامر لها بالسيطرة على ضفتي الأردن حتى البحر الميت، على أن يزحف هو على رأس عدد من سرايا المشاة، وهدفه من كل ذلك ان يضطر عقيلة إلى الدخول معه في معركة، أو يلقي القبض عليه إذا ما حاول الفرار باتجاه الجنوب.

منطقة الجليل

كان الجليل دائماً حديقة سوريا، ومن المحتمل أن يصبح حديقة العالم. كل شيء ينمو هنا: من شجر الجوز إلى شجر النخيل. وبينما تجد جبال القدس متجهمةً جرداء، ترى أودية الجليل تزدهر بالأعشاب والنوّار. هناك حرش من أشجار البلوط يكسو جوانب الكرمل. كل تلة بمثابة كرم عنب، وكل قاع حقل حبوب. هنا تمتزج أشعة الشمس بالأمطار المنعشة.

وعندما يسافر المرء من عكا إلى الناصرة، فإنه يسير بعض الوقت عبر طريق عبّدها الرومان، ثم يتابع السير على درب عريضة مهدتها قوافل الجمال. لا توجد هنا طريق حقيقية، ولكنك تجد في كل منعطف مناظر مشابهة لمناظر المانيا وإيطاليا وإسبانيا. وتذكّرك التلال المكسوّة بأشجار الدوالي، الغنية بالعنب الأبيض والأسود، بما تشاهد في وادي الراين. هذه منطقة يحبها البدو والافرنج، فالبدوي يجد فيها الخبز والماء بينما يجد الافرنجي فيها مناظر تذكّره بمناظر بلاده.

يقيم في الجليل شعب تسري في عروقه دماء عدة شعوب، هي

الشعوب التي غزت هذه البلاد واستوطنتها حقبةً من حقب الزمن. لقد كانت سوريا أرضاً خصبة للمذاهب والديانات، ومنها نبعت أكثر الأنظمة بقاءً وديمومة في العالم. لقد أعارت فينيقيا آلهتها لمصر، ومن هناك انتقلت إلى اليونان ومن اليونان إلى روما. وبنفس الأسلوب نرى اليهود والمسيحيين والمسلمين تعود دياناتهم إلى هذه البلاد.

من القدس إلى الأردن

إن الأرض المحيطة بأريحا من جهة الغرب ليست بالمكان الذي تسهل الحياة فيه. لا طريق هنا ولا خان. أما الثعالب والنسور والضباع فجميعها تتجول في أرجائها. على أن الطبيعة في البرية تبقى أقل قسوة من الانسان. فهنا وهناك تجد فسحة من الأرض استطاع الانسان أن يزرع فيها نبات القمح والشعير أو شجرةً مثمرة. هنا يقول التعامرة أنهم أسياد الأرض. ولكن أعشاب الربيع ونباتات البراري تغري بدو العدوان والبلقاء بالمجيء إلى هذه الأرجاء الكثيرة الحجارة. ولا يجرؤ أي فلاح أن يُنشيء كوخاً له على أرض تنتشر فيها خيام البدو. فالبدوي ما يزال هو السيد المُطلق في هذه البوادي كما كان منذ أقدم الأزمان.

إن غارة ثريا باشا على مضارب البدو في الخليل، ومصرع ذينك الشابين قرب برك سليمان، عملت على إثارة غضب القبائل البدوية، ليس فقط ضد الدولة، بل ضد كل إنسان غريب يسافر في البلاد تحت حماية رجال الحكومة. ولما كنا نخشى أن يلحق بنا أذى في ثورة المشاعر تلك، فقد غادرنا خيامنا المنصوبة على جبل الزيتون إلى قرية أبو ديس، القرية العربية التي تقوم على تلة إلى الجنوب من العيزرية (بيت عنيا). وفي أبو ديس وجدنا الزعيم الشيخ محمد عريقات، وهو رجل نصف بدوي ونصف مزارع، ثائر على الأنظمة، عمد إلى الاستقرار عندما تقدمت به السن واتخذ مجالاً للعمل أقرب للسلامة وأوفر دخلاً، فأصبح وكيل أعمال يتوسط بين القناصل الافرنج الذين يريدون حماية أبناء بلادهم من المخاطر، وشيوخ البدو الذي يعتبرون جميع الأجانب غنائم طبيعية لهم. وهكذا أخذ العريقات يؤمن

الحراسة وأُذونات السفر. ومن هنا ترى العدوان يحصلون على مبالغ من المال مقابل عدد الأشخاص، بينما يقتسم العريقات الأرباح مع بدو الهتيمات وأبو نصير ـ وهما قبيلتان تقيمان في نواحي أريحا ووادي القلط. وهكذا ترى العريقات مستطيعاً أن يوفر لك حماية لا يستطيع ثريا أن يوفرها دائماً. وقد يبدو هذا الترتيب خارجاً عن نطاق القوانين، ولكن أين الرجل الذي يفكر باحترام القانون في سوريا ؟إن أخطار الطريق بين القدس وأريحا قديمة جداً. لقد أشار السيد المسيح إلى ذلك في واحد من أجمل أمثاله، ولكنك لن تجد سامرياً يسافر الآن على تلك الطريق، وقد أصبح الخان المحاذي للطريق كومة من الحجارة. وهكذا انحنى الافرنج للضرورات، وأخذوا يعقدون الاتفاقات مع الخارجين على القانون، حتى أصبح الافرنجي يعرف وهو في القاهرة، كم من المال يتعيّن عليه أن يدفع إلى العريقات والبدو المتعاونين معه ـ هذا إذا شاء الافرنجي أن يتفادى احتمالات الوقوع في أيدي قُطّاع الطُرق في أثناء سفره من القدس إلى أريحا.

وسرعان ما أنجزنا مهمتنا. وعرض العريقات أن يُرسل معنا ابنه محمد وابن أخيه عبدالله، وهما شابان متوقدان خرجا من المنزل كي يلقيا نظرة علينا، وهما يرتديان الشالات الزاهية ويتمنطقان بالمسدسات، وبدا أنهما على استعداد للسفر أو للشِجار. تصافحنا وأشعلنا السجائر معاً. وبعد أن اتفقنا على اللقاء في وادي عليا، عدنا أدراجنا باتجاه بيت لحم حيث كنا ننوي قضاء ليلتنا القادمة في الدير.

في صباح اليوم التالي سرنا على ظهور دوابنا قريباً من حقل الرعاة ثم إلى جبل الفريديس، ومن هنا تركنا درب الجِمال ومضينا في البرية باتجاه الشرق في الأرض التي يملكها التعامرة. كانت الأرض شديدة الوعورة والانحدار. وكلما أوغلنا في المسير ازدادت الأرض وحشة وجفافا، واختفت قطعان الماشية، وانتهت الحقول المزروعة. ولكن بالقرب من عين كارم شاهدنا شجر البلوط وشجيرات العليق تنمو غير بعيد عن أشجار التين والزيتون والخروب والدوالي. وأخيراً اجتزنا شرقاً إلى الأرض اليباب، وهي الأرض التي تقع إلى الشرق من العيزرية وبيت ساحور.

وعلى حين غرة تبدّت أمام أنظارنا قافلة جمال بالقرب من بئر ماء، مع قطيع من البقر والماعز، وإمرأة تنتشل الماء من البئر، بينما كان ثلاثة أو أربعة صبية يتراكضون في وسط القطيع. فيا لها من صورة طبيعية وقفتُ هنيهاتٍ أملأ نظري منها.

إن بئر الماء يكاد يكون أحلى بيت شِعر في قصيدة الحياة السورية. انه الموضع الذي تتوق إلى بلوغه في حَرّ الظهيرة، والذي تنصب خيمتك قريباً منه قبيل غروب الشمس. انه المكان الذي تلتصق فيه فكرة المرأة والحب.

وبينما كنت أُنعِم النظر في تلك الصورة الحيّة، سمعت صرخة حادة وصوت طلقة نارية. وعندئذ قال لي يعقوب: سيدي، دعنا نستمر في سيرنا. إذا وقفت ظن التعامرة أنك خائف، وإذا أسرعت أطلقوا عليك النار. لنسر على مهلنا. في الواقع لم يكن هناك أعداء، ولم نكن نرى سوى تلك اللوحة الرعوية أمامنا: الماعز والجمال والأطفال والمرأة البدوية على البئر. وانحدرنا إلى وادي عليا وهناك شاهدنا مضارب البدو السوداء. بدا لنا على مبعدة رجل متقدم في السن يدخن سيجارة أمام خيمته، وشباناً يركضون ويصرخون، وأمام أولئك رجل طويل القامة يعبىء بندقيته (الكاربين) ثم يرفعها ويُطلق النار. لم يداخلنا الخوف ولكننا أخذنا نترقب ظهور رفاقنا الذين تواعدنا على اللقاء بهم هنا. كان من رأي سعيد وإسماعيل أن إطلاق النار كان لتحذيرنا حتى لا ننشل ماء من البئر الخاص بهم.

في فلسطين الماء هو الحياة، والقوانين التي تنظم إستعمال مياه الينابيع والآبار قوانين صارمة. فالبئر وُجد نتيجة لعمل مجهد، وليس بمقدور كل إنسان أن يحتفر بئراً بسبب ارتفاع التكاليف. إن أكثر الأمراء شهرة هم أولئك الذين حفروا الآبار وأنشأوا البرك وجرّوا القنوات. هكذا كان شأن هرون الرشيد وصلاح الدين وخلفاء الأندلس. إن حفر البئر عمل من أعمال الاحسان والرحمة والقوة. وهناك تقليد في سوريا، أقدم من سواه من التقاليد، بأن البئر مُلك الرجل الذي يتولى الانفاق على حفرها، وهي من بعده تغدو مُلكاً لأسرته ولقبيلته. إن مرور الزمن لا يبدِّل هذا الحق في

الملكية. قد تكون المراعي مشاعاً للجميع، ولكن ماء البئر مُلك مقدس لشخص واحد بعينه. والاعتداء على بئر ماء يُعتبر عملاً من أعمال الغزو، وتحدياً للقبيلة التي تملكها، ودعوةً لأصحاب البئر كي يردّوا على القوة بالقوة. ومن يملك بئر ماء يملك الدليل على أنه صاحب الأرض.

ولكن الانسان السوري، وهو يحافظ على حقه في نبع ماء، لا يمكن أن يمتنع عن اقتسام القَطرة الأخيرة من الماء الذي لديه مع أخيه الانسان. البئر له ولأهل بيته، ولكن الماء هبة من الله، لا بدّ من اقتسامها مع كل رجل وإمرأة. على أن الأمر ليس مباحاً بصورة مُطلقة، فالبدوي يقدم الماء للغريب كي يروي ظمأه، ولكنه قد يمتنع عن إعطاء الماء لدابة الغريب. فلا غرابة إذا أطلق التعامرة النار باتجاهنا، لأن الماء الذي لديهم عزيزٌ جداً حتى أنهم لا يستطيعون السماح لخيولنا وبهائمنا بالاستقاء منه. وهكذا نراهم يحافظون بكل قوتهم على مُلكية الينابيع القليلة في هذه المنطقة الجافة.

وعندما أخَذَتْ الشمس تميل نحو الغرب، بدأ القلق يستبدّ بنا لتأخر محمد وعبدالله عن الالتقاء بنا. كل خطوة نخطوها تؤدي بنا إلى فخ. ثم رأينا على مبعدة بدوياً على رأس تلة وبندقيته بيده، وصرنا نشعر أن التعامرة يحيطون بنا. وأخذنا نُروّح عن أنفسنا بترديد أغانٍ قديمة بأصوات خافتة، وبتبادل الحكايات. وبينما كان أحد رفاقنا العرب يغنّي سمعنا أصوات العريقات في الوادي تحتنا، فأخذنا نرحِّب بهم زاعمين أن مجيئهم أفسد علينا متعة الغناء! ومع حلول الظلمة وصلنا إلى أبراج دير مار سابا، وهو الدير الذي أُنشيء لإقامة الرهبان الأرثوذكس فوق كتف الجبل، في أكثر مناطق العالم إقفاراً ووحشية.

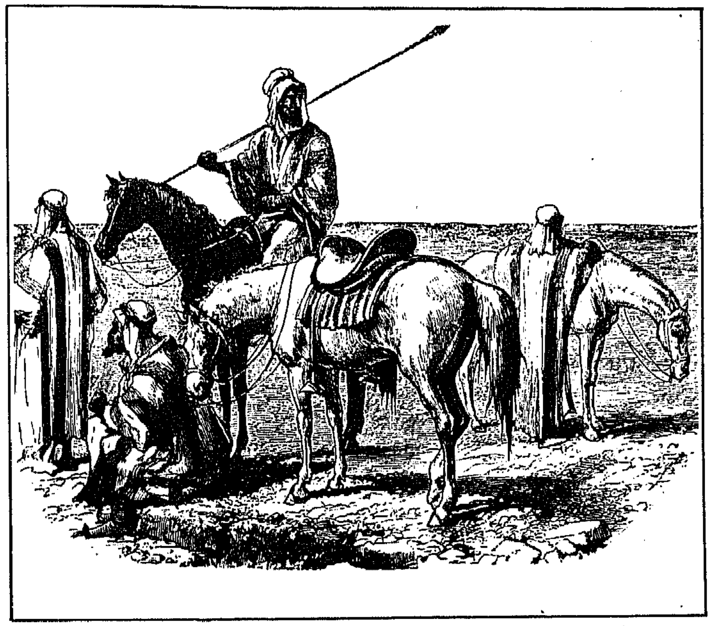
في القرن الخامس للميلاد قام راهب سوري بإنشاء هذا الدير في وادي قدرون. لم يكن له جيران سوى الذئب والأسد والعقاب. قيل أن الراهب حفر حفرة في الأرض فانبجس نبع ماء عذب تحت قدميه. ومنذ ذلك الحين ظل الدير ملجأ للرهبان الذين ينذرون أنفسهم لقضاء حياتهم بعيداً عن صخب العالم وشروره. من قواعد الدير أن لا تعبر بوابته إمرأة قط وأن

لا يدخل اليه بدوي، بل أن لا يدخل إليه إنسان دون أمر من بطريرك الروم في القدس.

قضينا ليلتنا تلك في الدير. وعند منتصف الليل نهضنا من النوم، ولم نلبث حتى كنا على ظهور الدواب. كانت الكواكب ترسل أنوارها الساطعة على الأبراج والصخور. وعند البوابة الحديدية وجدنا محمد وعبدالله ومعهما مهرتاهما في انتظارنا. وأنعمت النظر في ملامحهما الجادة، وفي يد كل منهما رمح طويلة، وفي حزاميهما عدة مسدسات قديمة. وكان الراهب ديمتريوس قد دعانا قبل خروجنا لرؤية جماجم ستمائة راهب قضوا نحبهم في الدير مع مضي السنين.

سرنا خمس ساعات دون أن نُشاهد منزلاً أو نقابل إنساناً. وبينما كنا ننحدر نحو السهل كانت الشمس قد ارتفعت نحو كبد السماء، فشاهدنا مياه بحر لوط الزرقاء، ثم وصلنا إلى نبع ماء عين الفشخة، وبالقرب منها أجمة تنمو فيها أشجار الدفلى والخيزران والقصب والسدر. مضينا نحو تلك الأجمة وكان محمد يسير أمامنا وعبدالله وراءنا، لأن هذه الأجمة ـ وهي البقعة الخضراء الوحيدة في السهل ـ كانت الموضع المفضّل لبدو قبيلة أبو نصير، يختبئون فيها هم وغيرهم من أبناء القبائل التي اعتادت على النهب والسلب. وسرنا على حذر. وبين فترة وأخرى كنا نتوقف ونتصت، بينما كانت يد كل واحد منا على مسدسه [يُطلق البدو على المسدس اسم طبنجة]. كان محمد وعبدالله يعرفان أننا نسير في منطقة غير مأمونة، ليس فقط خشية من الهتيمات وأبو نصير الذين كانوا يجوسون خلسةً بين آثار أريحا، وحوالي مراعي وادي القلط، بل لأن عقيلة آغا كان قد أثار البوادي كلها، ولأننا لم نكن نعرف موقف العدوان، وهي القبيلة المولعة بالحرب والتي تقع أراضيها أمامنا وإلى ما وراء نهر الأردن. وفي أيام السِلم ترى العدوان قوماً مسالمين، لا يبتغون الحصول إلّا على الأتاوة المعتادة، وقد يسرّهم أن يشربوا معك الشاي، أما إذا حصلوا منك على كمية من ملح البارود فإنك حتماً تكسب قلوبهم. ولكن في أوقات النزاعات، عندما يتحرك جيرانهم الشعلان، فإن صداقة هؤلاء العدوان للافرنج تصبح غير مؤكدة.

وأخيراً خرجنا من أجمة الخيزران والطرفاء إلى شاطىء البحر، فشاهدنا رجلاً، وهو أول إنسان نراه منذ أن ودعنا ديمتريوس . واندفع محمد نحوه ولكن الرجل اختفى من أمام وجهه. وبدا لنا أن الغور مكان مأمون. ولكن ما دام بني صخر والعدوان يتنقلون هنا وهناك فليس من المستبعد أن يكون أحد مضاربهم قريباً من نهر الأردن، على الجانب الشرقي، وليس من المستبعد أن يكون الخطر في إنتظارنا سواء في الليل أو في النهار. ونزعنا ملابسنا لكي ندخل في الماء تحت سماء لا غيوم فيها، وفي جو لا تتحرك فيه نسمة هواء. وقفزنا إلى ماء بحر لوط، وكان ذلك تجربة فريدة لا مثيل لها بالنسبة لنا.



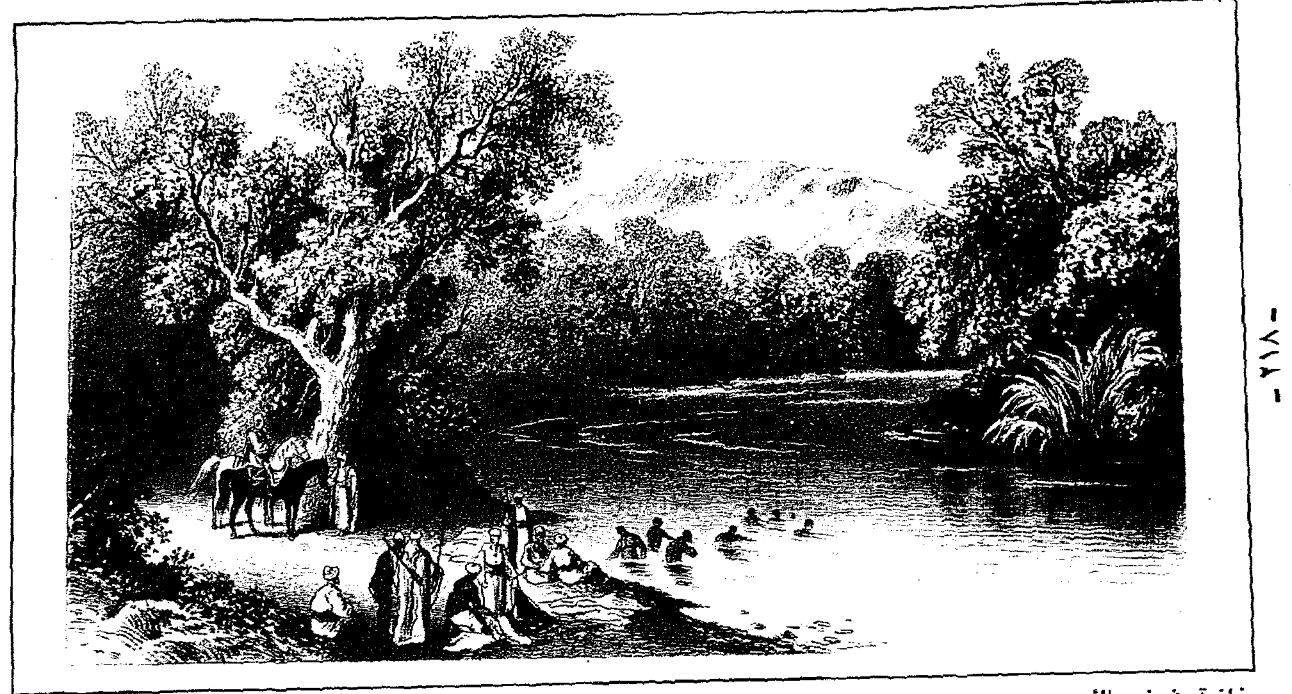
عدد من فرسان العدوان وخيولهم (عن كتاب تومسون)

نهر الأردن

مضينا باتجاه النهر، وأُصيبت فرسي (صابية) بضربة شمس فسقطت على الأرض لا حراك فيها. سرنا من بحر لوط إلى المشرع. وارتفعت درجة

الحرارة إلى حدّ يصعب احتماله على الانسان والحيوان. أحسسنا كأن أقدامنا تغوص في فحم مشتعل. واقتربنا من النهر، وكان من رأي محمد وعبدالله أن لا ننصب خيمتنا بالقرب من النهر، خشية أن يكون العدو على مقربة. بل طلبا إليَّ أن أتناول طعامي بسرعة، وأن أستمتع بالغطس في ماء النهر، وأن ألتقط بعض الحصى من على ضفته، على أن نمتطي جيادنا ونعود مسرعين إلى وادي القلط، لكي ننصب خيامنا في أريحا بالقرب من عين السلطان، حيث نستطيع الدفاع عن أنفسنا إذا ما هاجمنا العدوان أو بني صخر هناك. ولكنني رفضت هذا العرض، لأن زيارة النهر مسألة مهمة عندي، طالما حلمت بها وأنا في لندن. هنا تعمّد المسيح في ماء النهر. لقد قطعت ثلاثة آلاف ميل لزيارة هذا المكان، ولكي أتمدد وأستريح تحت أشجار الصفصاف. دع بني صخر والعدوان يفعلون ما يشاؤون. عقدت عزمي على أن لا ينهزم الرجل الانكليزي (يعني نفسه) أمام عدوٍ لم تره العين. كان جوابي أنني نزعت ثيابي استعداداً للنزول إلى ماء النهر. وفي نفس الوقت أخذ يعقوب يعمل في نصب الخيمة وأخذ سعيد يريح البهائم من أحمالها.

أخذت أنا واسماعيل نسبح في الماء، وقضينا ساعةً من الزمن في سعادة غامرة. ودعاني يعقوب لتناول الطعام، وكان الجوع قد استبدّ بي بعد أن انتعشت في أحضان الماء. ثم شاهدت محمد ينسلّ من الماء، ويسرع نحو فرسه ويقفز على متنها ثم يمضي بها حتى اختفى عن أنظارنا وراء الأشجار. ولم يلبث عبدالله حتى لحق به. وسمعنا صرخةً فبادرنا إلى الخروج من الماء وارتدينا ملابسنا على عجل وأخذ كل واحد مسدسه. في تلك الأثناء كان عشرة من البدو قد ظهروا بين الأشجار في الضفة الأُخرى، أربعة منهم على ظهور الخيل وكلهم مسلحون بالبنادق أو الرماح. كان من رأي يعقوب أن هؤلاء ليسوا من العدوان الذين يقيمون في وادي حسبان ووادي السير، بل من قبيلة بدوية يتزعمها شيخ شرس اسمه قبلان، ليس من المحتمل أن يحترم الأُذونات التي أعطانا إياها أهل قرية أبو ديس. الآن أصبحت سلامتنا تعتمد على أنفسنا. ولكن أين محمد وعبدالله ؟ هل يمكن أن يبتعدا وقد ترك أحدهما ملابسه وراءه ؟ كان البدو يهمّون بعبور النهر عندما بدأ يعقوب



مخاضة في نهر الأردن

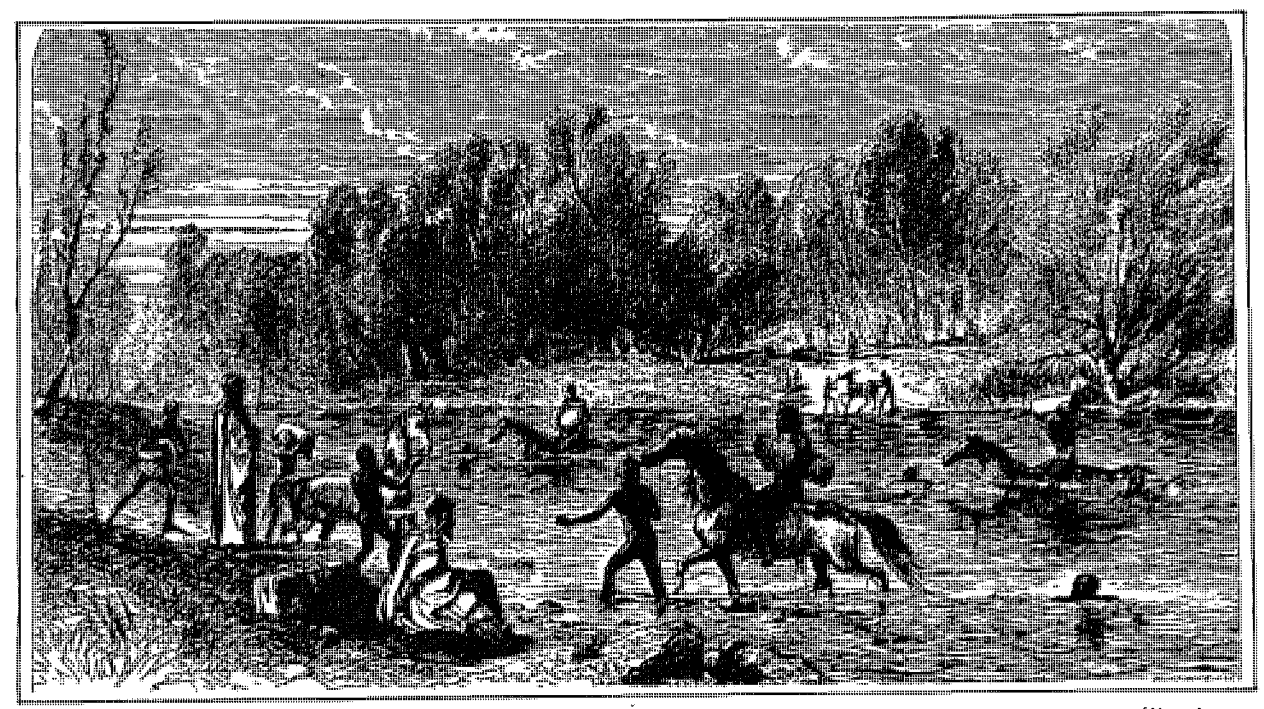
(عن كتاب تومسون)

الحديث معهم. سألهم عن آخر الأنباء، ثم قال انه هو في رفقة شيخ انكليزي كبير، وأن سفن الانكليز الحربية في يافا، وأنه في حماية العدوان وفي حراسة أهل أبو ديس. بدا أنهم عرفوا مجموع قوتنا. كان معنا خمسة أسلحة نارية (أسقطت سعيد من الحساب إذ لا نفع منه في مثل هذا الوضع). وفي الوقت نفسه أشعلنا سجائرنا وأظهرنا أننا لا نتوقع أي اشتباك.

أخيراً قال أحد البدو أنهم يريدون من الشيخ الانكليزي طبنجة وكمية من ملح البارود والتبغ، من أجل أن يكون الوئام بينهم وبينه. هنا ظهر محمد يلوّح برمحه الطويل قائلاً: إن الشيخ الانكليزي لن يعطيكم طبنجة وملح بارود وتبغ، بل يدعو الشيخ لتناول الطعام معه في خيمته. عندئذ همّ اثنان أو ثلاثة من البدو بعبور النهر، ولكن محمد ويعقوب هددا بأن الشيخ الانكليزي غاضب وأنه سيطلق النار إذا عبر أحدهم النهر. بدا أن المسدس ذا العيون الستّ قد سيطر على أذهان البدو. كانوا لا يعرفون إلّا الطبنجة ذات العين الواحدة فقط.

أجمع رأينا على إظهار الهدوء، فوضعنا أسلحتنا المعبأة على السجادة أمام أنظار البدو وجلسنا لكي نأكل طعام الغداء. وسرعان ما تم إعداد الشاي وظهر الخبز ولحم الفراخ والبرتقال والرمان. واندفع بدوي نحو الماء فرفع محمد بندقيته الكبسول وصوبها باتجاهه، فاضطر ذاك إلى التراجع. بعد قليل تم الاتفاق على أن يعبر النهر ثلاثة من الشيوخ لكي يزوروا أخاهم الانكليزي ومعهم خيولهم وبنادقهم الكاربين.

وجاء الثلاثة وتناولوا الطعام معنا، ولكنهم لم يذوقوا النبيذ. وبعد أن انتهينا من ذلك وأشعلنا سجائر التبغ، أعرب الشيخ عن رغبته في الحصول على أحد المسدسات قائلاً أنهم لا يستطيعون الحصول على مثله في هذه البلاد، ولكنني أصررت على الاعتذار. وكان غريباً أن يرضى أولئك الشيوخ في نهاية الأمر بهدايا قليلة، بينما كانوا قبل قليل يناقشون الأسلوب الذي سوف يقطعون به أعناقنا.



عبور نهر الأردن

(عن كتاب لينش)

في الأرض المقدســة

تأليف : أندرو تومـون

في الأرض المقدّسة

تأليف : أندرو تومسون

مؤلف هذا الكتاب قسيس بريطاني من مدينة أدنبرة، قام برحلته في ربيع سنة ١٨٦٩ . رست السفينة به وبرفاقه أولاً في ميناء الاسكندرية، وبعد أن قضوا أياماً في تلك المدينة، مضوا إلى القاهرة ومنها بالقطار إلى السويس، ومن هناك الى بورسعيد ثم أبحروا إلى يافا. ويتنقل المؤلف بين مدن فلسطين ويزور معالمها التاريخية والدينية، وهو يصف مشاهداته ويسجّل انطباعاته. ثم يمضي إلى منابع نهر الأردن في بانياس، ويزور دمشق وبيروت، ومن هناك يمضي بحراً الى قبرص فأزمير فمدينة استانبول حيث ينتهي من قصة رحلته. ومع أن الرحلة سريعة لم تستغرق أكثر من شهرين ونصف، الا أن المؤلف استطاع ان يقدّم كتاباً غزير المادة في ٣٦٤ صفحة، وبدا في كتابته متوازناً هادئاً متفهماً، لا يبالغ ولا يتعصّب ولا يشطح مع الانفعالات.

يافـــا

وصلنا بالباخرة إلى ميناء الاسكندرية يوم ١٣ آذار ١٨٦٩ . وعند رؤيتنا أشجار النخيل أمام قصر الخديوي، أدركنا اننا صرنا خارج أوروبا. وبعد أن قضينا أياماً في الاسكندرية مضينا إلى القاهرة ومن هناك مضينا

عن كتاب Rev. Andrew Thomson: In the Holy Land,
New York; A.D.F. Randolph & Co. (1869)

بالقطار إلى السويس، ومنها إلى بورسعيد. ولم نلبث طويلا حتى أبحرنا في باخرة روسية كانت تقصد إلى يافا Joppa . وألفينا السفينة حاشدة بجمهور من أُمم متعددة، جاءوا لزيارة القدس والحج إلى أماكنها المقدسة.

ألقت السفينة مراسيها على بُعد ميل من بلدة يافا. وكان البحر هادئاً، فانتقلنا بواسطة القوارب إلى الشاطيء. وقد شاهدنا هذا الشاطيء الرملي الضيّق يمتد إلى الجنوب من يافا. إنه شاطيء بلاد الفلسطينيين الذين كانوا شوكة في عيون الاسرائيليين ومصائد لأقدامهم.

تقوم يافا فوق جبل مخروطيّ الشكل، وترتفع منازلها في صفوف مدرّجة حتى قمتها العليا، تلك القمة التي تتوجها قلعة تركية نصف متهدمة. وهكذا يبدو منظر يافا من البحر مهيباً رائعاً. ولكن النزول من البحر إلى البر ينطوي على خطر كبير عندما يكون البحر هائجاً. المهم في الأمر أننا وضعنا أقدامنا أخيراً على الأرض اليابسة، ومضينا نصعّد في الدروب الضيقة إلى أن وصلنا إلى منزل القنصل الانكليزي. وهنا أدركنا أن حلم الحياة بالنسبة لنا أخذ يتحقق فعلا.

ان يافا من أقدم مدن العالم، بل ان (بليني) يرى ان تاريخ انشائها يسبق حدوث الطوفان. ومنذ البداية كانت يافا ميناء مدينة القدس وأعظم موانىء فلسطين. وفي يافا أقام بطرس (حواري المسيح) مدة من الزمن في منزل سمعان دبّاغ الجلود. وقبل مائتي سنة كتب أحد الرحّالين يقول «لم يبق اليوم من هذه المدينة العظيمة سوى برجين قديمين». أما في الوقت الراهن فإن مصانع الصابون فيها، والبيارات التي تكتنفها، وصناعة الحرير الطبيعي التي تزدهر بوجود بساتين التوت الواسعة، ووفرة فواكهها وثمارها التي لا تُضاهى، وفوق هذا فهي البوابة التي يدخل منها الحجّاج القادمون من بلاد الغرب إلى القدس ـ كل هذا جعل يافا تنهض من كَبوتها بالتدريج، حتى ارتفع عدد سكانها إلى ستة آلاف نسمة. ان أغلبية السكان من المسلمين، ولكن يوجد في المدينة أكثر من ألف مسيحي، وعدد قليل من اليهود.

قبل غروب الشمس ببضع ساعات، غادرنا يافا بعد أن اتفقنا مع

مكاري يملك خيولا وبغالا، وفي نيّتنا أن نقضي ليلتنا القادمة في أحد أديرة الرملة على مسافة تسعة أميال. ومضينا نسير ببطء بين جماهير الناس الذين كانوا يحتفلون بأحد الأعياد خارج الأسوار. وقد شاهدنا هنا أسواقاً أُقيمت بصورة مؤقتة لبيع المكسّرات والفواكه والشربات الباردة. ولم نلبث أن أخذنا نسير في وسط البيارات الشهيرة وراء يافا، التي تؤلف الأشجار الشوكية السامقة أسيجة لها. وقد شاهدنا أشجار التين تطلق براعمها الغضة، كما شاهدنا أشجار البرتقال والليمون والتفاح والرمان واللوز مكللة بالأزهار النضرة. ان الكثير من ثراء يافا مصدره هذه البيارات، ومعظم نتاجها يُصدّر إلى أوروبا حيث يُقدّم في الحفلات الملوكية. وهذه البيارات ترويها مئات النواعير بالماء.

اللد والرملة

مضينا نسير في طريق لم تُمهّد إلا قليلا وفي مواضع متقطعة، إلى ان شاهدنا قرية إلى الشمال الشرقي. انها اللّد التي كانت ذات أهمية في أحد الأيام، أما الآن فهي قرية فقيرة تكتنفها البيارات. وأدركَنا الليل قبل أن نصل إلى بوابة الدير في الرملة. وقد شاهدنا في ساحة الدير عندما وصلنا اليه، حشداً من الحجّاج الذين قدموا من عدة أقطار أوروبية. وشققنا طريقنا بصعوبة بين البغال والخيول. وكم كان عجبنا عندما جاءنا رهبان حفاة الأقدام يتحزمون بالأمراس، وأخذوا يقدمون لنا الطعام دون أن ينبس أحد منهم بكلمة ما. ولكن وجبة الطعام كانت هزيلة لم تزد من حبنا لهؤلاء الرهبان الذين حلقوا شعر رؤوسهم. وقبل ان نخلد إلى النوم مضينا في جولة قصيرة للتعرّف على بلدة الرملة: انها بلدة تتمتع بأهمية كبيرة، ويزيد عدد سكانها على خمسة آلاف نسمة، ثلثاهم مسلمون والثلث الآخر من المسيحيين. ألفينا الشوارع ضيقة والبيارات جميلة، ولكن الرمال تراكمت بفعل الرياح حول الأسوار، بل تسربت إلى الدروب. كما ان الغبار المتطاير من أكوام رماد القلي الذي ألقته مصانع الصابون القديمة جانباً ـ تسبّبت في إصابة أكثر من نصف السكان بأمراض العيون، بل أصابت البعض بفقدان البصر تماماً. لقد استمدّت هذه البلدة أهميتها في حقبة من الزمن، لأنها كانت

الموضع الذي تلتقي فيه طريق يافا ـ القدس بطريق القوافل العظيمة القادمة من دمشق باتجاه مصر. أما الآن فهي تعتمد على كونها أول محطة للحجّاج القادمين من بلاد الغرب وهم في طريقهم إلى القدس.

في الصباح الباكر غادرنا بوابة الدير، إذ كان يتعيّن علينا أن نصل إلى القدس في ذلك اليوم قبل أن تغيب الشمس وتغلق أبواب المدينة. وفي الشرق تقضي الضرورات على المسافرين أن يبدأوا مسيرتهم باكراً، للإفادة من ساعات الصباح الباردة، وحتى ينالوا قسطاً من الراحة في ساعات الظهيرة التي تشتد الحرارة فيها. وفي الحقيقة فإننا استمتعنا كثيراً بمسيرتنا الصباحية تلك، فقد كانت السماء زرقاء صافية والهواء منعشاً والطيور تصدح بأنغامها بين أشجار الزيتون، والغيوم البيضاء تسبح فوق رؤوسنا. أما الأرض تحت أقدامنا فقد كانت أشبه ما تكون بسجادة من الأزهار المتعددة الألوان والأشكال.

بعد ثلاث ساعات وصلنا إلى سفوح الجبال وأخذنا نسير في مضيق يصعد بين الوهاد. ولم نلبث أن شاهدنا قلعة تشرف على طرف الشقيف يطلقون عليها اسم اللطرون، ولا بدّ أنها أُنشئت أصلاً لحماية هذا المضيق المهم على طريق المدينة المقدسة. لقد كانت هذه القلعة إلى وقتٍ قريب قاعدةً لجماعة من النهّابين الذين كانوا يسلبون الناس ويعودون للاحتماء فيها. وفيما مضى كان الحجّاج يتنفسون الصعداء بعد أن يجتازوا هذا الموقع ببضعة أميال، إذ يوقنون عندئذ أنهم تفادوا التجريد من ثيابهم.

وشاهدنا بلدة عمواس وقرية يالو بينما كنا نصعد في المرتفع الوعر. ولم يلبث دليلنا أن أشار إلينا بالتوقف كي نتناول طعام الغداء ونرتاح، وقد بسط لنا مفرشاً تحت شجرة بلوط ذات فروع واسعة وأغصان متشابكة ظليلة. وفي هذا اليوم بدأنا نأكل العسل البري الذي لم يخذلنا قط في أسفارنا في فلسطين. أما ثمار البرتقال اليانع، والتي ابتاعها رفيقنا (جسيب) يوم أمس من بيارات يافا، وكانت الواحدة منها أكبر من رأس الطفل ـ فقد كان طعمها لذيذ المذاق أشبه ما يكون بالرحيق. وكنا لاحظنا ان (جسيب) هذا

ذا عين واحدة مبصرة، ولم يطل بنا الأمر في البلاد حتى أدركنا ان كثيرين من الرجال المتوسطي العمر ليس لهم الا عين واحدة. هناك أسباب كثيرة من جملتها كثرة غبار القلي في الرملة ـ مثلا ـ وعدم وجود أطباء ماهرين. ولكننا سرعان ما اكتشفنا ان هناك سبباً أبعد، الا وهو التجنيد المخيف في جيش السلطان، الأمر الذي دفع بكثيرين لأن يقتلع الواحد منهم احدى عينيه حتى يصبح غير لائق للخدمة العسكرية. ولكن قيل لنا ان باشا القدس القاسي القلب، اعتزم أن يردّ على هذه الحيلة بحيلة مماثلة، فعمد قبل بضع سنوات إلى إنشاء كتيبة خاصة من العوران.

بعد أن نعمنا بقسط من الراحة بادرنا إلى ركوب دوابنا ومضينا نسير في طريقنا. وأخذنا نلاحظ بعض التبدّل في مناظر الطبيعة. لم تعد الأزهار البرية هنا وافرة مثلما كان الأمر في السهل والمنحدرات. وشاهدنا أدلّة عديدة على ان الزراعة في هذه الأرض كانت فيما مضى أفضل مما هي عليه الآن. ان اللّوم يجب أن يوجّه إلى الإدارة التركية على هذه الحال. فأي وضع يمكن أن يكون عليه المزارع الذي يقسره الجباة على إعطاء ثلثي محصوله للحكومة [هذه مبالغة دون شك]، طبقاً لتقديرات المخمنين الطماعين الذين يرسلهم الباشا، والذين لا يعرفون في معظم الأحيان شعور العدالة والرحمة.؟ في ظل هذا النظام تصبح المنافسة خطرة على من يمارسها، اذ يصبح الرجل الميسور الحال هدفاً للظلم والابتزاز. فلا عجب أن تموت أشجار الزيتون وتيبس شجيرات الكرمة، وتزدهر نباتات الشوك البري في حقول كانت تتردّد فيها أغاني الحصادين فيما مضى.

لم نلبث أن مررنا بمنطقة كانت قبل فترة من الزمن أكثر البقاع في فلسطين خطراً على الحجّاج ـ باستثناء الطريق بين القدس وأريحا. كان ذلك في عهد أبو غوش قاطع الطريق القوي المتوحش، الذي ظل طوال خمسين عاماً يبث الرعب في المنطقة كلها، فينهب القوافل ولا يتردّد في تصويب الرصاص إلى رأس الباشا الذي قد يغامر باقتحام منطقته أو يحاول منافسته في سلطته. انها منطقة وعرة ويسهل على قطّاع الطرق الاختفاء فيها. تلك القرية القائمة على كتف الوادي (قرية العنب) كانت عاصمة قاطع الطريق

هذا. ويقال ان بقايا أفراد أُسرته ما يزالون يقيمون فيها بعد أن عادوا من المنفى. انهم الآن يراقبون الحجّاج من بعيد، ولم يعد بمقدورهم إلحاق الأذية بأحد.

أمضينا ساعات ونحن نسير في هذه الممرات الضيّقة، مصعّدين في درب متعرّجة وعرة، حتى أرهق المسير دوابنا. وأخيراً خرجنا من تلك الوهاد إلى الأرض المنبسطة، فتنفسنا الصعداء وشعرنا براحة نفسية غامرة.

القـدس

أخذنا نقترب من القدس، وبينما كنّا نسير إلى الأمام أخذ صبرنا ينفد شيئاً فشيئاً. وبدأنا نمنّي أنفسنا كلما شاهدنا قمة هضبة برؤية المدينة المقدسة، ثم لا نلبث أن نصاب بخيبة الأمل. ويعد لأي وصلنا إلى مكان مرتفع. وعلى حين غرّة شاهدنا القدس تنبسط أمام أبصارنا. بدأ لنا جبل الزيتون أولا، ثم رأينا الأسوار القديمة. أُنظر، ها هي قبة مسجد الصخرة ترتفع فوق سواها من أبنية المدينة. يا له من منظر مجيدٍ رائع: منظر المدينة المكرَّمة والشمس تلقي عليها أضواءها الساطعة من ناحية الغرب. ها قد تحقّق لنا حلم العمر كله. أوقفنا خيولنا وأخذنا ننعم النظر خاشعين كأن على رؤوسنا الطير.

في القدس أقمنا في فندق صغير، وأخذنا نتناول وجبات طعامنا فيه. ومع مرور الأيام استطعنا أن نكوّن فكرة عن الأوضاع السائدة. ان المدينة، كما هو معروف تقوم داخل سور يتراوح ارتفاعه من ٢٥ إلى ٥٠ قدماً، تبعاً لارتفاع مستوى الأرض التي أُقيم عليها السور أو انخفاضه. وللسور أبراج وحصون وكوى (طلاّقيات)، على مسافات منتظمة، وتتخلّله بوابات تخضع للحراسة الدائمة وتغلق بانتظام عند غروب الشمس. وجدار السور عريض في أماكن متعددة بحيث يسهل الوقوف والسير عليه. وبوابات السور أربع يخرج الناس منها ويدخلون. وتستمد اثنتان من هذه البوابات اسميهما من اسمي المدينتين اللتين يتجه الذين يغادرون المدينة إلى هذه أو تلك منهما. فهذه بوابة يافا (باب الخليل) في الجهة الغربية، وهذه بوابة دمشق (باب

القدس كما بدت من جبل الزيتون

(عن كتاب اندرو تومسون)

العمود) في الجهة الشمالية. أما البوابتان الأُخريان فهما بوابة القديس استيفان في جهة الشرق (باب الأسباط) وبوابة النبي داؤد في الجنوب. وللمدينة بوابات أُخرى يجري استعمالها بصورة جزئية، نذكر من بينها باب المغاربة الذي يُطلق عليه في الانجليزية اسم (Dung Gate) لأن جميع نفايات المدينة ما تزال تُنقل من خلاله لتُلقى خارجاً في طرف وادي قدرون. والسور الحالي أنشأه السلطان صلاح الدين [المترجم: الأصح سليمان القانوني] في القرن السادس عشر، على أساسات السور القديم.

تتألف القدس في الوقت الحاضر من أربعة أحياء، الحي الاسلامي والحي اليهودي وحي الروم وحي اللاتين. وهكذا ترى ان الأديان السماوية الثلاثة تلتصق في مدينة واحدة.

وتختلف التقديرات بشأن عدد السكان في المدينة، ولكن يبدو لي أن رقم ١٨ ألفاً هو رقم معقول.

وقد تمكنت الارسالية البروتستانتية، بهمّة المطران جوبات وزوج ابنته زيلر، من توطيد أقدامها عن طريق إنشاء ١٨ مدرسة في مدن فلسطين وقراها. وقد أدّى إنشاء هذه المدارس إلى نوع من المنافسة، فأخذ المسلمون والكاثوليك ينشئون مدارس مماثلة خاصة بهم.

ولا توجد في القدس صناعات، ولكن بعض الناس يعملون في صنع المسابح وعلب خشب الزيتون أو البطم، وغير ذلك من المصنوعات ذات المعنى الديني، والتي يقبل السياح والزوار على ابتياعها.

وجدنا من العسير أن نفهم كيف يتدبر السكان أسباب معيشتهم. ولكن علينا أن نذكر ان اليهود يتلقّون إعانات من إخوانهم في الدين الأغنياء في الأقطار الاخرى، كما ان أديرة المسيحيين المتعددة تساعد على إنعاش الحالة الاقتصادية. أما الأسابيع التي يقضيها الحجاج في البلاد، فإنها تشكّل المورد السنوي الرئيسي بالنسبة لسكان المدينة.

لاحظنا ان شوارع المدينة ودروبها لا تُضاء أثناء الليل، ومن هنا فإن

تعليمات رجال الأمن تقضي على كل من يخرج من منزله ليلا أن يحمل معه مصباحاً. وكل من يسير دون ضوء يستوقفه رجال الشرطة ويأخذونه إلى المخفر لقضاء ليلته هناك. وهكذا فإن الأمن مستتب في داخل الأسوار، أما في الخارج فإن الأمر ليس كذلك. وقد حدث أننا شاهدنا قطعان الماعز والأغنام وهي تدخل إلى المدينة عند غروب الشمس، لقضاء الليل داخل الأسوار. وفي صبيحة أحد الأيام جاء ترجماننا يعلن ان اللصوص سطوا على جماعة من الانجليز كانوا يقضون ليلتهم خارج السور، وقد ظن هؤلاء انه لا خطر عليهم فلم يبادروا إلى الاتفاق مع البدو لتأمين الحماية لأنفسهم. وأسرعنا بالذهاب إلى المكان الذي حدث فيه الهجوم على تلك الجماعة، فوجدنا ان اللصوص مزقوا أكياس اولئك الانجليز وما كان معهم من حشايا، بواسطة المدى والسيوف، بينما كان اولئك مستغرقين في النوم. وقد اعتبر البعض ان هذه الجماعة نالت جزاءها لأنها لم تتفق مع أحد الشيوخ على توفير الحماية لها.

صادفت الفترة التي قضيناها في القدس أُسبوع عيد الفصح للطوائف الغربية، وبذلك أُتيحت لنا فرصة الاطلاع على مشاهد ملأتنا بالدهشة، ولكن الذي شاهدناه في أُسبوع الفصح للشرقيين كان باعثاً على مزيد من الدهشة.

وقمنا بجولات حول القدس. وكان أول ما زرنا قرية سلوان التي تقع في أقصى الطرف الجنوبي من جبل الزيتون. وفيما مضى كان موقع هذه القرية ضاحية عامرة، وقد أنشيء فيها قصر لإبنة فرعون وإحدى زوجات سليمان. أما الآن فهي قرية فقيرة تتألف من أكواخ ويقيم فيها أُناس من البدو يسهمون في أسباب فقدان الأمن حول القدس. وفي أثناء تجوالنا دخلنا إلى بيت كانت فيه امرأة شابة تطحن السميد بطاحونتها اليدوية. ولم تبد الدهشة على المرأة لمجيئنا، بل انها عملت على اشباع فضولنا فرفعت الحجر العلوي لكي نرى تماماً كيف ينزل القمح بعد أن يصبح سميداً من خلال التجويف في الحجر التحتاني. وفيما نحن نتحدث دخلت فتاة أُخرى وجلست على الأرض وأخذت تدير يد الطاحونة. وقد أدهشنا ما تبذل هؤلاء

الفتيات البدويات من جهد في تجميل أنفسهن، على الرغم من المحيط المتواضع الذي يعشن فيه. إذ لاحظنا أنهن وشمن سواعدهن وصبغن أظافرهن، ووضعن أساور في معاصم أيديهن. وأكثر ما أدهشنا ان صنع السميد ما يزال من مسؤوليات النساء، كما كان الأمر في أيام السيد المسيح.



نساء يسمدن القمح على الطاحونة اليدوية (عن كتاب تومسون)

ان باب الخليل هو أكثر أبواب القدس ازدحاماً بالحركة. ولما كان الوقت ربيعاً فقد شاهدنا خارج الباب جماعات من النسوة جئن للترويح عن النفوس وجلسن بينما أخذ الأطفال يلعبون حولهن على العشب الأخضر.

ومضينا حول سور المدينة. وفي غمرة حماستنا نسينا ان الأبواب تُغلق مع غروب الشمس. وأسرعنا نحو باب الأسباط فوجدناه مغلقاً. ماذا نفعل؟ أنقضي ليلتنا في البرد القارس الذي يشتد بعد المغيب؟ واذا تحملنا الجوع فكيف نتحمل البرد؟ ثم أن من المؤكد ان يلتقي بنا بعض البدو

فيشلحوننا. وأخذنا نصرخ بأعلى أصواتنا، ولكن أحداً لم يستجب لصرخاتنا مع علمنا ان الحراس كانوا وراء البوابة الخشبية القديمة يسمعوننا ويضحكون على ورطتنا. وبعد لأي ردّ واحد منهم علينا. وتبادر إلى أذهاننا ان المال جدير بأن يحلّ العقدة، فعرضنا ان ندفع لهم شيئاً من النقود. وطالت المساومة بيننا إلى أن اتفقنا على مبلغ معيّن، ولم يكد الباب يُفتح حتى اندفعنا في كتلة واحدة وألقينا على الأرض القروش التي تمّ الاتفاق عليها ومضينا بسرعة في اتجاه الفندق.

واعتزمنا أن نزور بيت لحم التي تقع على بُعد ستة أميال من القدس، وهي مسافة نستطيع أن نقطعها على ظهور خيولنا في ساعتين. وغادرنا القدس من بوابة يافا (باب الخليل) واتجهنا جنوباً إلى أن وصلنا في منتصف المسافة تقريباً إلى دير مار الياس للروم الأرثوذكس، وهو دير ضخم مهيب تحيط به أسوار عالية.

ودخلنا بيت لحم (بيت الخبز)، ومن الغريب ان أول صوت سمعناه كان صوت الطاحونة البهيج. يُقال ان البلدة الصغيرة تضم نحو أربعة آلاف نسمة، معظمهم من المسيحيين الأرثوذكس. وقد لفت انتباهنا مظهر الاعتبار الذي يبدو على البلدة والمستوى الحسن لأبنيتها نسبياً، وجماعات الناس الذين تبدو عليهم الحيوية. وأخيراً بلغنا كنيسة المهد فسلّمنا مِقْوَد حصاننا إلى واحد من أهل البلدة، وفُتح الباب الحديدي بحذر. وسرعان ما تبين لنا ان الكنيسة مقسّمة إلى أجزاء بين طوائف الروم والأرثوذكس واللاتين والأرمن. وعندما خرجنا من الباب وجدنا بانتظارنا الرجل الذي تسلّم الحصان. وهنا أحاط بنا جمهور من الباعة وأخذوا يلحّون ويلحفون طالبين أن نبتاع مما معهم من تحف مصنوعة من خشب الزيتون والصدف الجميل الذي يجيئون به من البحر الأحمر، والمسابح المصنوعة من بذور الزيتون، والكؤوس والمزهريات المصنوعة من الرخام.

إلى أريحا

ثم كانت رحلتنا من القدس إلى نهر الأردن والبحر الميت. ولكننا

علمنا قبل بدء الرحلة ان هجوماً وقع على جماعة من السيّاح قبل يومين فقط، على الطريق التي كنا نعتزم سلوكها. ثم تبين ان هناك الكثير من المبالغة فيما وصل إلى أسماعنا. ومهما يكن من أمر، فقد كنا نعرف ان الطريق من القدس إلى نهر الأردن هي أكثر الطرق خطراً في فلسطين. ومن هنا فقد عملنا على أن نزيد عدد حرّاسنا البدو. وفي صباح اليوم التالي جاء اولئك الحراس، وكل منهم يحمل بندقية ذات أنبوبة طويلة، بينما كان زعيمهم يحمل بالإضافة إلى البندقية، سيفاً يتدلّى قرابه إلى جانبه ومسدسين ضخمين مربوطين بزنّاره.

ومضينا شرقاً، وكلما أوغلنا في طريقنا أصبحت الطريق أكثر وعورة. وبعد مسافة التقينا بجماعة من البدو مسلحين بالرماح وبنادق الفتيل. ورمقونا بنظرات شرسة ولكنهم لم يلحقوا بنا أي أذى. وعندما وصلنا إلى الوادي شاهدنا جدول ماء غزير تحيط بجانبيه أشجار الدفلى. ثم بلغنا آثار أريحا القديمة والنبع الذي يحاذيها والذي يُقال ان ماءه أحلى وأعذب ماء في فلسطين.

وسبقنا خدمنا إلى قرية أريحا الجديدة على بُعد كيلومترين إلى الجنوب، من أجل نصب الخيام وإعداد كل شيء لنا. أما نحن فقد مضينا إلى جانب مجرى الماء الذي كانت تحيط به أشجار تضفي على المكان حيوية وجمالا. وفي الوقت نفسه كان هناك نبع ماء آخر (عين الديوك) يجري من وادي القلط ويؤلف بدوره حزاماً أخضر على طول مجراه. وبالاضافة إلى هذا شاهدنا هنا وهناك بقعاً متفرقة تنمو فيها الأشجار والخضروات. ولكن سهل أريحا يبدو بصورة عامة عارياً أجرد، مع انه كان في عهد من العهود حديقة فلسطين كلها. ان معاصر قصب السكر ما تزال بقاياها بارزة للعيان في أماكن كثيرة حتى يومنا هذا. وقد كانت تزدهر هنا زراعة الكرمة وأشجار التين والحبوب والنيلة. وهنا كانت أشجار البلسم تبكي دموعها المعطرة بلسم الشفاء، الذي كان يُباع في روما بضعف وزنه من الفضة. وظلت أريحا عدة قرون تختال باسمها المحبب (مدينة النخيل). وقد ظلت كليوبترا تراجع حبيبها المتيّم مارك أنطوني حتى وافق أخيراً على اعطائها أريحا بائنة سنية لها.

وأخذت كواكب السماء الفضية تلقي أضواءها على خيامنا قبل أن نتناول طعام العشاء. واعتزمنا أن نخلد إلى النوم باكراً كي نعطي أجسامنا المتعبة قسطاً من الراحة. ولكن لم يلبث أن أقبل نحونا زائرون من قرية أريحا القريبة فحرمونا من ساعة نوم كنّا في أشد الحاجة اليها.

في صباح اليوم التالي صعدنا إلى قمة تلة قريبة وألقينا نظرة على قرية أريحا فتبيّن لنا ان عدد بيوتها يقارب أربعة وعشرين بيتاً، وأهلها من البدو الذين يمارسون الفلاحة. بعد هذا مضينا شرقاً باتجاه نهر الأردن. وعند وصولنا إلى النهر شاهدنا كاهناً يصلي. وبينما كنا نقف إلى جانب مجرى النهر رأينا رجلا عربياً متين البنية يخلع ملابسه ويربط حول حقويه جلد ماعز مملوء بالهواء، ثم يقذف بنفسه في الماء. وأمضينا ساعة غارقين في تأملاتنا. ثم اتجهنا جنوباً نحو البحر الميت، وعند وصولنا إلى الشاطيء وجدنا المكان خالياً ساكناً حزيناً لا حياة فيه. ولم نلبث أن اتجهنا إلى دير مار سابا، ذي الأبراج العالية، لكي نقضي ليلتنا القادمة فيه. وعند وصولنا قرعنا الباب الخارجي فأطلّ علينا راهب وسأل عما اذا كنا نحمل معنا إذناً من القدس لزيارة الدير. وعندما قدمنا له الإذن فتح الباب ببطء وحذر. ان هذا الدير من منشآت الكنيسة الأرثوذكسية، وهو أقدم الأديرة في فلسطين، إذ يعود انشاؤه إلى أواخر القرن الخامس للميلاد. ويقيم فيه الآن نحو خمسين راهباً.

عدنا إلى القدس وأخذنا نستعد لمغادرتها نهائياً. وفي تلك الأثناء إزداد عددنا فأصبحنا أحد عشر شخصاً. وقد استخدمنا دليلا لكي يرافقنا إلى بيروت ويزوّدنا بالمؤن والخيام والخيول والبغال والخدم. واستقر رأينا ان من الأفضل أن نعقد اتفاقاً خطياً مع ذلك الدليل نوقّعه جميعاً وبحضور القنصل البريطاني. ونص الاتفاق أن ندفع عندئذ نصف المبلغ المتفق عليه، أما النصف الثاني فيؤجل دفعه إلى ختام الرحلة، لكي نستوثق أن الدليل وفّى تماماً بما أخذ على عاتقه من شروط. وفيما بعد أدركنا صواب ذلك القرار لأن العربي يحترم العقد المكتوب خاصة عندما يختمه بخاتمه.

في الطريق إلى نابلس

وعندما غادرنا المدينة من باب العمود، كنّا نؤلف مجموعة قوية، إذ أن خدمنا الخمسة عشر زادوا عددنا إلى ستة وعشرين شخصاً. أضف إلى هذا وجود ٣٧ دابة من خيول وبغال وحمير كانت تحمل ثماني خيام وأواني الطبخ والأمتعة والمؤن. وكان (نجم)، كبير التراجمة معنا، يسير في الطليعة وهو على ظهر جواده، يبدو عليه الرضى بالاتفاق الذي توصل اليه معنا.

بعد أن سرنا مسافة لا بأس بها أخذنا نشاهد الحقول المزدانة بأشجار الكرمة. وأكثر ما لفت انتباهنا أبراج المراقبة التي ينشئونها هنا من الحجارة وترتفع أحياناً إلى أربعين أو خمسين قدماً، بحيث يستطيع الحارس من أعلاها أن يلقي أنظاره على المنطقة المحيطة بكاملها. وفي أثناء قطف المحصول ترى معظم الناس الذين يقومون بالعمل يقيمون في داخل هذه الأبراج.

وبينما كانت الشمس تميل إلى الغروب أسرعنا إلى نصب خيامنا في أحد الأودية التي تنمو فيها حشائش الربيع. كنا عندئذ بالقرب من بلدة بيتونيا، وهي بلدة اسلامية ترتفع بين منازلها أشجار نخيل باسقة تضفي على المكان روعةً وبهاء.

في اليوم التالي استأنفنا سيرنا، وكانت الأرض وعرة الا أنها كانت تزدان بأشجار الزيتون والتين والتوت. وبدا لنا واضحاً الجهد الذي يبذله الفلاحون في إنشاء المدرّجات على سفوح التلال من أجل زراعة الأشجار. وكانت جوانب الدرب كاسية بالعشب ذي الأزهار الرائعة. وبعد مسافة اقتربنا من نابلس، وازدادت الأرض جمالا بأشجارها المثمرة. وشاهدنا قرى عديدة على أكتاف التلال أو في جوانب الأودية بين أشجار الزيتون، أما الأراضي المنبسطة فكانت مزروعات القمح تموج فيها. امتلأت نفوسنا إعجاباً بعظمة المشهد وروعته. حقاً انها أجمل صورة شاهدناها في فلسطين الوسطى: صورة جبلي عيبال وجرزيم يشرفان على السهل. ها هي نباتات

الصبّار تغطي منحدرات عيبال وبساتين الكرمة تزيّن جوانب جرزيم. وسرنا أولا بين حقول القمح ثم ولجنا في غابات شجر الزيتون، وبعد ذلك وصلنا إلى منطقة البساتين التي تكثر فيها أشجار التوت والرمان والمشمش والكرمة، بينما تجري مياه الينابيع بينها حاملة معها الحياة والرواء والبهاء. ولم نلبث ان وصلنا إلى المكان الذي سبقنا اليه خدمنا ونصبوا فيه الخيام، إلى الغرب من البلدة. ولكن أهل البلدة كانوا قد عرفوا بمجيئنا فأقبل عدد كبير منهم للتفرج علينا. وتوجسنا خيفة من نظراتهم العابسة، إلى أن وصل رجل الإرسالية المقيم في البلدة مرحّباً بنا، فهدأ روعنا واطمأن بالنا.

أخلدنا إلى نوم عميق بعد متاعب السفر التي تحملناها. وفي صباح اليوم التالي جاء القس (القرّة) واصطحبنا معه إلى الكنيسة الصغيرة. ومضينا معه، فوجدنا الكنيسة مفروشة بالحشايا يجلس عليها المصلون على الطريقة الشرقية. وقام أحد زملائنا بخدمة القداس. ولست أدري كم كان عدد الطوائف التي مثلها المصلون الأحد عشر الذين شاركونا في الصلاة، ولكننا كنا جميعاً متحدين في رفع أكفّ الضراعة إلى أبينا الذي في السماء.

بعد الصلاة سرنا لقضاء بعض الوقت عند بئر يعقوب، ولكن رذاذ المطر أخذ ينزل علينا ويبلّل ثيابنا. وبعد وقفة تأمل قصيرة عدنا إلى خيامنا، ولكن الرذاذ لم يلبث أن تحول إلى مطر غزير. وظهر عندئذ ان قماش خيامنا لم يكن متيناً بما فيه الكفاية، إذ سرعان ما ابتلّت الأرض داخل الخيمة، بل امتدّ البلل إلى فراشنا. وتكاثفت الغيوم حتى لم نعد نرى قمتي الجبلين. وتساءلنا: ماذا سنفعل؟ وأمضينا بعض الوقت في حيرة إلى أن أطل علينا القس مرة أخرى قبيل مغيب الشمس. فأخذنا نمطره بالأسئلة: ألا يوجد في البلدة فندق أو خان نستطيع أن نأوي اليه ونقضي ليلتنا فيه؟ لا شيء من ذلك. واتضح ان القس يستطيع ان يستضيف اثنين منا فقط في منزله. وسرعان ما اخترنا من بين رفاقنا الطبيب وزوجته كي يحلّا في منزل القس. وتساءل البعض: هل يمكن أن نلجأ إلى الكنيسة الصغيرة؟ أجل، ذلك ممكن. ومضيت مع بعض الرفاق إلى ذلك المكان بينما اعتزم آخرون أن يقضوا الليلة في الخيام على أمل أن ينقطع هطول المطر. ودخلنا من بوابة

البلدة بينما كان الحارس على وشك اغلاقها. وسرنا في الشارع وكان ماء المطر قد أخذ يجري فيه. وهكذا قضينا ليلتنا في راحة تامة. وفي صباح اليوم التالي عدنا إلى خيامنا فأدركنا حُسن حظنا عندما شاهدنا رفاقنا الذين تخلفوا وراءنا وقضوا ليلتهم في أسوأ حال، إذ تساقطت أعمدة الخيام بفعل الريح وابتلّت ملابسهم وأخذوا يرتجفون من البرد.

وأشرقت الشمس وتحسّن الجو، فمضينا إلى البلدة القديمة نستكشف معالمها. وتبيّن لنا ان نابلس تتألف من شارعين يسيران متوازيين مع امتداد الوادي. وتتفرّع عنهما عدة شوارع صغيرة. ولاحظنا ان الطوابق العليا تتقارب حتى تؤلف نوعاً من المظلة تحمي السابلة من أشعة الشمس. وشاهدنا أسواقاً تُباع فيها المواد التموينية والأقمشة، وكان احد الشارعين مفتوحاً من فوق أما الآخر فكان مسقوفاً. ولكننا لم نشاهد بقايا من آثار الشعوب القديمة. وكانت الأبنية متراصّة لولا وجود البساتين الناضرة التي تكثر في داخل البلدة وترتفع أغصان بعضها حتى توازي قمم المآذن. ويعود سبب إزدهار البلدة الي ما فيها من صناعات تجعلها البلدة الصناعية الأولى في فلسطين. هنا تكثر مصانع الصابون، وكذلك مصانع حياكة القطن، بالاضافة إلى ما تنتج معاصرها من زيت الزيتون. أضف إلى ما تقدم ان وادي نابلس يؤلف بوابة تدخل منها البضائع القادمة من مينائي يافا وبيروت إلى مناطق شرقي الأردن. وبالمقابل يمر منها التجار القادمون من الشرق ومعهم بضائعهم في طريقها إلى الموانيء الغربية. وليس من المستبعد أن تكون هناك الآن قافلة قريبة تحمل جمالها وبغالها البضائع القادمة من دمشق، بل من بغداد، في طريقها إلى بلاد الأهرام.

تختلف التقديرات حول عدد السكان، ولكننا نعتقد ان سكان نابلس يزيدون على عشرة آلاف نسمة. ومن بين هؤلاء يوجد ٥٠ يهودياً و ١٠٠ مسيحي، و ١٥٠ سامرياً. وقد قمنا بزيارة إحدى عائلات السامريين، فوجدنا ثلاثة أجيال منها تقيم تحت سقف واحد: الجد وابنه وحفيده. وكان الحفيد في الثانية عشرة من عمره، وإلى جانبه خطيبته التي تماثله في العمر، وقيل لنا انهما سوف يتزوجان بعد بضعة أشهر. وأرجو من القارىء أن لا

يستغرب هذا القول، لأن سن الثانية عشرة هي سن الزواج في فلسطين وسوريا كلها.

الناصرة وطبريا

وأخيراً غادرنا نابلس باتجاه مرج ابن عامر، وسرنا في منطقة خصيبة تكثر فيها الينابيع وتزدهر حقول القمح والأشجار المثمرة. وفي أحد الأماكن مررنا بطاحونة ماء تدور بقوة الماء، وكذلك مررنا بقطيع أغنام يعمل الرعاة على إروائه من ماء أحد الينابيع. ثم مررنا بقرية سبسطية التي تضم نحو ٦٠ بيتاً. وقُبيل مغيب الشمس نصبنا خيامنا على طرف وادي المرج العظيم، غير بعيد عن بلدة جنين. وقد استطعنا أن نشاهد مآذن الجوامع وقبابها ترتفع فوق أشجار الزيتون، مما جعلنا نتذكّر اسمها القديم (نبع البساتين).

في اليوم التالي التقينا برتل من الخيالة الأتراك يقارب عددهم مئة رجل، وهم يسيرون في ترتيب عسكري باتجاه الجنوب. وهذا الوادي ذو خصوبة طبيعية عالية، ولكن في الوقت الحاضر لا يُزرع منه الا سدس مساحته، ويمرّ منه نهر المقطع (قيشون) في طريقه إلى البحر. وعند وصولنا إلى الناصرة فيما بعد، علمنا ان جماعة من التجار الأوروبيين في بيروت، ابتاعوا أراضي المرج كلها من الحكومة العثمانية بمبلغ ١٨ ألف جنيه، من أجل استغلاله وتطوير موارده الطبيعية العظيمة.

ومضينا نعبر المرج باتجاه تلال الجليل، إلى أن وصلنا إلى قرية شونم ذات الموقع الجميل. ثم حططنا رحالنا في بستان تكثير فيه أشجار الليمون والبرتقال. وجلسنا في ظلال الشجر نتّقي وهج الشمس ونتناول طعام الغداء. وبعد نصف ساعة كان نصف سكان القرية يتحلقون حولنا، ولكن نظراتهم كانت ودية فضولية بعكس نظرات أهل نابلس العابسة. وتطلع واحد منا نحو غصن ليمون فوق رؤوسنا ينوء بالثمار، فلم يكن من أحد رجال القرية الا أنه قطع الغصن بضربة واحدة من سيفه فسقط أمامنا، وكان نصيب كل واحد منا ليمونة أو اثنتين.

بعد الغداء استأنفنا سيرنا نتسلق المرتفعات المعشبة. ولم نلبث ان أقبلنا على الناصرة، وكانت اللحظات الأولى من رؤيتنا لها لحظات شعور ديني عميق لا يمكن أن ننساها. هنا قضى السيد المسيح أيام طفولته وشبابه. ومضينا نسير في شوارع البلدة الضيقة، ثم نصبنا خيامنا في الطرف الشمالي بين أشجار الزيتون الظليلة، غير بعيد عن (عين السيدة) التي يتفرّع ماؤها في ثلاث قنوات.

كنا عندئذ في ساعة العصر، ولذلك أسرعنا عائدين إلى البلدة نتجول فيها. ان عدد السكان يُقدّر بأربعة آلاف نسمة، بينهم بضع مئات من المسلمين والباقون مسيحيون. ولا يوجد في البلدة أي يهود. وتتمتع البلدة بشيء من الرخاء، فبيوتها مبنية من الحجر، وأسواقها ودكاكينها ناشطة، ويبدو الإزدهار واضحاً في ملابس النساء الزاهية. وفي البلدة دير كبير لطائفة اللاتين وآخر لطائفة الارثوذكس وجامع وكنيسة صغيرة لطائفة الموارنة. واذا خامرتنا أية شكوك في صحة ما يُقال لنا من وجود المواضع المختلفة التي كان المسيح يرتادها، وخاصة عندما كان يمارس صنعة النجارة - فهناك موضع واحد لا يتطرّق الشك إلى انه ما يزال في مكانه القديم. انه النبع الذي يجري ماؤه في ثلاث سنوات ويصب في بركة واسعة. وقد شاهدنا في صباح اليوم التالي أعداداً من النساء والفتيات يحملن جرار الفخار برشاقة على رؤوسهن أو أكتافهن، لكي يملأنها بالماء ويعدن بها إلى منازلهن.

في اليوم التالي اعتزمنا أن نزور جبل الكرمل، فمضينا على خيولنا نسير في أراضي مرج بني عامر مرة أخرى. وقد دهشنا لمشاهدة قطعان كبيرة من الغزلان الجميلة التي بادرت إلى الفرار بعيداً عند رؤيتها إيانا. ووجدنا صعوبة في عبور نهر المقطع إذ كانت مياهه قد ازدادت نتيجة لأمطار الشتاء. وبعد انتهاء هذه الرحلة عدنا إلى الناصرة مع مغيب الشمس. بينما كان المؤذن من على سطح الجامع يدعو المسلمين إلى الصلاة.

بعد يومين مضينا من الناصرة إلى كفر كنّا التي حدثت فيها أول أعجوبة للسيد المسيح. تقوم هذه القرية على مرتفع من الأرض ويتألف

سورها الدفاعي من نباتات الصبّار الكثيفة. وبعد خروجنا من القرية صادفتنا جماعة من الحجاج الأرمن في طريقها إلى القدس، وكان عدد هؤلاء لا يقل عن مئة بين رجال ونساء وأطفال. ويلاقي الحجّاج مخاطر جمّة في أثناء رحلتهم الطويلة، ولا سيما بعد غروب الشمس. وأعظم الأخطار تتمثل في الوحوش المفترسة وقطّاع الطرق. وما يزال المسافر حتى الآن يخشى الضبع والذئب والفهد والبدوي.

ومررنا بالقرب من قرني حطين، هذا المكان الذي اشتهر بسبب المعركة التي نشبت في السهل الواقع تحتهما سنة ١١٨٧ حيث ألحق رجل الفروسية صلاح الدين بجيش الصليبيين تلك الهزيمة الساحقة التي جعلت المسلمين سادة البلاد الدائمين.

وأشرفنا على بحيرة طبريا التي يكثر فيها السمك، وشاهدنا في القرية عدداً من أشجار النخيل. وفي اليوم التالي قمنا بجولة حول البحيرة ومررنا أثناء ذلك بعدد من القرى الصغيرة التي كان أهلها يبحلقون فينا متعجبين، لأنهم لم يعتادوا على رؤية الغرباء. ولاحظنا ان جميع الرجال هنا يحملون أسلحتهم، فاستدللنا من ذلك ان الأمن مفقود وأحوال البلاد مضطربة.

أما نهر الأردن فيجري بقوة شديدة أحياناً، وقد مررنا بعدد من الجسور المتهدمة التي لم يبق منها الا بعض القواعد القديمة، ثم وصلنا إلى جسر كبير متين مبني من الحجر، يتألف من قنطرة كبيرة وقنطرتين أصغر منها. رأينا الجسر دون حواجز على الاطلاق، بينما كانت مياه النهر تتدفق تحته بقوة فائقة. وأدركنا ان هذا هو الجسر الذي يمر عليه المسافرون من مصر والمناطق الغربية في طريقهم إلى دمشق. وأكد لنا هذا وجود خان قديم في جانبه الغربي الذي كان يوفر مكان إقامة للمسافرين على مدى أجيال. واعتزمنا ان نعبر الجسر شرقاً على الرغم من ان بعضنا خشي من اعتداء البدو. وقرّ رأينا أن نعمل بتقاليد الضيافة البدوية، فنتقدم إلى منازلهم بصفة أصدقاء. وكان هذا ما حدث فعلا. وسرعان ما قُدّمت لنا القهوة ووجدنا الترحيب الذي كنا نتوقعه. بعد ذلك سرنا عدة أميال إلى الشرق، وكان

سرورنا عظيماً لأننا التقينا بالبدو في أراضيهم، وعلى الأقل اتصلنا بالمنطقة الواقعة وراء الأردن.

وعدنا إلى طبريا وتجولنا فيها، فشاهدنا أسوارها متهدمة في عدة مواضع بسبب الهزّة الأرضية. وقد أعطتنا هذه الأسوار العالية فكرة عن انها كانت فيما مضى تضم داخلها مدينة ذات أهمية. ولكن ما أعظم الفرق بين القشرة الخارجية وما كان في جوفها. فهنا جزء كبير غير مأهول، وقد تجمع السكان في الوسط، كأنهم يخشون وقوع هزة أخرى. ويُقدّر عدد السكان بألفي نسمة بينهم عدد قليل من الأسر المسيحية و ٨٠٠ يهودي. أما البقية فمسلمون. وبدا لنا ان النظافة معدومة، خصوصاً في الجزء اليهودي من البلدة، ولم تكن هناك شوارع لأن إنشاء البيوت لم يخضع لأي نوع من التنظيم.

لم نطل الإقامة في طبريا لكثرة ما فيها من الهوامّ والحشرات، مصداقاً لمقولة العرب «ان ملك الذباب يعقد بلاطه في طبريا». وبعد ساعة ونصف وصلنا إلى قرية المجدل التي تضم نحو عشرين كوخاً فقط. ثم وصلنا إلى بقايا خان المنية. وواصلنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى بلدة صفد عند العصر، وكان علينا ان نسير اثني عشر ميلا في الصعود على أرض وعرة مما أرهق خيولنا. ونصبنا خيامنا بين أشجار الزيتون غير بعيد عن القلعة العظيمة القديمة التي بناها المسلمون، والتي أصابها دمار كبير في زلزال ١٨٣٧. ان موقع صفد على قمة الجبل يتيح المجال لمشاهدة دائرة واسعة من المناطق المحيطة، أكثر من أي موقع آخر في فلسطين. انها ترتفع أكثر من ألفي قدم فوق مستوى بحيرة طبريا. لقد أصيبت هذه البلدة بدمار كبير نتيجة الزلزال الذي وقع مساء يوم ١ كانون الثاني ١٨٣٧ وابتلع ستة آلاف شخص من سكانها في ساعة واحدة. وعلى الرغم من ذلك الزلزال فإن صفد عادت للحياة مرة أخرى، حتى ان سكانها الآن لا يقلون عن ستة آلاف نسمة، نصفهم من اليهود.

واتجهنا من صفد إلى قرية قَدَس التي كانت في عهد الكنعانيين واحدة



شيخ بدوي مسلّح برمح طويل (عن كتاب جيمس نيل)

من مدنهم الملكية. ثم مررنا بمستوطنة يقيم فيها جزائريون تركوا بلادهم بعد استيلاء الفرنسيين عليها. ومضينا من هناك إلى قلعة هونين، وأخذنا نقترب من جبل حرمون (جبل الشيخ) الذي وصفه أحد الشعراء العرب وصفاً جميلا بقوله انه يحمل الشتاء في رأسه والربيع على أكتافه والخريف في حضنه بينما يغفو الصيف تحت قدميه.



جسر المجامع: جسر روماني قديم فوق نهر الأردن.

الكشاف

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ر)

(ز)

(س)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

محتويات الكتاب

منشورات دائرة الثقافة والفنون

١٩٨٧

عبدالمنعم الرفاعي ـ حياته وشعره	محمد أحمد موسى
رحلات في الأردن وفلسطين	سليمان موسى
رفعت الصليبي ـ مقالات وقصائد	د. سحبان خليفات
دراسات في نظرية الهجرة ومشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية	د. أحمد الربايعه
الطلاب والشباب ـ فرص وتحديات	حسني عايش
الأغنية السينمائية بين الشكل والمضمون	حسان أبو غنيمه
الطرنيب ـ مجموعة قصصية	خالد محادين
وردة في الخريف ـ مجموعة قصصية	يوسف الغزو
Symphonics of the Heart	Abdullah Al- Shahham

الطباعة : المؤسسة الصحفية الاردنية